دار الطليعة . بيروت

جولييت غارمادي

اللسانة الاجتماعية

LA SOCIOLINGUISTIQUE
SOCIAL - LINGUISTICS

عرّبه د. خليل أحمد خليل



جولييت غارمادي

اللسانة الاجتماعية

LA SOCIOLINGUISTIQUE
SOCIAL-LINGUISTICS

عرّبه د. خليل أحمد خليل

أستاذ اجتماعيّات المعرفة/ الجامعة اللبنانية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ـ ص ب ١١١٨١٣
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى
تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٩٠

محتويات الكتاب

الفصل الثالث : المواقف اللغوية الأحديّة

المواقف والتلونات اللسانية

الفصل الرابع : المواقف اللغوية المتعددة

الفصل الخامس ـ السياسات والتخطيطات اللسانية

التخطيطات اللسانيّة الأولى

التخطيط اللساني ، الاستعمار وتصفية الاستعمار

الرموز الصواتية

إن الكتابات الصواتية والصوتيّة العلمية تستعمل هنا الرموز التالية :

صوائت شفهية :

i	مثل	Si	بالفرنسية
e	مثل	thé	بالفرنسية
ɛ	مثل	mettre	بالفرنسية
a	مثل	pâtte	بالفرنسية
y	مثل	lune	بالفرنسية
ø	مثل	feu	بالفرنسية
œ	مثل	œuf	بالفرنسية
ə	مثل	«e الخرساء»	بالفرنسية
u	مثل	tout	بالفرنسية
o	مثل	beau	بالفرنسية
ɔ	مثل	forte	بالفرنسية

صوائت أنفيّة :

ɛ̃	مثل	lin
õ	مثل	bon
ã	مثل	banc

اما الرموز ʌ, y, w فتقيّد الصوائت ذات النطق الموازي لـ «u».

o، ɔ ، ولكنّها صوائت مطبوعة بالتقلّص الشفهي .

ويُشار الى الامتداد الصوتي بـ : ā, ō, ū .

أما الرمز u/o فيلحظ تحققاً صوتياً ذا فتحة وسيطة بين فتحة الصائتين u و o .

شبه صوائت

يشير j وw إلى اشباه الصوائت المقابلة لـ i و u ؛ و v شبه صائت شفهي يخرج من بين الاسنان .

الصّوامت

p	مثل	poule, pas	بالفرنسية
b	مثل	boue, bas	بالفرنسية
m	مثل	mou, mie	بالفرنسية
Φ	مثل	h في huzi	باليابانية ؛ تحقّق /f/ في اللون الشعبي بالتوسكانيّة ؛ ملفوظ بالشفتين احتكاكي ، أصمّ .
f	مثل	fou, fils	بالفرنسية
v	مثل	vous, vie	بالفرنسية
θ	مثل	thing	بالانكليزية، ملفوظ بين الأسنان أصم .
ð	مثل	this	بالانكليزية، ملفوظ بين الاسنان، رنان .
t	مثل	tout, ta	بالفرنسية
d	مثل	doux, dit	بالفرنسية
n	مثل	nous, ni	بالفرنسية
ɲ	مثل	rogne	بالفرنسية ، niño بالاسبانيّة
ŋ	مثل	sing	بالانكليزية

ʎ مثل llano بالاسبانية ؛ gli بالايطالية .

r مثل « r ملتوية » بالفرنسيــة، متموجَــة، سنخيّة (رئوية).

s مثل sous, scie بالفرنسية .

z مثل zèle بالفرنسية

š مثل chat, chou بالفرنسية

ž مثل jeu, jour بالفرنسية

k مثل qui, cas, cou بالفرنسية

g مثل gui, gars, goût بالفرنسية

x ـ مثل خ بالعربية ، /saxar/ بالروسيّة .

R ، « r الملثوغة » بالفرنسية ؛ غ بالعربية .

ʁ تحقق احتكاكي من الخلف لـ /r/ الفرنسية .

ħ ، ح بالعربية ، ملفوظ من البلعوم ؛ اصم .

ʕ ، ع بالعربية ، ملفوظ من البلعوم ؛ رنّان .

h ، ه بالعربية ، زردميّ رنّان ، احتكاكي .

ʔ ، ء بالعربية ، سادّ ، زردميّ .

q ، ق بالعربية ، زردميّ ، لهويّ .

إن النقطة الموضوعة تحت الصّــوامت (ṭ, ṛ, ṣ....) تشير إلى تفخيم الصّوامت .

الفصل الأول

اللسانة، العلوم الاجتماعية واللسانة الاجتماعية

I/ ١ ـ ميراث سوسير

في البدء كان سوسير (Saussure)... إلا انّ اعمال هذا الباحث الجنيفي، التي ستؤسس اعمال اللسانة العلمية الى حد كبير، لن يكون لها، نسبياً، سوى أصداء قليلة في ما سيكون عليه الفكر اللساني ـ الاجتماعي لاحقاً. فهي لن تخدم، حتى في أوروبا الغربيّة، كنقطة انطلاق حقيقية ووحيدة للأبحاث اللسانية ـ الاجتماعيّة.

في الحقيقة، لم يكن شاغل سوسير الأول إرساء الأسس الكافية لدرس العلاقات بين اللغات والمجتمعات، وإنما كان هاجسه بالأولى تحديد موضوع وإيجاد طرائق اللسانة ذاتها. إن اللغة منظومة لا تعرفُ سوى نظامها الخاص بها (Cours، ص ٤٣)(١)، وان واحدةً من مهمات اللسانة الاولى هي انْ تحدِّد ذاتها وان تُعرِّف نفسها، كما يعلن سوسير. وعلى هذا النحو، كان يشترط في المقام الأول توفر الاستقلالية الاعظم لعلم جديد في حينه، وكان يتعيّن عليه

(١) عناوين المراجع واردة هنا في صورة مختصرة، ومندمجة في النص؛ اما العنوان الكامل فهو وارد في لائحة المراجع (Bibliographie).

ان يفرض ذاته بتحديد موقعه بكل وضوح في مواجهة علوم أخرى (فيزيولوجيا ، علم نفس ، منطق ، فلسفة ، علم اجتماع، تاريخ...) جرت العادة منذ أمد بعيد على إلحاقها كلها أو بعضها بدراسة اللغات.

I/٢ـ اللسانة، الفيزيولوجيا وعلم النّفس

كان رأي سوسير واضحاً في العلاقات بين اللسانة والفيزيولوجيا . ففي نظره ، يُعتبر جوهر اللغة غريباً عن الطابع الصوتي. كما أنّ الأعضاء الصوتية تعتبر خارجية بالنسبة الى منظومة اللغة، بقدر ما تعتبر الاجهزة الكهربائية التي تستخدم في نسخ أبجدية مورس (Morse) غريبةً عن هذه الابجديّة. امام اقتناع كهذا، ساد في ما بعد تردّد طويل في إعادة النّظر في جمود اعضاء التصويت ولا تناسقها، بوصفها عوامل اشتراط لا يمكن تجاهلها في الديناميكيّة التساوقيّة وفي تطور المنظومات الصوتية العلميّة (الفونولوجيّة).

كان سوسير ، في معرض استفهامه عن العلاقات بين اللسانة وعلم النفس، يتساءل عمّا إذا كان في إمكان اللغة أنْ تفيد في إبراز النمط الذهني وتمييزه، وعما إذا كانت اللغة تعكس الطابع البسيكولوجي للجماعة أو للامة التي تتكلمها. إن ردّه الأوضح يقع في نطاق الصواتة التعاقبيّة : ليس لطابع الجماعة اللغوية النفسي سوى أهمية ضئيلة بأزاء الغاء صائت أو تعديل نبرة. ولكن النظرية السوسيرية، من جهة ثانية وبكيفية عامة ، لا تقوم على أساس قطيعة مع علم النفس المأثور (الكلاسيكي) . ومثال ذلك ، وكما يلفتنا جورج مونان (Georges Mounin, Problèmes, p.23) أنّ الصيغة السوسيرية القائلة إن الإشارة (العلامة) اللسانية لا تجمع شيئاً وإسماً، بل تجمع تصوّراً وصورة سمعية، إنما تفترض الرابطة التي

يمكنها أن تجمع بين التصورات والأشياء ، كمعطى من معطيات علم النفس . إن التحليل السوسيري لمفهوم المعنى يظلّ قائماً على علم نفس العصر ، ولا يتساءل عن الطبيعة الشمولية للمفاهيم ، بوصفها انعكاساً لاختبار بشري شامل .

I/٣ـ اللسانة، التاريخ والمجتمع

يقرّر سوسير أنّ اللغة منظومة علامات أودعها مراسُ الكلام في الجمهور المتكلّم ، وأنّ المنظومة ناتجة عن تبلور اجتماعي، وان الطبيعة الاجتماعية هي طابع داخلي للمنظومة ، وأنّه لا توجد حقيقة لسانية خارج الديمومة والجمهور المتكلّم ، وان الزّمن وحده يأذنُ للقوى الاجتماعيّة بممارسة تأثيراتها على اللغة ، الخ . بعدما أحكم الربط ، داخل الديمومة ، بين المنظومة اللسانية والواقع الاجتماعي والجمهور المتكلّم ، اكتفى سوسير بالتوقف عند استخلاص الحد الأدنى من نتائج هذا الربط . فإذا كان يتعيّن النظر في تشكيلة عوامل التبدّل ، لكي نعلم إلى أي حد تكون ضرورية ـ كما كتب سوسير ـ فمن الأفضل التخلي ، مؤقتاً ، عن تقديم جردة دقيقة بأسباب قابلية التبدّل . ففي نظر سوسير ، أن يكون التبدل اللساني مجرد تغيّر ، وان يكون التاريخ ديمومةً وحسب ، وان ينحصر تكثّف الوقائع الاجتماعية في جمهور متكلّم تجتازه قوّتان متعاكستان (« روحية مسقط الرأس » التي تؤدي فعلاً تحليلياً ، و « قوّة حق التبادل » التي تشكل المبدأ التوحيدي) ، فإن هذا كله لا يميّزه تمييزاً جذرياً من أسلافه ومن الكثيرين من معاصريه . فهؤلاء الأخيرون يدافعون عن نظريات اجتماعية إجماعيّة ولا يزالون يحلمون باستقرار اللغة استقراراً نسبياً على الأقل.

ومذ ذاك ، كان يتعيّن على **اللسانة الداخليّة** (Linguistique interne) أن تعمل على تنظيم وقائع المنظومة وحدها ، في نطاق

تساوق دقيق ، باعتبار ان اللغات هي ماهيّات او كيانات متراصة ، مؤتلفةٌ ، وان لم تكن مستقلة ، فهي على الاقل مستقلة على قدْر الإمكان . وربما يكون في إمكان لسانة الكلام (La linguistique de la parole) وهي **اللسانة الخارجية ، اللسانة الاسترجاعية** (La linguistique rétrospective) **والجغرافيا اللسانية** (La géographie linguistique) ، الخ ، ان تحاول تنظيم الباقي ، دون أن يكون ثمة موضوع دراسي أولوي حقاً ، ومما لا شك فيه انّه غالباً ما تُنوسيَ في ما بعد الطابع الذي كان سوسير ، رغم ظرفيّته ، قد منحه لتخليّه ؛ ومع ذلك لا يرقى الشك إلى أن دقّة فرضيات العمل الأولى كانت ضرورية ، فهي ان لم توصل إلى الخلاص ، فقد اوصلت إلى بعض الحقيقة .. هذا بالتأكيد هو المكسب المترتّب على الدراسات التساوقية المفهومة على هذا النحو ، والذي أتاح للسانة المعاصرة ان تتخذ لها ، وفي اسرع وقت ، اسساً علمية حقيقية . يبقى صحيحاً انَّ المستلزمات السوسيرية كانت تحمل في ذاتها جزءاً من موقف التحدّي الاولي الذي تمكّن اللسانيّون ، في ما بعد ، من تعهّده في مواجهة العلوم الاجتماعيّة.

I/٤ـ العلوم الاجتماعيّة واللسانة

سبق للسانة ان حدّدت بوضوح موضوعها ومناهجها الخاصة بها ، وكانت على هذا النحو قد صارت العلم الرائد الذي كانت تُقترَض منه المناهج والنتائج ، بينما كانت العلوم الاجتماعية لا تزال تبحث عن الحدود والتكامليّات والتراتبات في ما بينها. وعليه، فإن موقف التحدي الأولي الذي كان اللسانيون يتعهّدونه أحياناً ، تجاه العلوم الاجتماعيّة ، لا يعود كلياً ، بلا ريب ، إلى المستلزمات السوسيرية وحدَها.

ففي القارتين الاوروبية والاميركيّة اللاتينية ، كان علم

الاجتماع قد ظل الى أمدٍ طويل ، في نظر الكثيرين ، نوعاً من فلسفة اجتماعية حيث لم تكن المعارف العينيّة ، المعارف التي يقدّمها الاختبار، تستخدم البتّة إلاّ لإسناد تأمل محض نظري في مبادىء الحياة ذاتها في المجتمع . وكان القيّمون على علم الاجتماع هذا ، يكلّفون الجغرافيا البشرية ، والتاريخ أو الفلسفة ، بمهمة التوليف بين ابحاثهم . وبعد ذلك ، أُريد بالعكس ان يُجعل من علم الاجتماع قمّةً لهرم العلوم الاجتماعية المتحرّرة قدر الإمكان من الهيمنة الفلسفية . كان علم الاجتماع يُصوَّر كأنه التوليفُ الممكنُ لدراسات موضوعية ، اختباريّة ، أجريت حول المجتمعات المكثّفة المعاصرة أو حول المجتمعات الموسومة بالبدائية . وعليه ، كان يتعيّن على الاثنوغرافيا و الاثنولوجيا أن تصيرا من فروع علم الاجتماع . إلاّ أنّ كلود لفي ـ ستروس كان قد استخلص في نهاية السنوات ١٩٥٠ ، وبالتالي بعد دوركيم بأمد طويل ، أن الأمر لم يصل بعد إلى هذا الحد ، وان علم الاجتماع لم يكن قد جرى تصوره بعد ، في أي مكان ، كتتويجٍ لعلوم الاجتماع.

يبدو أنّ التوافق قد وقع سريعاً بين شطري الأطلسي على الاثنوغرافيا . وكانت المناهج الخاصة بالاثنوغرافيّ قوامها : العمل الميداني ، لحظ الظواهر الخاصة بالجماعات الصغيرة ، تحليل الظواهر الملحوظة وتنظيمها لوضع الوثائق الوصفيّة. وبعد ذلك، قام الباحثون الانكلوسكسونيّون بتطبيقها على المجتمعات المكثّفة ، جاعلين من علم الاجتماع ، على هذا النحو ، فرعاً من الاثنوغرافيا ، حتى وان كان في مستطاع النتيجة ان تفقد ، بسبب من ذلك على صعيد الدقّة والوضوح ، ما كان موضوع البحث يكسبه على مستوى الكثافة .

وكان المقصود بالنسبة إلى الاثنولوجيا مقارنة الوثائق التي تقدّمها الاثنوغرافيا حتى تُستخلص منها نماذج . ثم كانت

الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تتولّى إجراء التوليفات الأخيرة . وكان مصطلحا اثنوغرافيا و اثنولوجيا يُمرّان إلى جانب مصطلح انتروبولوجيا ، وذلك بقدر ما كان البعض لا يزال يعتبر بمثابة ثلاثة أنماط بحثيّة مختلفة ما يُعتبر اليوم ، عموماً ، بمثابة ثلاث فترات من بحث واحد.

إن **اللسانة الإثنية** (Ethnolinguistique) الاميركيّة ولدت من حاجة الاثنوغرافيين والإثنولوجيّين إلى ممارسة لغات الشعوب التي كانوا يرصدونها . عندئذٍ، أكثر الباحثون من الدراسات الفاردة (Monographies) ، أولاً حول اللغات الاميركية - الهندية ، وبوجه أعمّ حول لغاتٍ بلا كتابة ، كان تاريخها يفوتُهم في زمنٍ أوّل . بعد وضع مشروع الإحاطة الشاملة بالعلاقات التي تقيمها اللغات مع سياقها الاجتماعي الثقافي، وبعد إصدار فرضيّات مثل فرضيّة الفعل التنظيمي للغة في السلوك المعرفي ، وبالتالي ، في رؤية العالم وفي ثقافة الذي يتكلّمها ، تهتّم اللسانة الإثنية ، اليوم ، اهتماماً رئيساً بعلاقات الرسالة اللسانية مع مجمل ظروف الإبلاغ أو الاتصال . في البداية كانت اللسانة الاثنيّة محصورة في ميدان المجتمعات الموسومة بالبدائية ، وهي تعلن أنّ كل ميدان يعود لها من الآن فصاعداً ، حتى ميدان المجتمعات الحديثة الأكثر كثافةً ، إن هذا التعريف الجديد لبرنامج ابحاث اللسانة الاثنيّة ، يقرّب هذا العلم ، بكيفية فريدة ، من اللسانة الاجتماعيّة ، لدرجة أنّ البعض قد لا يعود يتردّد ، بلا شك ، في الكلام على لسانة اجتماعية - اثنية (Ethno-Sociolinguistique) .

بالنسبة الى **اثنوغرافيا الخطاب** ، ينادي دل هـ . هيمز (Hymes) بالعودة إلى العمل الميداني ، الوحيد الذي يستطيع أن يوّفر المعطيات الواجب تنظيمها في إطار تحليل بنيوي . فاستعمالات الخطاب ومواضعه تشكّل منظومة ثقافيّة حقيقيّة يتعيّن

استخلاصها . ولابد من ردم المسافة بين ما تصفه الاثنوغـرافيا بحصر المعنى ، وما تصفه علوم القواعد والقـواميس . فلابـد من الإحاطة بكل ما تعيّن على المتكلم استبطانه ، في ما يتعدّى النحو والمعجم ، لكي يصبح عضواً كامل العضوية في متحدّه اللسانيّ ، ولكي يشارك بكيفية مناسبة في سلوك جماعته الشفهي ، ويقع على كاهل **إثنوغرافيا الإتصال** ان تثبت ما إذا كان الاستعمال المكتوب للمنظومة اللسانيّة ، والاتصال بالحـركات والإشـارات ، واستعمال الأداء (النّغم) وحتى استعمال الصمت ، تشكّل أو لا تشكّل منظومةً مع الاتصال اللساني الشفهي ، وما إذا كانت هذه المنظومة تملك قواعد أدائها الخاصة بها . يتحدّثُ البحث الأميركي عن Paralinguistics, proxemics, kinesics . كتبت جنّة مارتينه (Jeanne Martinet: La sémiologie du geste, dans: La linguistique, 10-2, p. 137):

« يُدّل بالانكليزية على سميولوجيا الحركة بوصفها Kinesics ، ومن هنا الانتحال [بالفرنسية] لـ «Kinésique» . وسوف يُقال على نحو أفضل بـالفرنسيـة «Cinétique» للدلالـة على هذا الفـرع من السميولوجيا الذي يتناول الحركات بوصفها علاماتٍ تشكّلُ منظوماتٍ تستعمل للاتصال بمفردها أو بالاقتران مع اللغة . وتقوم شبهُ اللسانة و La Proxémique بدراسة جوانب الاتصال الأخرى ، غير الشفهية . يبدو أنَّ هذه العلوم تحدّد حقلها بالاستناد إلى قناة نقل المعلومات : سمعية بالنسبة الى اللغة وشبه اللغة . بصـريّة بـالنسبة لـلأمور الأخرى . إن معايير كهذه لتصنيف الـوقائـع تميّز وتبـرّز الطبيعة الفيزيائية للظواهـر على حساب الـوظيفة التي تؤديهـا في مسار الاتصال » .

I/٥ ـ اللسانة ، اللسانة الاجتماعيّة واجتمـاعيّات اللغة

عندما نقل اللسانيّون اهتمامهم إلى ما يتعدّى الحدود الضيّقة التي كانوا ، بادىء الأمر ، قد وضعوهـا لعلمهم الخاص ، وقـرّروا الانكباب على درس العلاقات بين المنظومات والاستعمالات اللسانيّة والوقائع المجتمعيّة ، إنّما تعيّن عليهم التحفّظ على البقايا الحيّة من فلسفة معيّنة للغة ، وكذلـك تعيّن عليهم التحفظ على علم اجتماعٍ كـان ، على ما يبـدو ، مديـداً ، حتى يـرتّـد عن تـأملـه النظـري والتنظيري . وفي الواقـع ، لم يكن هذا الأمـر مشجعاً ولا مؤاتياً لاشتراكهم الفوري في **اجتماعيّات اللغـة** ، هذا العلم الـذي كان يدّعي استعمال وقائع اللغة والخطاب كوسائل لبلوغ معرفة أفضل للوقائـع المجتمعية . وكـان لبلوغ ذلـك يقوم بـافتراض ومنـاقشة توصيفات اللسانة واستنتاجاتها .

والأمر على خلاف ذلك ، بالنسبة الى **اللسانة الاجتماعية** ، إذّ أنّ وقائع اللغة والخطاب قد تظلّ الموضـوع المبحثي الـوحيد . وعندئذٍ قد تكون الوقائع المجتمعية هي التي يمكنها أنْ تصير وسائل اكتناه الواقع اللساني . إن هذا التفريق الكافي نظرياً ، قد يبدو في نظر البعض عاجزاً عن الثبات في الممـارسة والتطبيق حيث يمكن لموضوع علم الاجتماع ولموضوع اللسانة الاجتماعيّة ان يتجّها نحو التطابق . ففي نظر رومان **جاكـوبسون** ، اجتمـاعيّات اللغـة هي جزء لا يتجزأ من اللسانة . وفي نظر جوشوا . أ. **فيشمان** (Jushua. A. Fishman) ومعاونوه ، اجتماعيّات اللغة واللسانة الاجتماعيّة هما بـوجهٍ عـام علمان مترادفان ، على الرغم من ان فيشمان يحدّد احياناً ، اجتماعيّات اللغـة ، بوصفها لسانة اجتماعية مندرجة في أفـاق علم الاجتمـاع ... وامـام هذا

الانتقال من تعريف إلى آخر، لم تعد بعيدين كثيراً عن لعبة المرايا، وحتى عن الدائرة المغلقة.

ولا تبدو القواميس المختصة في المصطلح اللساني جاهزة، من جانبها، للحسم في الموضوع. فعلى سبيل المثال، نقرأ فيها أنّ اللسانة الاجتماعية جزء من اللسانة التي يتقاطع ميدانُها مع ميادين اللسانة الاثنية واجتماعيّات اللغة والجغرافيا اللسانيّة وعلم العاميّة؛ أو نقرأ أيضاً أن من غير المؤكّد أن تكون اللسانة الاجتماعيّة علماً حقيقياً، أو أن تكون قد وجدت أسسها ومناهجها، وأنها ربما لا تكون سوى ميدان يُدعى فيه علم الاجتماع واللسانة إلى التعاون[٢].

هذا أيضاً لن يكون في واردنا الحسم في الموضوع، وإنما الوارد بالحري هو أن نعاود النظر في وقائع معروفة من جانب آخر. إن تحليل منظومة لسانية هو بذاته مهمة واسعة ومعقّدة بشكل كافٍ، لكي يستند ذلك الذي يتولّاها، استناداً مشروعاً إلى فرضية عمل أولي، هي فرضية تآلف المنظومة، وإلى منهجية بحث أولى، هي المنهجيـة التي تستبعد مؤقتـاً فحص تنوّع الاستعمـالات وفحص الفوارق البنيوية حقاً التي يمكنهـا أن ترتبط بتنـوع الاستعمالات هذا. ولكن مع البقاء عند هذا الحد، قد لا نتجنّب نهائيـاً الخطر الكامن في ظهور الالتباس بين تآلف المنظومات، باعتباره فرضية انطلاق لبحث لساني علمي، وتآلف المنظومات كما تعنيه منهجيات فقـه اللغة (Philologie) القـديمة، وتـآلف المنظومـات كما يشـاءه اللسانيون التقعيديّون السلفيّون، أو تآلف المنظومات الـذي كان نتـاجاً

---

(٢) الموقف الأوضح بالنسبة الى اختيار المناهج يظل موقف ج.أ. فيشمان: إن اختيار المناهج هو حصيلة لمعطيات المسائل.

(Fishman, Sociolinguistique, p.69)

لفرضية فلسفة اللغة ، أو أيضاً تآلف المنظومات كاعتقاد ساذج لدى غير المختّصين ، الخ . ويبدو الخطر غير مستبعد في هذا الميدان ، على قدر ما تقلّ الفوارق بين « سلفيّين » و « بنيويين » : فكلهم يبدون مقتنعين بالتآلف الكامل لكل لغة (André Martinet, langue et fonction, p. 126) . يضيف ما رتيه ان التباينات القائمة اذا لم يضحّ بها ، باسم بساطة الوصف ، فسوف يتم التوصل إلى إقامة تراتب بين الأضداد اللغوية ، لانه يبدو أن بعض التفريقات تكون شمولية لدى بعض أفراد الجماعة ، وأن بعضها الآخر لا يتمسك به سوى بعض أفراد المتحد ، وينكره الآخرون .

إذن يحق لنا ألّا نعتبر ان عمل اللساني التوصيفي قد اكتمل ، الا بعدما تكون قد وضعت ، على الأقل ، هذه الهرمية التراتبيّة للأساليب والطرق اللسانية . وعندما نتوجّه ، لاحقاً ، الى فحص الاشتراط المكثّف لتنوّع الاستعمالات اللسانية والفوارق البنيويّة، لا تظهر ايضاً كل الوقائع المجتمعيّة منيرةً وكاشفة ، سواء كانت أم لم تكن موضع اهتمام الاتنوغرافيّ ، الاتنولوغي ، الانتروبولوجي او عالم الاجتماع . وإن اللسانيّ الذي لا يعرف الوسائل اللسانية حقاً ، الموضوعة فعلياً في منظومة وحسب ، بل يعرف أيضاً القوى التي تصنع الديناميكية الداخليّة لهذه المنظومة ، سيكون بلاريب في عداد أفضل المؤهلّين لإقامة او لتقويم العلاقة التي يمكن لواقعة او لعدة وقائع مجتمعية أنْ تقيمها مع الاستعمالات والمنظومة اللسانيّة . زدْ على ذلك أنّ اللسانيّ سيكون في عداد اكثر المهتمّين بأن تقوم علمياً علاقاتٌ من هذا النّوع : وانّه اذا انكّب على إقامتها بنفسه ، سيكون من الصعب إتهامَه بالخروج من مجال بحثه الخاص به .

I/٦ ـ تلازم الناظر والمنظور إليه

عندما يتعيَّنُ على لسانيّ أن يستخلص المنظومة الفونولوجية أو النحوية للغةٍ ما ، لن يكون تلازم الناظر والمنظور إليه هو تماماً ذلك التلازم الذي يظهر عندما يحاول باحثٌ تنظيم علمه بوقائع مجتمعيّة . ففي الحالة الثانية ، يمكنُ للباحث ان يكون معنياً أكثر على صعيد هذا الذي يسمي ، بتفاوتٍ ، ذهنيّته ، معتقداته الأساسيّة ، فلسفته او أيضاً فكروّيته (ايديولوجيّته) . وعلى هذا النحو ، قد يُساء فهمُ أنّ تكون اعمال علم **العاميّة الاجتماعية** (Dialectologie Sociale) الاميركية قد استطاعت التوصل إلى نتائج عنصرية بكل جلاء ، إذا لم توضع مجدداً هذه الاعمال ونتائجها في سياق الستينات (١٩٦٠) في الولايات المتحدة . وفي مستوى آخر ، تبرّز **اللسانة الاجتماعية التفاعلية** (Sociolinguistique Interactionnelle) وتميّز أواصر الدور (Rôle) بين الأفراد ، وتحدّد هذه الأدوار بوصفها كيفيات العمل المنوطة بالأفراد داخل مجتمعٍ ما . عندها تجري الأمور كما لو أنّ هذه اللسانة الاجتماعية لم تكنْ تتصوّر البتة ان بين الفرد المأخوذ في فرديته والمجتمع الشامل ، لا يقوم سوى تواصل مميّز فقط بمراتبَ ، يمكن للحراك الاجتماعي ، عندما يوجد ، أن يمحوها بكل يُسر . ويبدو تصور الأواصر الاجتماعية مختلفاً تماماً في **اللسانة التفاضلية الاجتماعية** أو **اللسانة الاجتماعية** التي تتوقع درس التعارضات بين المسالك اللسانية الجماعيّة ، وتُحدِّد الجماعة بمقتضى العمل المشترك الذي يقع إكماله على عاتقها : عمل منتج ، مشروع سياسي ، ثقافي ، ديني ، الخ .. جميع المنجزات المشتركة التي يستحيل القيام بها خير قيامٍ بدون الخطاب □.

الفصل الثاني

المتحدات
والتباين اللساني

ليس لمصطلح المتحّد اللساني سوى قيمة نسبية. بلومفيلد، ١٩٣٣

لا يمكن تصوُّر تآلف لساني كامل. مارتينه، ١٩٦٢.

المتحد اللساني هو مصطلح محايد. فيشمان، ١٩٧١.

روابط اللغة والجماعة

II/١ ـ الوحدة، الاستقلالية والحيوية بين اللغة والجماعة

إن الاعتقاد في وجود متحدات لسانيّة ذات حدود واضحة، متحدات لسانية يتكلم الجميع في داخلها اللغة نفسها دائماً، وبالكيفية عينها، ليس مجرّد اعتقاد ساذج لدى غير المختصّين. فالمختصون أنفسهم، لأنّهم حددوا اللغة، قبل كل شيء، بوصفها أداة اتصال متكيّفة مع حاجات أولئك الذين يستعملونها، استطاعوا في زمن أول، أن يسهموا في الحفاظ على المعتقد الساذج. وحين يتضمن الاتصال المتحد، يغدو مفهوم المتحد ليس نافعاً وحسب، بل يغدو محتوماً في علمنا (Martinet, Langue et fonction, p.130). لكنّ

تآلف المنظومات وكذلك تآلف المتحدات ، قبل أن يكونا الفرضية العلميّة لانطلاقة البحث اللساني ، كانا من الفرضيّات الأساسية لفلسفة اللغة : شعب أو أمة ، ثقافة ، لغة . وكانت الجماعة البشرية تدين بتآلفها، بتناسقها وباستقلاليتها إلى عقليّتها ، روحيّتها ، ثقافتها ، تراثها وأحياناً إلى المجال الجغرافي الذي كانت تشغله ، أو حتى للمناخ الذي كانت تعيش فيه . وكانت اللغة ، باعتبارها متآلفة ومستقلة ، تقدّم للفلاسفة الوقائع التي كانت تُستخدم ، وهي معزولة عشوائياً عن المنظومة ، كأمثلة مناسبة لإسناد تأمل نظري وتنظيري . وبمساعدة الاستغراق الأوروبي ، كانت اللغات الهندية ـ الأوروبية هي التي توضع موضع المساهمة ، وكان جوهر المسألة آنذاك هو تحديد العلاقات القائمة بين الشعب أو الأمة ، بين لغته وثقافته . فاللغة هي انعكاس للشعب ، وهي الذاكرة الجماعيّة حيث يودِعُ الشعبُ الخبرةَ الواجب نقلها إلى الأجيال المقبلة؛ وكان يقرّر البعض أن الشعب هو الذي يؤثر في لغته . فاللغة هي الوسيلة الأضمن، وربما تكون الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الواقع وتنظيمه؛ وكان البعض الآخر يقرر إنها إطار الفكر الجماعي وقالبه ؛ وهي تشترط تجربة أولئك الذين يتكلمونها. وهناك آخرون أيضاً يقولون إن اللغة تبيّن وتكوّن في آن واحد روح الشعب ، وإن الشعب إذا كان يؤثر في لغته ، فإنه يتأثر بها ، بدوره.

وبما أنَّ اللغة والمتحّد يجب أن يكونا مستقلين ، فقد كان يجري التشديد على كل المسافات التي كان يمكنها أن تفصلهما عن اللغات والمتحدات الأخرى . وكان ذلك يجري بوجه خاص عندما كانت المسافة ضئيلة الأهمية نسبياً ـ مثلاً ، بين اللغات المتقاربة تناسلياً أو بين عاميّات لغة واحدة ـ فكان يصار إلى إبراز المسافة الجغرافيّة . كان المتحد اللساني يتوافق مع وحدة جغرافية محدودة بعوارض جغرافية مائية أو جبليّة ، أو أنه كان يدين بتماسكه وتآلفه ،

وبالتالي بـاستقلاليتـه ، إلى معطيات الجغـرافيا البشـريّة ، مثـلاً الامتزاجات الثابتة والتيارات المحدودة باقتصاد سوقي.

وغالباً ما كان يُقدَّر ، أخيراً ، أن متحداً يتعيّن عليه أن يكون مهمّاً عددياً لكي يحافظ على حيويته وحيوية لغتـه . فعددُ أفـراد المتحد ومواردهم يجب أن تسمح لهم ، عند اللزوم ، بالـدفاع عن وحدة أراضيهم وعن عاداتهم اللغوية في وقت واحد . ولكنَّ تماسكاً اجتماعياً كبيراً ، كذلك الذي يمكن لفكـرويّة قـوميّـة أن تتعهده وتفرضه ، يستطيع في أسوأ الحالات أنْ يعوِّض عن الضعف العددي النسبي للمتحد اللساني.

II/٢ ـ المتحد اللساني والجسم السياسي

أخيراً ، كل جسم سياسي أو كل دولة مكوِّنة ، كانت تعترف رسمياً بلغةٍ مـا كلغةٍ لهـا ، وكانت تجيـد فرض استعمـالها العـام (خصوصاً في مؤسساتها وإداراتها) . إنما كـانت تُعتبر بمثـابة متحد لساني .

متحد لساني ، جسم سياسي : إن الاعتقاد في هذه المعادلة وبمتعلقاتها هو من المعتقدات التي يصعب التشكيك فيها . وباسم هذا الاعتقاد المعاد توكيده بثبات وحتى بشكل متقطِّع ، استطاعت مجلة أدبية فرنسية دوريـة ، من أكثر المجـلات رصانةً وجديةً ، أن تعلن عن ظهور رواية ما « مترجمة عن الأميركية » وعن ظهور رواية أخرى« مترجمة عن لغة البيرو » . في هذه الحـال ، هل يتعيّن أن نفهم أنَّ هذا النص جرى وضعه أولاً بالإسبانيّة ، بالكشوا ، بالايمارا أو بالجيفارو في البيرو ؟ وليس من النادر أنَّ هذا الاعتقاد عينه يجعل البعض يقـول عن فردٍ مـا أنه يتكلم البلجيكيـة ، السويسـرية أو البرازيلية.

إن متحداً لسانياً موّزعاً لصالح عدة أجسام سياسية كبرى ،

او ، بخلاف ذلك ، مندمجاً كلياً في واحدٍ منها ، يمكن أن تنكر عليه صفته هذه ، الحكوماتُ المعنية أولاً ، والمراقبون غير المعنيين بالمسألة ثانياً ، وأيضاً بعض المتكلمين المعنيّين انفسهم . غالباً ما يكون الحال على هذا النحو بالنسبة إلى المتحدات اللسانية الكردية ، الارمنيّة ، الباسكيّة ؛ البريتونية او الاوكسيتانية ، وكذلك هو الحال بالنسبة إلى متحدات اخرى كثيرة...

إن دولةً تضمّ عدة متحدات لسانية لا يمكنها ـ كما يفترض ذلك بوجه عام جداً ـ أن تكون إلاّ استثناء يُنتظر منه أن يؤكّد القاعدة . ويعاود الاستغراق الغربي ظهوره ، عند اقل فرصة ، وإذا أريد الاعتقاد في دولة سويسرية ، فقلّما يعتقد بسهولة في دولة مثل دولة سنغافورة ، حيث المتحدات اللسانية ، الماليزية والتاميلية والصينية ، رفعت لغاتها الثلاث ، فضلاً عن الانكليزية ، إلى مرتبة لغات قوميّة . وفي المقابل ، فإن تعريف اللسانة للهولندية بوصفها عاميّة جرمانية تُدهش أيضاً وتفاجيء ، وذلك لانها اللغة القومية لدولة مثل هولندا ، وهي دولة مكوّنة بقوّة ومعترف بها من الجميع منذ أمدٍ بعيد . ودائماً باسم الاعتقاد عينه يمكن التناسي ، غالباً وعلى سبيل المثال ، أنَّ ما من أمة من الامم الاوروبية التقليدية ، ومهما تكن اهميتها ، لا تتطابق مع متحد لساني واحد . وربما يكفي أن نورد مثال فرنسا ، وعندئذٍ يمكن أن نلاحظ ـ ونحن نبتعد مئة كيلومتر من باريس ، ونجانب المراكز الحضرية الاخرى في الضاحية ـ إن الاحادية اللغوية ليست هي دائماً القاعدة المطلقة في فرنسا.

٣/II ـ المواقف اللسانيّة

إنَّ المعتقدات التي انتجتها اللغاتُ والمتحدات التي تمارسها، كانت ولا تزال مرتبطة بالمسالك والمشاعر والمواقف ، وإن هذه

المواقف اللسانية لم تكن دوماً غريبة عن وضع التعريفات التي كان يُبحث عنها لأجل ألسنة الأقوام والجماعات التي تمارسها . وعليه ، كان يُعتقد أن استقلالية لغةٍ ما ، والأمةِ التي تتكلمها ، كانت تعود إلى تاريخيتها ، إلى تراث ثقافي وأدبي ، الخ . والحال ، فإن تماسك المتحد اللساني كان يدين كثيراً إلى شعور الولاء الذي كان المتحد يتعهّده تجاه لغةٍ لم يعد من الواجب البرهان على تاريخيتها ، لأنها كانت مكتوبة منذ ظهور أقدم الوثائق ، ولأنها كانت مستقرة وصحيحة منذ الأزل ، ولأنها عرفت القوننة (التقعيد) والتعيير. وكان للتقعيد والتعيير[1] الفضل الخاص في تثبيت المسافة ما بين الألسن[2] (Distance interlinguistique) عندما كانت موجودة ؛ وكان لها أيضاً الفضل في إبرازها وصوغها عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك . واللغة ، سواء أكانت نتاجاً تاريخياً وحيداً ، مميزاً ومقدساً ، أم لم تكن ، فقد كانت تسهم في خلق شعور بالتضامن بين الناطقين بها ، وكانت على هذا المنوال تكمل اندماجهم في المتحد ، وليس الولاء والتضامنُ الموقفين الوحيدين اللذين تواصل استثارتهما اللغاتُ والمتحداتُ التي تستعملها . فهذه المواقف اللسانية هي جزء لا يتجزأ من موضوع دراسة اللسانة الاجتماعيّة ، ولكنها لم تعد تحظى اليوم بالقيمة المطلقة للسمات المحدِّدة للمتحد اللساني . وتجري المحاولات لتقديرها حقَّ قدرها عندما يتوجب تعيين سياسة لسانية وتجسيدها في مخطط[3] ، أي عندما ندخل في مجال ما يسميه البعض اللسانة الاجتماعية المطبقة (Sociolinguistique appliquée) . كذلك ، تسجل اللسانة الاجتماعية التغيرات التي

---

(١) انظر لاحقاً ، الفصل الثالث .

(٢) انظر لاحقاً ، الفصل الرابع .

(٣) انظر لاحقاً ، الفصل الخامس .

تظهرها هذه المواقف ، سواء في الوعي الـذي يمكن لكل فـرد أنْ يكوّنه عن وقائع اللغة والمجتمع ، أم لدى أولئك الذين يعتبرون اللغة والمجتمع موضوعات بحث أو انشغالات مهنيّة .

التباين اللساني

II/ ٤ ـ التباين ضمن الألسن وبينها

عندما كتب بلومفيلد (Langage, p. 33) أن جماعة من الناس الذين يستعملون منظومة علامات لسانية واحدة، هي متحد لساني، كان قد تخلّى عن مفهومي التآلف والاستقلالية في الجماعة بوصفهما سماتٍ محدَّدة للمتحد اللساني . بَيْدَ أنَّ هذا التعريف لا يأتي على ذكر تنوع الاستعمـالات التي يمكن للجماعة أنّ تمارس بها المنظومة اللسانية ، ولا على ذكر فوارق البنى التي يمكنهـا أن ترتبط بهـذا التنوع للاستعمالات . زدْ على ذلك أنَّ هذا التعريف لا يـأخذ في الحسبان حالة الجماعات التي تستعمل أكثر من منظومـة علامـات لسانية . ومنذ ذلك الحين أعطت اللسانة الاجتماعية أهميّة خاصة ، حتى لا نقـول الأهميّـة الأولىٰ ، للـوقـائـع المتمثلـة في **التبـاين والتلوّنات اللسانية** . فمن الممكن أن يتميّز النشاطُ اللساني لمتحدٍ مـا ، بالتبـاين ضمن الألسن فقط ، ذلك التبـاين الذي يتجلّى في استعمالات وفي بنى منظومة واحدة . كذلك من الممكن أن يتميز هذا النشاط بالتباين بين الألسن ، ذلك التبـاين القائم بين المنظـومات عينها . وفي هذه الحالة الأخيرة ، يكون النشـاط اللساني للمتحـد مطبوعاً ، ليس فقط باستعمال منظومتين أو أكثر ، متقاربتين تناسلياً أو غير متقاربتين ، بل يتميز أيضاً بواقـع أنَّ كلاًّ من المنظـومات الحـاضرة ، مـع احتفاظـه بإمكـانات تبـاينه الـذاتية ، يـرى هذه

الإمكانات تبـرز من جرّاء احتكاك اللغات ذاته (انظر لاحقاً ، الفصل الرابع).

٥/II ـ التلونات الجغرافيّة والتلونات الاجتماعيّة

إن انخفاض وتيرة وحميميّة الاتصالات بين شـريحتين من السكّان، يجلب مساراً من مسارات التفاضل اللغوي (Martinet, Elé-ments, ∮ 5-14) . وبناءً على ذلك ، جرت العادة على تمييز التلونات الجغرافية ، في المقام الأول ، داخل التباين ضمن الألسن . وهذا ما كـان يسمى ، في البدايـة ، عاميّـات اللغة . وبـالنسبة الى هـذه التلونات ، فإن انخفاض الاحتكاكات بين الجماعات الذي أدّى إلى التفاضل اللساني ، أُعتبر أولاً كـأنّه مـرتبط بالتباعد في المجـال الجغرافي ، وبعد ذلك جرى تمييز تلونات اجتماعية سمُيت أحيانـاً بالعاميّات الاجتماعية أو أيضاً باللهجات الاجتماعية (Sociolectes) . إنها تلونات قد يكون انخفاض الاتصالات بين الجماعات ، المؤدي إلى التفاضل اللساني ، ناجم في جوهره عن أسبـاب اجتماعيـة ، وعندئذ قد يكون التفاضل اللساني قادراً على الحصـول في نقطة واحدة من المجال الجغرافي . مع ذلـك ، ربما يكـون من التبسيط الاعتقاد أن المسافة الجغرافية والتفاضل الاجتماعي يمكنهمـا أن يكونا عاملي تفاضل لساني ، مستقل أحدهما عن الآخر استقـلالاً تاماً . إن العلاقات بين هذين العاملين غالباً ما تكون في الواقع مكثّفة جداً : فتباعد جماعتين أو أكثر في المجال الجغرافي استطاع أن تكون له أسبـاب اجتماعيـة خاصـة ؛ وثمة تلـونات لسـانية يتعيّن اعتبارها كتلوّنات اجتماعيّة ، وتجري ممارستها في نقطة واحدة من المجال الجغرافي ، استطاعت في الأصل أن تكون من التلونـات الجغرافيّة ، الخ .

٦/II ـ التصنّعات الوظيفية والأحكام القيميّة

إن التلوّنات اللسانية ، أكانت جغرافية أم اجتماعيـة ، إنما تتحدّدُ بوصفها مجاميع فروقات تقع ، في وقت واحد ، في مستويات المعجم والقواعد والصّواتة ، أو بالحريّ في واحد أو اثنين فقط من هذه المستويـات داخل المنظـومة . وإن هـذه المجاميـع لتختلف بـ وظـائفها ؛ **وتصنّعـاتها الـوظيفية** إنمـا تُستخلص من رصد استعمالها في عدد من السياقات غير اللسانية.

إن مصطلح تلوّن (Variété) يُراد به أنْ يكون مصطلحاً فنياً ، موضوعياً ، مجرّداً عن كل عاطفة ، وبالتالي لا يمكنه أن يتضمن أي حكم قيمي ، فهو لا يدلّ على وضع لغوي خاص ، وإنما يدل فقط على بعض الفروقات بالنسبة إلى تلوّنات أخرى (Fishman, Sociolinguisti-que, p.37) إن الكـلام عـلى تلـوّنٍ مـا ، معنـاه فقط الاعتـراف بـوجـود مجموع أو عدة مجاميع للفوارق ، وبوجود تلوّن واحد أو عدّة تلونات أخرى ، ومعناه رفض إقامة أي تراتب بين هذه التلوّنات . وإن كل محاولة من جانب المختصّين لاستعمال مفردات مثل (Bable, platt, brogue, patois) دون معاودة تعريفها أولاً ، يخشى عليها أن تبوء بـالفشل ، لأن هـذه المفردات ليست في الـواقع سـوى تسميـات خصوصية جداً يستعملها غير المختصّين بشيء من الازدراء ، حتى ليصعب الكلامُ على تلوّن لغوي لا يرونه مقبولاً اجتماعياً (Martinet, Langue et fonction, P.134) ، وإن تسميـاتٍ مثل **عـاميـات ، لغـة شعبية ، حكي ، لهجة أهل حرفـة** ، أو أيضاً مثـل **لغة أدبيـة/ عالمة/ ثقافية/ حضارية** ، حسن التصرف ، لغة مشتركة ، الخ . هي أيضاً تسميات خصوصية جداً ، وإن استعمالهـا دون معاودة تعريفها قد يكون خطيراً من الوجهة العلميّة مثل استعمال التسميات التي أشار اليها مارتينه ، مع مفارقـة قوامهـا أنّ غير المختصين

وأحياناً المختصين ايضاً يستعملون بعضــاً منها للكلام على تلوّنات يرونها اجتماعياً محايدة ، مقبولة أو يمكن القبول بها . وسواء كانت المتغيرات ـ وبالتالي التلوّنات اللسانيـة التي تكوّنهـا ـ تنتمي الى الصواتة أم الى القـواعد أو المعجميـة ، فإنهـا تعزى إليهـا قيم اجتماعية تعكس العـلاقات الاجتمـاعيّة . حقـاً إن تفاضـل اللغات (والتلوّنات) هو واقعة بنيوية فوقيّة (Marcellesi et Gardin, La Linguistique sociale P.147) . بكلام آخر ، تُطلق على التلونات اللسانية أحكام قيمية هي في الحقيقة ناجمة فقط عن ظهور هذه التلوّنات في هذا السياق غير اللغوي أو ذاك ، سواء كان السيـاق جغرافيـاً أم اجتماعياً ، وبالتالي قد يكون من المفيد علمياً إمتـلاك مصطلحات تسمح بالفصل بين التلوّن اللساني وتصنّعه الوظيفي وبين الأحكام القيمية المتعلقة بهذا التصنع .

II/٧ ـ تباين التصنعات الوظيفيّة

زِدْ على ذلـك أنّه قـد يكون من المفيـد التمكّن من امتـلاك مصطلحات تميّز التلوّن اللساني من تصنّعه الوظيفي ،نظـراً لأن هذا الأخير لا يملك على الاطلاق شيئاً ثابتاً في التساوق ذاته ، ولا أي شيء نهائي في التطور التاريخي . ومثاله أن الأندلسية هي اليوم تلوّن جغرافيّ من الاسبانيّة ، وتعمـل بهذه الصفـة في الأندلس ، لكنّهـا تعمل كتلـوّن اجتماعي في اقـاليم اسبانيـا الشماليـة حيث تستعملها جماعة فرعية من البروليتـاريا ، وهي احتيـاطي من اليد العاملة الرخيصة التي تستعملها بورجوازيات الصناعة والمناجم في بلاد الباسك واوستريا وكاتالونيا .

تاريخياً ، ليس للتصنّع الوظيفي لأي تلوّن لساني ، شيء ثابت ونهائي ، وإن أسباباً غير لغوية ، تماماً ، هي التي جعلت التلوّنات الاقليمية / التي كانت عليها في الماضي التوسكانيّـة ، اللندنيّـة ،

القشتلانية أو الفرنسيانية/ تترقى من جانب الجماعات التي كانت تتكلمها إلى وظائف لم يعد فيها أي شيء إقليمي ، لأنها باتت اليوم لغات ايطاليا وانكلترا واسبانيا وفرنسا .

وإن أسباباً من النّوع نفسه هي التي جعلت تلوّنات إقليمية أخرى ، بعكس التلوّنات السابقة ، لم تغيّر وظائفها . هناك تلونــات لسانيّة تملك راموزاً (Code) مكتوباً ، ويستعملها أدب مهم ، وشاركت لزمنٍ في أبهة بلاطات بروفنس وتولوز أو ليموزان ، ومع ذلك فــإن الأوكسيتانية (Occitin) لا تزال اليوم مجرّد مجموعة تنوّعات إقليمية ، وإن الوظائف الأخرى ، غير الإقليميــة ، التي كان في مستطــاعها القيام بها ، تؤديها حالياً تلوّنات من الفرنسيّة ، كذلك ، قد يكون من الملائم التشديد على صعوبة التفريق في الأوكسيتانية بين وظائف محض إقليميّة ، لأن الأوكسيتانية تنزع إلى العمل أولاً كتلوّن اجتمــاعي مرتبط جوهرياً بجزء وأيضاً بفئة عُمْريّــة من الطبقة الفــلاحية الفــرنسية الجنوبية ، الصغرى والوسطى .

إن الكيشوا (Quechwa) بعدما أزالت من مجالهــا الجغرافيّ عدداً معيناً من اللغات التي كانت قريبة منها أو غير قريبة ، صارت لغة العبادة والجهاز الإداري في امبراطورية الأنكا. فكانت ، حتى دون حيازة راموز مكتــوب ، تؤدي وظائف اللغــة الرسميــة وأيضاً وظائف اللغة المتداولة في امبراطورية كانت تمتد تقريباً من الشمال الى الجنوب في شبه القارة الاميركية الجنوبية ، وعلى مدى عــدّة قرون من الاستيطان الاسباني لم يعد مع ذلك ثمّة سوى مجموع من التنوعات الاقليمية للكيشوا . والبيّن في الواقع هو أنّ كل جماعة من المتكلمين تتموضع جغرافياً ، وكذلك اجتماعياً ، بحكم العلاقات التي تقيمها مع باقي المجتمع الشامل ، وانّ التلوّن الذي تمارسه هو في آن واحد إقليمي واجتماعي . إن تلوّنات الكيشوا التي يمكن اعتبارها إقليمية ، هي أيضاً تلوّنات اجتماعيّة ، مرتبطة بجماعات الفلاحين

الفقراء ، وهم هنود الأنديز (Andes) ، وحديثاً حظيت بمركز اللغة الرسمية الثانية في البيرو . وأن الفوارق التي تطبع تلوّنات هذه المنظومة في البيرو لن يعوزها طرح المسائل على منظمي تقعيد هذه اللغة الرسمية الجديدة وتطبيعها .

II/٨ ـ التلوّنات والمنظومة : المتغيّرات الحرّة

يمكن تمييز التلونات اللسانية ، حين يُستفاد من أساليب يطلق عليها اللسانيّون تسمية **المتغيّرات الحرة أو المتغيّرات الاختيارية أو أيضاً المتغيرات الأسلوبية** . أما اختيار هذه الأساليب فيظلّ حراً ، بمقتضى سير المنظومة الصّواتية التي لا تنيط بهذه الأساليب وظيفة تمييزية أو لا تنيط بها أكثر من وظيفة تمييزية ، وبمقتضى سير المنظومات النحويّة والمعجميّة حيث لا تسهم الأساليب أيضاً في وضع فوارق معنوية ، وفي المقابل ، يتحدّد ظهور هذه الأساليب اللسانيّة بالمعطيات غير اللّغوية ، ويستفاد من استعمالها اجتماعياً و/ أو جغرافياً .

هناك مثل من الأمثلة الأكثر وروداً ، هو مثل المتغيرات المسمّاة حرّة ، للصويت الصامت /ʁ/ في المنظومة الفرنسية ، فاذا نطق المتكلمُ هذا الصويت ، مثلاً في المقاطع : Katr/ quatre، batr/ Battre، أو Sykr/ sucre، مع تموجات في طرف اللسان : [r] ، أو بتموجات اللهاة : [R] ، أو بمجرّد احتكاك الهواء بين مؤخرة اللسان واللهاة أو المنطقة الخلفية من غشاء الحنك : [ʁ] ، فإن معنى quatre ، battre و Sucre لن يتغير مع ذلك . حتى ان المتكلم سيكون في مستطاعه الاّ ينطق الصويت /r/ في هذا الوضع النهائي ، وأن يلفظه لفظاً صفرياً (par zéro) [Syk, bat, Kat] دون ان يحدث عدم فهم أو تبدل في معنى المنطوق . لكنّ تباينات الصويت /r/ هذه ، الحرّة بالنسبة الى المنظومة الصامتة في الفرنسية ، يمكن الإفادة منها

اجتماعياً أو جغرافياً . أما لفظ [ʁ] فيُعزى اليوم ، بوجه عام جداً ، الى تباين الفرنسية الذي يعتبر كأنّه معياري ومُطبَّع . وبشكل اساسي ، فإن [r] تطبع تلونات جغرافية في هذا اللسان . وان المتغير صفر في وضع نهائي هو بالضبط ما يسميه مارتان جوز (Joos)(٤) طابعاً (un marqueur) بالنسبة إلى تلونات في الفرنسية غير مطبَّعة ، وهي تلوّنات تسمى شعبيّة واهليّة (راجع الفصل الثالث) . من الواضح تماماً ان لغةً ، كالعربيّة مثلاً ، يمكن لمنظومتها الصامتة أنْ تمارس تضاداً صواتياً / r~ʁ / ، لا يمكنها ان تستعمل ، بلا مشاكل ، النطق بصويتاتها / r / و / ʁ / كطوابع مميّزة لتلوّناتها الاجتماعية أو الجغرافيّة .

فمن الوجهة الدقيقة لعلم الصّرف (Morphologie) ، ليس (je) peux و (je) puis في الحقيقة سوى دالَّيْن لمدلول واحد . ومع ذلك ، فاذا كان من المحقّق تماماً ان هذه الاشكال غير مرتبطة اجتماعياً بالسياقات غير اللغوية نفسها ، فإن كتاباً مفهومياً ، تقليدياً مثل فن التصريف (Nouveau Besherelle, Hatier, 1966) يظن أنّه ملزم بالايضاح ، تبدو صيغة Je puis ذات استعمال أميز من صيغة je peux . كذلك ، اذا كانت الأساليب المستعملة للدلالة على الكيفيّة اللفظية الاستفهامية في ?dois-je وفي ?est-ce que je dois ، يمكنها ان تعتبر كأنها متكافئة ومتعادلة من الناحية الصرفيّة ، فإنها من ناحية أخرى تعتبر غير قابلة كلياً للخفض أو للتحول بحيث يحل اسلوب محل آخر ، ويمكنها ان تستخدم ، بكل فعالية ، كطوابع مميزة لتلوّنين مختلفين تماماً في الفرنسية .

---

(٤) في نظر ويليام لابوف (W. Labov: the social stratification of English in New York city) .

ان الطابع او المميِّز هو وظيفة قابلة للتبدل حسب الاهتمام الذي يعطيه المتكلم لخطابه : سنحتفظ هنا بالمعنى العام للطابع الذي يعطيه له جوز .

II / ٩ ـ التلوّنات والمردود الوظيفي للأضداد

غير أنّ الأساليب اللسانية المستعملة كطوابع مميزة لمختلف التلوّنات في لغة واحدة ، ليست متوافرة دائماً بشكل كامل بالنسبة الى منظومة اللغة ذاتها . إن الفرنسيّة تملك عدداً معيّناً من هذه الأساليب أو الطرق اللسانية ، شبه المتوافرة بالنسبة الى المنظومة والمستعملة كطوابع لمتغيرات اجتماعية و/أو إقليمية . وهذا مثلاً هو حال الطول الصوتي. فالمنظومة الصوتية للفرنسية المعاصرة العامة لم تعد تستعمل الطول الصوتي كطابع مميز للترابط ، وإن التضاد الوحيد حيث لا يزال لهذا الاسلوب اللساني وظيفة تمييزية هو تضاد / ε̄ / و / ε / . وبالتالي فإن الطول الصوتي هو بالضبط ما يشكل ، في نظر بعض المتكلمين ، الاختلاف في المعنى بين fête /fε̄t/ و faite /fεt/، او بين maître /mε̄tr/ و mètre /mεtr/ . الاّ أنُ من المناسب التشديد على أنّ الطول الصوتي هو حقاً طريقة لسانية لم تعد تنتسب ، في هرمية الأضداد ، إلاّ للأضداد غير الكليّة ، أي لتلك التي اهملها عدد كبير من المتكلمين ، فلم يعد يتعامل بها سوى بعض الآخرين .

ومع ذلك ، جرت الاستفادة من الطول الصوتي في التباين اللساني ، على نحو بالغ التشتت والاختلاف . وان بعض تلوّنات الفرنسية ستستعمله في التعارضات والأضداد الصوتية من طراز /ȳ~y/ ، /ū~u/ ، /œ̄~œ/ الخ . وكذلك من طراز Sûr و Sûre ~ /Syr/ Sȳr/ ، Vu و Vue /Vy ~ Vȳ/ ، dégoutter و dégoûter ~ /degute/ degūte/، bout و boue /bu~bū/، lit و lie /li~lī/، seul و seule /sœl ~ sœ̄l/ ، الخ .

(Martinet, langue et fonction, p,129.

Martinet, le français sans fard, p. 155 à 167).

ومن بين التلونات الفرنسية ، نذكر التلون الذي يوضع تقليدياً

تحت عنوان تلون شعبي ، والذي يستعمل لهذا الأسلوب اللساني شبه المتوافر ، استعمالاً مختلفاً تمام الاختلاف بالنسبة إلى المنظومة التي هي الديمومة الصوتية . وان واحداً من الطوابع الأخصن لهذا التلون ، ربما يكون في نظر بيار غيرو (Pierre Guiraud, Le français populaire, p.119 et s) هو « لهجته الفاترة » أو « لهجته الجهوريّة » ، « اللهجة الضاحويّة » . ففي عبارة : Il s'est barré, le salaud, vendredi, tu te rends compte [isɛ bāʀe l sālo vādʀādi ty tʀā kōt]. ربما يكون طول الصوائت a, ā, ō وحتى ə (أو œ ؟) مرتبطاً ، ظاهرياً ، باستعمال ، خاص هو أيضاً ، للتقويم النّبري : [isɛ' bāre l'sālo vā'dʀādi ty t'ʀō kōt] هو استعمال غير الاستعمال الذي يمارسه التلوّن المُطبِّع في الفرنسية ، وهو ايضاً غير الاستعمال المسمّى بالتعبيري في هذه اللغة . ان كل هذا يبرهن فقط على ان التقويم النبْري قد يكون ، هو أيضاً ، في الوضع الراهن للمنظومة الفرنسيّة ، طريقة لسانية شبه متوافرة ، او حتى طريقة شبه متوافرة كلياً بالنسبة الى المنظومة ذاتها ، وهي بالتالي خليقة بأن يُستفاد منها ، دون مشاكل كبرى ، في التلوّنات الاجتماعية و / أو الجغرافيّة .

وعلى قدر ما تكون الطريقة اللسانية المسماة «e muet» أو أيضاً «e caduc» غير متعارضة صواتياً مع غيابها وانعدامها إلاّ في عدد ضئيل جداً من السياقات

(L'eau/ Le haut/ Lo ~ leo,

l'être/ le hêtre/ lɛtr ~ ləɛtr,

dors/ dehors/ dɔr ~ dəɔr;

plage/ pelage/ plaʒ pəlaʒ;

l'ablette/ la belette/ lablɛt ~ labəlɛt, etc.)

تكون ، هي أيضاً ، في الفرنسية الراهنة ، في وضع سمة شبه

متوافرة بالنسبة إلى المنظومة، سيمكن الإفادة منها في التباين اللساني بأشكال مختلفة . ففي المحكى الباريسي الدّارج جداً ، يكون التعاقب zéro/ə ، تقريباً دائماً ، منتظماً آلياً بواسطة السياق ، ويقول الصواتيّون بشكل مألوف إنّ ظهور الصائت [ə] ينتظم « بقانون الصوامت الثلاثة » الذي ينبغي بموجبه التلفّظ بـ [ə] كلما حال هذا الصائت دون تشكيل مجموعة من أكثر من صامتين (Martinet, Langue et fonction. p.22) . وسوف ينطبع التلوُّن المُقعَّد ، التقليد الذي أوجد السجل الشعري ، أو أيضاً سوف تنطبع بعض التلوّنات غير المقعّدة ، التلوّنات الاقليميّة خصوصاً في النصف الجنوبي من فرنسا ، الخ . بطابع توزيع ووتيرة استعمال [ə] استعمالاً مختلفاً تماماً عن الاستعمالات الملحوظة في هذا التلون للفرنسية « الباريسية الدارجة جداً » .

II / ١٠ ـ التلوّنات وتجديد المنظومة جزئياً

غير انّ الفوارق التي تطبع تلوّنات لغةٍ واحدة ، لا تستعمل فقط أساليب لسانية متوافرة أو شبه متوافرة بالنسبة الى المنظومة ذاتها . ان مواطناً قشتالياً يلفظ Zuecos Suecos في عبارة «des sabots suédois» بصوت أصم يخرج من بين الأسنان بالنسبة الى بداية المقطع الأول ، وبصوت صافر أصم ذولقي سنخي بالنسبة الى بداية المقطع الثاني . وهذا يكفي لإقامة تعارض صواتي . وبالمقابل ، فإن بوليفياً يقول : [Swek ɣ swek ɣ] مع صوتين صافرين اصمين في البداية، لكنهما هذه المرة صوتان ظهريّان ـ سنخيّان ، وعندئذٍ لا يعود في الإمكان الكلام على تعارض /S ~ θ/ . وسيتعين حينئذٍ ان نعتبر تماماً أنّ التلوّن القشتالي والتلوّن البوليفي للاسبانيّة يمثلّان تنظيماً للمنظومة مختلفاً جزئياً ، في هذه الحالة ، على المستوىُ الصّواتي .

إن التلوّنات اللسانية لا تختلف فقط على المستوى الصّواتي ، وإن معاودة تنظيم المنظومة يمكنه ايضاً أن يكون من النمط الصّرفي . ومثال ذلك أنَّ التلوّن الاجتماعي الذي تمثّله الفرنسية المقعّدة ، يحافظ على منظومة شفهية مرتكزة على التفريق بين عدة أنواع من التصريف ، في حين أنَّ تلوّنات أخرى ، اجتماعية أو جغرافية ، للفرنسيّة تمتلك منظومة شفهية بدون تصريفات مميّزة(٥) .

تفاعل لساني ام تفاعل اجتماعي ؟

II / ١١ ـ تعريف المتّحد اللساني

اذن لا يمكن ان يكون كافياً وافياً ، تعريفُ المتحد اللساني الذي لا يأخذ في الاعتبار التباين ضمن اللسان ، وكذلك هو الحال بالنسبة الى التعريف الذي يغضّ الطرف عن التباين بين الألسن ، ولا يعطي ، مثلاً ، اية مكانة للجماعات الثنائية اللسان أو المتعددة الألسن . وربما أن المتحد الأحادي اللسان اعتبر لأمد طويل ، ضمناً أو صراحةً ، كأنه النموذج والمعيار ، فإن الجماعات الثنائية اللسان والمتعددة الألسن عوملت ، هي ايضاً ، ولأمد طويل ، كأنّها جماعات هامشيّة . وكان شارل ف. هوكيت (Hockett) من جهته ، يعرّفها كأنها متّحدات تلعب دور الجسر بين المتحدات الأحادية اللسان . ولكن ، مع أخذ الوضع اللساني على الصعيد العالمي ، توجّب حقاً ان نلاحظ ان الجماعات الثنائية اللسان والمتعددة الألسن كانت كثيرة جداً ، وكان من المناسب ، بلا ريب ، ان يعاد النظر في المكانة المعيارية الممنوحة ، حتى الآن ، للمتحد الاحادي اللسان . كتب

(٥) أنظر الفصل الثالث ، III/٢١ .

جون ج. غومبرز (J.J. Gumperz) في كتاب (Types, p.463) : اذا كانت الثنائية اللسانية والتعددية اللسانية هما المعيار ، فما من موقف قبلي (a priori) يتعيّنُ عليه إرغامنا على تعريف المتّحد اللساني بمقتضى لغة واحدة . وفي الواقع ، لا يمكن تعريف هذا المتحد إلّا إذا غضضنا الطرف عن عدد اللغات الممارسة فيه . على أن التباين ضمن الألسن يمكنه ، من جهته ، أنْ يكون واسعاً جداً لدرجة أنّه لا يمكن لأي متكلّم أنْ يضبطه كلّه . لذا ، لفت فيشمان الى اننا لا نستطيع كذلك تعريف المتحد اللساني إلّا إذا اخذنا في الاعتبار كل التباين ضمن الألسن وبينها . (Sociolinguistique, p. 46 - 47) .

في هذه الظروف ، كيف يمكن الكلام أيضاً على متّحد لساني يوناني ، ومتحد لساني روسي ، عربي ، كيتيوبي ، كيشوي أو انكليزي ؟ واية حقيقة يمكنها ان تشمل ، مثلاً ، مصطلح متحد لساني فرنسي ؟

II/١٢ ـ مثال المتحد اللساني الفرنسي :

لوصف واقع متحد لساني ، خصوصاً واقع المتحد الفرنسي ، سيتعين امتلاك مصطلح يسمح بمقابلة التلوّن المقعّد (المطبّع) ـ ذلك الذي تحاول المدرسة دائماً ان تفرضه ـ والتلوّنات المحلية للمنظومة ذاتها ، وهي تلونات سنطلق عليها تسمية **التلوّنات المحلية** (Allolectes) لهذه المنظومة .

ومثاله ان المرء لو ولد وظلّ يعيش في مونتارجي ، شاتو دون أو ارجنتاي ، يمكنه ان يستعمل في تسلياته أو في حياته المهنيّة اللهجة المحليّة (F_1) من الفرنسية ، وهي لون اكتسبه في عائلته ، الى جانب استعماله الفرنسية المقعّدة (F_0) في أماكن اخرى . وفي سانت أو في انغوليم ، سيستعمل المرء لهجة محلية أخرى (f_2) تختلف عن (F_1) و (F_0) معاً ، ببعض السمات الصوتيّة ، النحوية أو المعجمية ،

ففي الريف الشارنتي يمكن للهجة (f_2) ان تتراجع بدورها أمام محكي (Parler) يكون فيه مجمل الاختلافات بالمقارنة مع (f_2) و (F_n) كبيراً لدرجة أنّنا نكون في الواقع امام تنظيم مختلف لمجمل الوحدات اللسانيّة ، وبالتالي نكون أمام منظومة مختلفة . سنطلق على هذه المنظومة مصطلح (Vernaculaire) لغة محلية ؛ وهي تقليدياً معروفة بوصفها لهجة بلدية (لهجة Oïl) .

في ليموج أو في بلاّك ، تتعايش الفرنسية المقعّدة (F_n) مع لهجة محلية (f_3) وفي الريف الليموزي تفسح (f_3) المجال أمام لهجة بلدية اخرى (لهجة غربية شمالية) بشكل مألوف، وهي من تلوينات الاوكسيتانية المسماة في الماضي باسم اللهجة المحلية الليموزية.

اما خطاب سكان ناربون فيتطابق إما مع (F_n) وإما مع لهجة محلية فرنسية (f_4) ، وفي الريف الناربوني ينحصر استعمال (F_n) و (f_4) امام الاستعمال الشفهي للهجة بلدية (لهجة غربية جنوبية) كانت تدعى في الماضي اللهجة المحلية اللانغدوكيّة . (لغة الأوك Langue d'oc) .

يقابل التلوينات المحكية من الأوكسيتان ، تلوّن مكتوب هو اللون الأدبي الممثل بنصوص قديمة وحديثة . والذي ينزع حالياً الى الاندماج في مجال التسليات ، وكذلك في مجال المدرسة والثقافة ، حتى بالنسبة إلى بعض سكان المدن . ان تلوينات الأوكسيتانية ، الاقليمية والأدبيّة ، هي موضوع دراسة في التعليم الثانوي (حتى وان كان لا يخصص لها سوى وقت قليل ووسائل متواضعة) وكذلك في عدة معاهد جامعيّة . زدْ على ذلك ، أنها اليوم متداولة في قسم من الصحافة وفي الأسطوانات ، ولكن وسائل الاعلام بوجه عام لا تخصص لها سوى مكانة هامشية[٦] . كما هو الحال ايضاً بالنسبة

(٦) راجع بهذا الموضوع : تعليم اللغات الاقليمية ، في Larousse ، مجلة اللغة الفرنسية ، العدد ٢٥ (شباط ، ١٩٧٥) .

الى « اللغات الاقليمية » الأخرى .

إذن ليس للجماعات التي تعيش في فرنسا القاموس الشفهي نفسه . ففي مونتارجي ، شاتو دون أو ارجنتاي ، ليس القاموس الشفهي لأكثرية الجماعات ، مميّزاً إلاّ بالتباين ضمن الألسن . وفي ليموزان أو في الناربوني ، يضيف القاموس الشفهي للجماعات لوناً أو عدة ألوان من اللهجة البلدية الاوكسيتانية الى تلونات اللغة المسماة مشتركة . وفي بريتانيا (Bretagne) ينضاف لون أو عدة ألوان من اللهجة السلتية ـ البريتانية إلى التلوّنات الفرنسيّة . اما في الألزاس واللورين الشمالي الشرقي ، فيمكن للقاموس الشفهي أن يتضمّن ، فضلاً عن التلوّنات الفرنسيّة ، لوناً من الفرنكونية ، المتحدرة من السويسرية الألمانية القديمة أو المحدثة ، وكذلك الاستعمال السلبي للألمانية سواء في القراءة أم في الاستماع ، وهناك أخيراً لون من الألمانية اليهودية التي يتكلمها عشرة آلاف شخص تقريباً . اذن يتميز القاموس الشفهي لعدد كبير من الفرنسيين بالتباين بين الألسن .

في ارجنتاي ، ناربون أو ستراسبورغ يمكن لقاموس بعض الجماعات الشفهي أنْ يستبعد اللون الفرنسي المقعّد (F_n) ، وان يتضمّن لوناً أو عدة ألوان من المنظومات البرتغالية ، الإسبانية ، العربية ، البربرية (الأمازيغيّة) أو الايطالية ... ، وان يتقبّل لوناً من الفرنسية تعاني بُناهُ واستعمالاته من التأثيرات المتبادلة تحت ضغط المنظومات الأخرى الداخلة في القاموس الشفهي عينه . وان الجيل الأحدث بين هذه الجماعات ، عندما يجري إدخاله إلى المدرسة ، يمكنه ان يستدخل الفرنسية المقعّدة (F_n) في قاموسه الشفهي وأن يزيل من التلوّنات الفرنسية المكتسبة ، التأثيرات الناجمة عن وجود منظومات أخرى . وقد يحدث أن يفتقر القاموسُ الشفهي لهذا الجيل الفتيّ ، عندما يفقد المنظومات البرتغالية ،

الاسبانية ، الايطالية ، العربية أو البربرية وتلوّناتها ، أو عندما لا يحتفظ منها باستعمالها السلبي .

إلاّ أنّ الجماعات أو الأفراد الذين يتضمّن قاموسهم الشفهي لوناً أو عـدّة الوان من المنظومة الفرنسية ، لا ينحصرون في نطاق اراضي فـرنسا . ومثـال ذلك في لـوكسمبورغ حيث يشكـل لـون الفرنسية المقعّدة (F_n) ، في استعماله الشفهي والكتابي ، جزءاً من القـاموس الشفهي للبـورجوازيـة وللطبقات القيـاديـة ، لانّ تعليم الفرنسية والالمانية يبدأ منذ السنوات الأولى في المدرسة الابتدائية ولان كل ما يُكتب وما يُطبع هو بالفرنسية (أو بالالمانيّة) ، في حين ان كل حوار يـدور باللـيكسمبـورغية (Reimen, Luxembourg, p. 89-102) .

امـا في مناطق جـزر الأنتـيي (Antilles) حيث يجـري تعليم الفرنسية ، فيمكن للقاموس الشفهي الخاص بالجماعات الاجتماعية و / أو الاقليمية ان يتضمن الفرنسية المقعّدة (F_n) ولوناً محلّياً . إلاّ أن هذا الامر لا يمدّ حقاً من استعمال لهجة مولّدة (Creôle) لا يمكنُ خفض بُناها الحـالية ، مهمـا أمكن لاصلها ان يكـون ، الى البنى الخاصة بلون من الفرنسيّة .

ويمكن للقاموس الشفهي الخاص بسكان الكـويك (Québec, Canada) ان يتضمن الفرنسية المقعّدة (F_n) ، إلى جانب لهجة من لهجـات الفرنسيـة المحلية ، ولـوناً أو عـدة الوان من المنظـومة الانكليـزية . زدّ على ذلـك أن الأكاديين في ايقـوسيـا الجـديـدة يستعملون لهجة محلية فرنسية ، هي بشكل خـاص لون مستعمـل شفهياً ، ويجري تداولها في الوسط العائلي والملاهي .

وفي بلـدان المغرب ، تستعمـل العبارات الإسـلامية اللـون الموسوم بالعربية المأثورة (الكلاسيكية) حصراً ؛ وفي العـائلة ، يجـري استعمال اللهجـات العربيـة المحلية أو احيـاناً المنظـومة

البربرية (الأمازيغيّة) . واللون الموسوم بالعربية المأثورة المعصرنة أو أيضاً العربية الحديثة يشغل جزءاً من مجالات المدرسة والثقافة والإدارات وبعض المناشط المهنيّة . اما العربية الموسومة بالوسيطة (لهجات محلية تمارس الاقتراض ، لاسيما الاقتراض المعجمي من العربية الحديثة) فيمكن استعمالها في الإدارة أو في أماكن العمل والتسلية . وأما المنظومة الفرنسية ، الممثّلة بلون من الفرنسية المقعّدة (F_n) وبلون محلي ، فيمكنها ان تتقاسم مع العربية وتلوناتها عدداً معيناً من الميادين والمجالات ، باستثناء ميدان العبادات والشعائر ، وميدان الأسرة بشكل عام جداً . عندئذ سنتخيّل عدد التلوّنات اللسانية الداخلة في القاموس الشفهي لبعض الجماعات المغربيّة .

يؤكد فيشمان (Sociolinguistique, p. 43) على وجود متحد لسانيّ منذ اللحظة التي يكون فيها للأفراد لون لساني واحد مشترك ، على الأقل ، ويكون لهم أيضاً معايير وقواعد لاستعمال هذا اللون استعمالاً صحيحاً . واذا شئنا أيضاً الكلام على متحد لساني فرنسي، فلن نستطيع ان ننحو هذا المنحى إلّا لأنّ القاموس الشفهي لمجموع من المتكلّمين يتضمن ، فضلاً عن الفرنسية المقعّدة (F_n) التي يبدو توزيعها ذا ثغراتٍ ونواقص ، لهجةً محلية فرنسية والقواعد لاستعمال هذا اللون ذاته استعمالاً صحيحاً .

إن التوازن الداخلي لقاموس الفرد أو الجماعة الشفهي هو بالضرورة توازن هش وظرفيّ ، فيمكن التخلي عن تلوّن لسانيّ ، ويمكن لهذا اللون ان يتقاطع مع لون آخر ، الخ . . وفي هذه الظروف والشروط لا يمكن تصور المتحد اللساني إلا كواقع تتواصل اعادة تنظيمه باستمرار ، وهو لكي يُحدّد نفسه ، لا يعود أمامه ما يفعله بالتعايش الجغرافي بين جميع أعضائه ، ولا بتآلف واستقلاليّة المجموع الذي يمكنهم ان يشكّلوه . وفي نطاق المتحد اللساني

المعتبر على هذا النحو ، لا تعود المسألة مسألة وحدات قومية ، دولانيّة او إدارية ؛ وليس بمستطاع السنغال وبلجيكا وفرنسا والكويك او المغرب ، بوصفها وحداتٍ من هذا النوع ، ان تنتمي الى متحد لساني فرنسي .

II / ١٣ـ المتحد الخطابي، المدار اللساني

كان بلومفييلد يقترح (Langage, p.44) تعريفاً آخر للمتحد اللساني: إنه جماعة من الناس تعمل وتتصرف بواسطة الخطاب. الآن يندرج الباحثون الذين يؤثرون مفاهيم الخطاب والتفاعل الاجتماعي ، في مقاربة للواقع يقترحها هذا التعريف الثاني لبلومفييلد . اما هيمز Hymes (Speaking, p.92 ets.)، أحد روّاد اثنوغرافيا الخطاب ، فيقدّر ان الموضوع الأول للبحث يتعيّن أن يكون المنشط الخطابيّ (Speech activity) للسكان. ويتحدث غومبرز (Types, p.463) عن المتحد الخطابي (Communauté de discours) الذي لم يعد في الإمكان أن يتحدد ، حسب قوله ، بمقتضى لغةٍ واحدة ، ولا حتى بمقتضى لون لساني واحد . وللتدليل على هذا الواقع ، يفضّل غومبرز عملياً مصطلح المدار اللساني (Aire linguistique) . والمدار اللساني هو جماعة اجتماعية ذات لسان واحد ، لسانين أو عدة السن ، تدين بتماسكها الى تواتر التفاعل الاجتماعي وكثافته . وهو مدار يتميّز من المدارات المحيطة به ، ويتحدّد بواسطة خط ضعيف على مستوى الإبلاغية الاجتماعيّة. ويمكنه أن يتكون من جماعات صغيرة متحدة باتصال ثابت بين فرد وفرد ، وأن يغطي مناطق واسعة ، حسب درجة التجريد التي يُراد للبحث أن يطالها ؛ ولا يعطي غومبرز اية قيمة لسمة المتحد التعريفيّة ، ما عدا مفهوم التآلف الاجتماعي ، التفاعل الاجتماعي ، وحده . وعليه ، فإن البربر الجزائريين الذين كانوا يعيشون في

العاصمة الجزائر سنة ١٩٨١ ، مثلاً ، يشكلون متحّداً خطابياً (CD) .

ويمكن لقاموس هذا المتحد الشفهي أن يتضمن ثلاث منظومات لسانيّة مختلفة ، البربرية ، العربية والفرنسيّة ، ولوناً أو عدّة ألوان من كل منظومة من هذه المنظومات . وبشكل عام ، ليست البربرية مكتوبة ولا يجري التدريس بها ، وبالتالي سيجري تمثيلها في القاموس الشفهي للمتحد الخطابي (CD) بواحد أو بأكثر من تلّوناتها الإقليمية ، وسيجري تمثيل العربيّة بلونها الجزائري وباللون الموسوم بالعربية المأثورة ، سواء بالحد الادنى من هذا اللون الذي يستلزمه الانتماء إلى الدين الإسلامي ، أو بأكثر من هذا الحد الأدنى ، وبالأخص عند المتكلمين الذين سيجري إدخالهم الى المدرسة . وعندها يمكن لهؤلاء الاخيرين أنْ يضيفوا الى قاموسهم الشفهي العربية المأثورة المحدثة والعربية الموسومة بالوسيطة ، وكذلك ألواناً من الفرنسية . ويمكن لمتحدّات خطابيّة أخرى (متحد البربر الجزائريين الذين يعيشون في باريس ، ومتحد العرب في تونس أو القاهرة ، والمتحد الذي يضم أفراد ولاية جاكارتا ، أو سكان شاتو دون ، الخ) أن تتضمن في قاموسها الشفهي لوناً أو عدّة ألوان من منظومة أو من عدّة منظومات داخلة في قاموس المتحد الخطابي (CD) . اذن لا يشكل مجموع المتكلّمين في منظومة لسانيّة أو لون من منظومة لسانية ، متحداً خطابياً واحداً بالضرورة.

ان المعتقد السائج لدى غير المختّصين وفرضيّة فلسفة اللغة ، كانا قد جعلا من المتحد اللساني جماعة بشرية احادية الشكل ومستقلة تتكلم لغة ، هي ذاتها مؤتلفة ومستقلة . والبحث اللساني يتخذ ، من جانبه ، تآلف المنظومات كفرضية انطلاق ، لكنّه يسلّم بأن فوارق واختلافات في مباني اللغة يمكنها أن ترتبط بتلوّن الاستعمالات . ومع الاستمرار بالقول والأخذ بمفهوم المتحد ذاته بوصفه مفهوماً مناسباً ، مفهوماً مفيداً على الأقل في مرحلة معينة

من مراحل البحث ، مفهوماً يرتبط حتماً وبكيفية ما بمفهوم الإبلاغ أو الإتصال ، يرفض البحث اللساني ، مع ذلك ، أن يترك مصطلح المتحد يسوّد بظلامه المسائل اللسانية واللغوية ذاتها ، وبعد إعادة النظر في هذه الفكرة المألوفة والفخمة ، فكرة تآلف المتحدات اللسانية (Martinet, Langue et fonction, p.128) ، كان لا بد من البحث عن سمات تعريفية جديدة ، وقد يتحدّد المتحد اللساني ، أولاً بمقتضى منظومة لسانيّة : ولا يمكن التعريف به إلاّ بمقتضى لون واحد من منظومة واحدة : وإن مزايا الجماعة الاجتماعية وعوامل تماسك الجماعة الاجتماعي التي تؤلّف المتحد اللساني : والحريّ الكلامُ على متحد خطابي أو مدار لساني، من الكلام على متحد لساني، الخ، إن المقترحات اليوم لشتّى، وإن البحث عن سمات تعريفية للمتحد اللساني يطرح ، وحده ، المشاكل التي يمكن أن يصادفها كل علمٍ مجدداً ، وبكل تعقيداتها ـ من حيث اختيار مناهجه وطرائقه ، ومن حيث تحديد موضوعه بالذات ـ كل علم ينكُب على الإحاطة بالعلاقات والروابط بين الوقائع اللغوية والوقائع المجتمعية.

الفصل الثالث

المواقف
اللغوية الأحدية

« لا يوجد شخصان يستعملان اللغة بالطريقة عينها تماماً ». ا. مارتينه

اللغة الأحدية والمجتمعات « البسيطة »

III/ ١ ـ البساطة: فرضيّة وواقع

هناك متحدّات لا يستعمل اعضاؤها سوى منظومة واحدة لكي يقيموا الاتصال اللساني في ما بينهم . وخلافاً لما امكن الاعتقادُ فيه لزمن طويل ، ليس من المؤكد أبداً أن تكون هذه المتحدات هي الاكثر عدداً على الصعيد العالمي ، ولا انها تمثّل فيه المعيارَ والقاعدة . وفوق ذلك . لا شيء يضمن للتباين ضمن اللسان ، وهو الوحيد الذي يظهر على هذا الصعيد ، أن يجعل من هذه المتحدات موضوعاً دراسياً بسيطاً .

لا يزال بعضُ المجتمعات ، اليوم ، محصوراً من حيث العدد ، ومعزولاً نسبياً . وان معظم نشاطات تملّك الواقع وتحويله تقع في هذه المجتمعات تقريباً على عاتق الجميع بالتساوي ، وان كثيراً من المصالح فيها لا يزال مشتركاً بين اكثرية اعضائها ، ويغلب الاتجاه إلى اعتبار هذه المجتمعات كأنها مؤتلفة ومتناسقة.

يقول البعض إنها بسيطة ، ويصفها البعض الآخر بأنها بدائية ، وعندئذٍ يغدو من الممكن التسليم نظرياً بأنّ الحاجة إلى تلوّنات لسانية متمايزة بكل وضوح ، تظلّ فيها حاجة محدودةً ، وان التبـاين ضمن اللسان الـواحد مـا هو إلا محـدود الامتداد والسعـة في هذا النوع من المجتمعات التي كانت موضوع توقُّع في الدراسات الاثنولسانية الأولى.

إلاّ ان فيشمان يلفتنا بحق ، عندما يتعلق الأمـر بالاتصـال والإبلاغ ، الى عدم وجود متحد متجانس ، باستثناء ما هو قائم في العالم التبسيطي لبعض النظرّيين والباحثين . فالمجتمع الموسـوم بالبساطة ، والمفترض أنّه متجانس ، يمكنه اذن أن يشهد في داخله تمايز لونين لسانيين أو أكثر . زدّ على ذلك ، أنّ الاتصالات اليوميّة أو المتواصلة على الأقـل ، التي توحِّـد أعضاء مجتمـع كهذا ، لا تضمن بالضرورة لكل فرد كسباً مباشراً لكلٍ من التلّونات القائمة . ومثال ذلك ، عندما تكون السلطة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات السحرية ـ الدينية ، تكون المنظومة التراتبيـة المقابلـة في نهايـة التصلّب غالباً . ويمكن لهذا التصلب في تمايـز اجتماعي محـدود أصلاً ، ان يؤدي الى تمايز لساني يتعارض مع التفـاهم الداخلي المتبادل . وعلى هامش ذلك ، يصل الأمر بلون من هذه الألوان ، الى حد فقدانه وظيفته الاتصالية ذاتها. وهذا هـو حال بعض اللغـات الخاصة.

III/ ٢ ـ اللغات الخاصة

عندما تظلُّ السلطة أمراً شاملاً للجماعة بكليتها ، أو على الأقل للجماعة الفرعية ، جماعة الراشدين بكليتهم ، فإن التمايز الاجتماعي بين الراشدين والأولاد يمكنه أن يفرض على المراهقين احتفالات تلقينية يجري اعدادها ، تقريباً على الدوام ، باكتساب لون لساني

يسمى **اللغة الخاصة** (Langue spéciale) . وعندما تكون السلطة في أيدي بعض الأفراد ، يكون « الدور المناط بهؤلاء الأقوياء » (على حد تعبير اللسانة الاجتماعية التفاعليّة) هو أيضاً خليقاً بأن يُربط بلون خاص من القاموس الشفهي ، وهو لونٌ يجري التوافق على الاعتراف له بأنه هو أيضاً لغة خاصة ، ويقصد بـاللغة الخاصة التلوّن الذي لا يُستعمل إلاّ من قبل أفراد أو جماعات فرعية ، موضوعة «في ظروف خاصة» (Joseph Vendryes, Le langage, 1923) . وقد ينطبق الأمر هذا على الحكام والقضاة والرهبان والسحرة ورؤساء القبائل أو العشائر ، والجماعات الفرعية لقدامى أو لـ «نبلاء» متعلمين في مواجهة مرؤوسيهم ورعيتهم ، أو أيضاً الجماعات الفرعية للراشدين في مواجهة الأولاد ، الخ.

إن اللغات الخاصّة ، المعرّفة على هذا النحو ، لا يمكنها أن تكون ألواناً مرتبطة فقط بالمجتمعات المفترض انها بسيطة ومتآلفة : فالوقائع اللسانية والسير الاجتماعي للغات الخاصة لا يختلفان ، بالطبيعة ، عن وقائع وسير الألوان الملحوظة في المجتمعات المركّبة ، مثل اللهجات العامية أو أيضاً المصطلحات التقنيّة أو العلمية ، الخ. (انظر لاحقاً : III/١٠ و III/١١).

يبدو أن اللغات الخاصة مطبوعة، بشكل خاص ، على مستوى معجميّتها . فهذه المعجميّة لا تحتوي ، بعامّة ، إلاّ على عددٍ صغير من الوحدات : فقد لا تملك اللغة الخاصة بالدوغون في سانغو ، إلاّ معجماً من ٣٠٠ كلمة تقريباً (M. Cohen, Matériaux, P.88) . وهذا يفسر كون بعض الباحثين يتكلّمون ، حينئذٍ ، على « بقايا لغات ».

في لغة الدوغون الخاصة ، تشابه بعض الكلمات كلماتٍ من منظومة دوغون ، دون أن تكون منها . وما أكثر الوحدات المعجمية في هذه اللغة الخاصة ، التي تبدو كأنها نتاج تشويهاتٍ منظوميّة مفروضة على معيجمات (lexèmes) الدوغون (Cohen, ibid.). وأن

تشويهات مماثلة جرى رصدها ، بشكل مألوف ، في لغات خاصة أخرى : فهي تستعين ببادئات ولواصق داخلية ولواحق تتكرّر دائماً وأبداً ، أو أنها تستعين أيضاً بالتضعيف ، وبالتحريك أو القطع لبعض المقاطع ، الخ . هنا أيضاً ، تفرض نفسها المقارنةُ مع بعض التلوّنات اللسانيّة المعروفة في المجتمعات المركّبة . ففي الميدان الفرنسي ، نلاحظ أنَّ Le Verlan وهي مقلوب ← à l'envers ← l'en/Ver ← Ver/là) هي بكل وضوح لون موضوع لغايات ترميزية وبوسائل في غاية البساطة ، وأنها تتوّع بشكل رئيسي من معجميتها بواسطة القلب المنهجي للمقاطع . ومثال ذلك عنوان أغنية حديثة الذيوع ، كان يقول :

[Les betô] = Laisse béton! = Laisse tomber.

إن التمايز في معجمية لغة خاصة يمكنه أيضاً أن يلجأ إلى الاقتراض . ففي بعض الأحيان تأتي الوحدات المعجمية المقترضة من لهجات عامية في المنظومة التي تمارسها الأكثرية ، أو تأتي أيضاً من منظومات لسانيّة مختلفة . والحالة القصوى هي الحالة التي تكون فيها اللغة الخاصة ذاتها منظومةً مختلفةً عن المنظومة التي يمارسها المجتمع بأسره.

وبحسب الطرق نفسها ، يمكن للتشويه المنظومي المطبّق على الوحدات المعجمية أن يطال الوحدات الصرفيّة . ولكنَّ يُلاحظ أيضاً أنَّ كثيراً من اللغات مطبوع بطرق صرفيّة تمثّل ، بخلاف ذلك ، تبسيطاً مفرطاً للطرق التي يمارسها التلوّن اللساني لدى الأكثرية ، مع ذلك ، يبدو أن الحالة الأعمّ لا تزال الحالة التي يكون فيها علم النحو وعلم الصوت المتعلّقان باللغة الخاصة ، علم نحو وعلم صوت اللون اللساني الخاص بالأكثرية ، أو أنهما يظلاّن قريبين منهما .

ويحدث أن تكون اللغة الخاصة مطبوعة في كل المستويات (الصواتة والنحو والمعجم) بطرق لسانية تنتمي الى حالة لغوية

قديمة ، عندما لا تنزع اللغة الخاصة ، بكاملها ، إلى التماهي مع هذه الحالة اللغوية القديمة ، وهذا ما يبدو ممكناً حتى في غياب كل تراث مكتوب.

وفي أقصى حد ، عندما تتراكم التشويهات المعجميّة أو الصرفيّة ، والمقترضات والبدائيات من كل الأصناف ، يصل الأمر باللغة الخاصة الى درجة لا تعود فيها سوى سلسلة من الصيغ الطقسية الفارغة تقريباً من كل معنى ، وهذا الأمر يصلح عندئذٍ لغير المختصّين ، وكان هذا ، بلا شك ، واحداً من الأهداف الأولى المنشودة . ولكن هذا الأمر قد يصلح أيضاً لأولئك الذين يتعيّن عليهم أن يستعملوا هذه الصيغ ، والملزمين عندئذٍ بأن يفرضوا على أنفسهم استذكارها دون فهم أو تقريباً دون فهم ، وإذا توصّل اللون المسمى لغة خاصة ، بعد بلوغه هذه المرحلة حيث لا يعود يضمن وظيفة الاتصال التي تعتبر ، تعريفاً وظيفة كل لغة ، اذا توصل هذا اللون إلى الاستمرار أيضاً لزمن معين ، فمرّد ذلك إلى كونه قد اكتسب وظائف اجتماعيّة يمكنها أن تكون مضمونة ، بحسب كل احتمال ، بواسطة أية علامة أو منظومة علامات غير لسانيّة.

ومما لا ريب فيه أنّ اللغات الخاصة ليست هي الألوان الوحيدة الخليقة بالتمايز في المتحدات الأحدية اللسان ، المحدودة نسبياً ، المؤتلفة والمعزولة ، ومع ذلك يظلّ صحيحاً أنّ وجود هذه اللغات الخاصة يبيّن بكل وضوح كيف يتوصل تلوّن اجتماعي الى التمايز لدرجة انه يلحق الضرر بالتفاهم المتبادل ، وحتى أنّه يفقد وظيفته الإبلاغيّة . إن التباين ضمن اللسان الواحد يبلغ هنا حدوداً ، لا يكفي تمايز اجتماعي ضعيف الانتشار ، لجعله قابلاً للتوقع منذ الوهلة الأولى.

يمكن للممارسة المنهجية للزواج الخارجي ان يفرض على متحد أحدي اللسان ، محدود ، مؤتلف ومعزول نسبياً ، تبادلات

تحافظ فيه على تلوّنات لسانيّة ، يكون واحدها خاصاً بالجماعة الفرعية للرجال ، وثانيها خاصة بالجماعة الفرعية للنساء . وأن التلوّنات التي تسمى أحياناً لغات (خاصة بـ) النساء يمكن أنْ يكون أصلها ـ دون أن يكون مع ذلك ، وبلا شك ، الأصل الوحيد الممكن ـ تنوعات جغرافيّة في المنظومة التي تمارسها الجماعة الفرعية للرجال ، إن توزيع التلوّنات اللسانية حسب الجنسين يمكنه أن يستمر على مدى الأجيال ، وفقاً لكيفيّات مختلفة ، وحتى أنه يمكنه أن يستمر ، حتى لو لم تعد موجودةً ممارسة الزواج الخارجي ، أو لم تعد موجودة تقريباً إلاّ كذكرى، والنساء الداخلات في المتحد من طريق هذه الممارسة للزواج الخارجي ، عندما لا يحملن إليه لوناً جغرافياً من منظومة لسانية تمارسها جماعة الرجال الفرعية ، بل يحملن إليه منظومة أخرى ، عندئذ نخرج من نطاق التباين ضمن اللسان الواحد ، ونجد أنفسنا مجدداً في مقام ثنائية اللغة أو تعدديّة اللغة ، وهذا الأمر أبعد ما يكون من الحالات النادرة . (أنظر لاحقاً : ٢/IV إلى ٩/IV) .

٣/III ـ تقلّب المواقف اللغوية الأحديّة :

يبدو أنّ عزلة المتحدات الأحادية اللغة ، الصغيرة ، والمؤتلفة نسبياً ، ليست أبداً سوى عزلة نسبيّة ، فبالإضافة إلى المبادلات التي تفرضها ممارسةُ الزواج الخارجي ، يمكن للمتحدات اللغوية الأحدية المحدودة أن ترى نفسها وقد فرضت عليها تبادلات تجاريّة و/أو إداريّة مع متّحدات أوسع وأقوى ، الأمر الذي يكفي لتهديد الأحدية اللغوية بالذات لهذه المتحدات المحدودة عددياً . يذكر موريس هوي (M. Houis, Anthropologie linguistique de l'Afrique, P. 150 et 151) .

حالة المنطقة الجبلية في الجيرا (تشاد) حيث كان لا يزال

كل متحد من القرويين المستقلين ، يملك تقريباً لغته الخاصة به حتى عهد قريب . وقد أنشأت الإدارة الاستعمارية في المنطقة سوقين ثابتين ، أحدهما سنة ١٩٢٦ ، وثانيهما سنة ١٩٣٢ . في مرحلة أولى ، شجع هذا الأمر على استعمال العربيّة كلغة تداول بين المتحدات ، واليوم كثيرون هم الناس ، البالغون سن الأربعين في الجيـرا ، الذين لا يتكلّمـون سوى العـربيّة ، يعتبـر م . هوي أن العربية ، بعد مرحلة من تعميم الثنائية اللغوية في كل متحد ، باتت من الآن فصاعداً ، في هذه المنطقة ، لغة وضع جديد من الأحدية اللغوية ، هو بدوره في طـريقه إلى الشمـول والتعميم . وفي هذه الظروف ، لابد من التسليم حقاً بأن المتّحدات اللغوية الأحديـة ، المحدودة عددياً ، المعزولة نسبياً وغير المتمايزة اجتماعياً إلاّ قليلاً ، لا تمثل دائماً مواقف اجتماعية/ لسانية بسيطة ، كما أنها لا تمثل أوضاعاً اجتماعية/لسانية مستقرة .

المجتمعات المركّبة والتلوّنات اللغويّة

« ما من متحد قليل الاتساع ، مؤتلف لغوياً ». ا . مارتينه

III/ ٤ ـ الموقف اللغوي الأحدي والمجتمعات المركبة.

يمكن للمتحدات اللغويّة الأحديّة أن تكون مجتمعات مهمّة ، عددياً ، وتشغل من جرّاء ذلك مجالاً جغرافيّاً واسعـاً ، مجتمعات جرى التوافق على وصفها بأنها مركّبة أو مكثّفة . وأن تنوع شروط الـوجود المـوضوعيّـة وتقسيم العمل المتقـدّم يـولّـدان في هـذه المجتمعات فروقاتٍ وتناقضاتٍ في المصالح ، في الوقائع والمشاريع الاقتصادية ، السياسية والثقافية / الاجتماعية ، محدّدةً على هذا

النحو طبقاتٍ وجماعات اجتماعية لا يمكنُ لمسالكها ، ومنها المنشط اللغوي ، أن تكون متماثلة ومتماهية . ولكن الطبقات والجماعات الاجتماعية ، مهما أمكن لفروقاتها وتعارضاتها أن تكون واضحة ، ليست إلاّ وحدات جزئيّة ، بلا واقع خارج المجتمع الشامل ، وليس لها وجود بدورها إلاّ من خلال العلاقات بين الطبقات والجماعات الاجتماعيّة . وهذه العلاقات تختلف بنوعيّتها ، بدرجتها ، بتموضعها ، الخ . دون أن يتعارض ذلك مع التداخل الاجتماعي ، مع تراكب الجماعات الاجتماعية ، ومع مساهمة أفراد كثيرين في جماعات مختلفة . في هذا النوع من المجتمعات اللغوية الأحدية المركّبة ، تفرض نفسها إذن ، الحاجةُ إلى تلوينات اجتماعية لغوية متكيّفة مع العلاقات داخل الطبقات والجماعات الاجتماعية ، وإلى تلوّنات لغوية جغرافية في آن واحد ، وذلك على قدر ما تكون جماعة أو عدة جماعات أو كانت في الأصل مرتبطة ، بشكل خاص جداً ، بمنطقة من المجال الجغرافي الذي يشغله المجتمع الشامل . أخيراً ، تفرض نفسها الحاجةُ الى تلوّن يعمل في مستوى المجتمع الشامل ويعيش علاقات جماعية متبادلة ، وهو تلوّن يحدّدُ هنا بوصفه تلوّناً ناقلاً .

III/ ٥ ـ تشكّل اللغة المسماة مشتركة (عامّة)

إن السمة التعريفيّة التي يؤخذ بها ، عموماً ، لأجل هذا الواقع اللغوي (كان يتوجب حقاً ارتقاب رؤيتها تظهر مجدداً) هي سمة الوحدة ، التآلف . وقد يكون للغة المسماة مشتركة طابع جوهري هو الحفاظ على الوحدة في الاستعمال الحيّ (Cohen, Matériaux, p. 70) . وهذه الوحدة ستكون ، في ما يتعدّى التباينات المحلية والاجتماعيّة ، وبعد إلغاء كل الإنحرافات ، الشكل الوحيد بين جميع أشكال العامّيات ، الشكل الذي ينزع نحو اللغة المدعومة ، دون أن يندمج

بالضرورة معها (Dubois et al., Dictionnaire, p. 449) ، الخ.

مع ذلك ، لا يجري دائماً توضيح المصدر الذي جاءت منه المحاولات العاملة على وضع أو صون وحدة اللغة المسماة مشتركة ، لمحو الانحرافات ولتحديد مكانة هذا الشكل الوحيد في ما يتعدّى التباينات الجغرافية والاجتماعية . كذلك لا يجري التوضيح : بأي هدف يمكن للغة المسماة مشتركة أن تنزع إلى التلون الموسوم بأنه مدعوم ، دون الاندماج معها اندماجاً الزامياً . عندما يتعلّق الأمر بتعريف اللغة المسمّاة مشتركة ، تعريفاً لسانياً واجتماعياً ، يبقى في الواقع كثير من الشبهات والالتباسات التي تنعكس في مصطلح فني بشكل خاص ، وعلى هذا النحو يجري في اتجاه «اللغة المشتركة» عينه ، اقتراح : Koinè كلغة نموذجية أو كلغة مقولبة ، لغة حضارة ولغة ثقافة (بالأخص عندما يتجاوز استعمالها حدود دولة واحدة) ، لغة متداولة ، لغة استعمالية ، لغة مركزيّة ... حتى ليحدث استشعار الحاجة إلى وصف مزدوج ، وعندئذٍ يجري الكلام على لغة قومية مشتركة أو أيضاً على لغة ثقافية مشتركة (لغة ثِقاف).

مع ذلك يبدو أن الاجماع قد انعقد حول المسار التكويني ، حول التاريخ الأول تماماً للغة تسمّى مشتركة ، ليس هناك تكوين للغاتٍ كبرى ترمي إلى أن تصبح لغاتٍ رئيسةً أو فريدة ... إلّا في المناطق الحضارية المتطورة والمالكة ، تقريباً على الدوام ، منظومة كتابية ، كما كان يشدّد على ذلك مارسيل كوهين (Matériaux, II, p. 70) إن واحدةً من اللغات الإقليمية ، لغة الجماعة الاجتماعية الأميز والأقوى ، تفرض نفسها على البلاد قاطبةً (Philipp, Guide, p. 395).

في الأصل ، على الأقل ، اللغة المسماة مشتركة هي لغة عاميّة كان لها الحظ السعيد ، فاكتسبت لأسباب غير لسانية ـ كالأسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الثقافية ـ أهمية

خاصة في متحدٍّ معيّن (Marcellesi et Gardin, Linguistique sociale, p. 84) . إن اللغة المسماة مشتركة لا يمكنها إذن أن تكون في البداية سوى لون إقليمي (أو شبكة ألوان إقليمية متقاربة) ، كان حظها الأول في أنها كانت محكيّة وبالتالي جرى ترقيتها في جماعة أو عدة جماعات صارت مهيمنة اجتماعياً.

إن المسار الذي تسلكه جماعة أو عدّة جماعات ، لتفرض نفسها ، سيغير بالذات طبيعة العلاقات بين الجماعات وسيزيد من وتيرتها ومن كثافتها . إن هذا المسار يشدّد من تداخل الجماعات الاجتماعيّة ، ويؤدي إلى المشاركة في جماعات اجتماعية مختلفة بالنسبة إلى عدد من الأفراد متعاظم على الدوام ، وهو بذلك بالذات يخلق ثم يحافظ في مستوى المجتمع الشامل ، على الحاجة إلى تنوّع لسانيّ تحدّده وظائفه تماماً كأنّه تنوّع ناقل ، بالتماثل مع ما يجري تعريفه ، في نطاق التباين اللغوي الداخلي ، بوصفه لغة ناقلة ، لغة جماعة خاصة تستعملها جماعات متجاورة إما للاتصال في ما بينها وإما للاتصال مع الجماعة الأولى ، في العلاقات بين الجماعات (Philipp, Guide, p. 397) . مع ذلك ، يتعيّن التشديد على أن التنوع الناقل المحدّد على هذا النحو ، لا يعمل فقط بين جماعات متجاورة ، بل يكون بشكل رئيسي مستعملاً بين جماعات متداخلة ، في أغلب الأحيان ، تداخلاً وثيقاً.

٦/III ـ القوننة (الترميز والتقعيد)

إن التلوّن الإقليمي ، وقد أدّى وظائفه كتلوّن ناقل ، وحظي بالترقية على يد الجماعة أو الجماعات المهيمنة ، سيحظى بـ « فرصة ثانية » هي فرصة المرور بمسار القوننة (Codification) أو التدوين . فإذا كان تدوين منظومة لغوية معناه السعي لاستقرارها وتوحيدها ، نسبياً وآنياً على الأقل ، فمن الواضح أنّ الخطوة

الأولى ، (وهي بلا شك واحدة من الخطى الأكثر حسماً في اتجاه تدوين معجمة ما)، لأي نحو وكذلك لأية صواتة (ولكن مع نجاح أقل ، غالباً ، لهذه الأخيرة) تكمن أيضاً في الاقتراض من قانون مكتوب ، ومن تكييفه أو أيضاً من تدوينه وصوغه .

أولاً ليس مستعملـو القانـون المكتوب ، المتعلّمـون ، سوى جماعات فرعية محدودة ، في طبقة اجتماعية صارت مهيمنة ، لكنّها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمنطقة ما . كذلك لا يمكن للنصوص (قوانين ، أوامر وقرارات ، وثائق إدارية شتى أو أعمال أدبيّة) التي ينتجها هؤلاء المعلّمون أن تعكس سوى تلوّنٍ ضمن اللسان الواحد ، محدود الانتشار . ونتاج المتعلمين هذا ، جرى تثبيته لأمد طويل بواسطة الوراقين والنُساخين أولاً ، ثم بواسطة الطباعة ، فاكتسب بذلك فضلَ التمكّن من الانتشار على مسافات كبيرة ، وأن المدوّنات أو الوثائق المكتوبة ، إذْ ثبّتت منظومة لغوية لا تظهر فيها سوى خلافات بنيوية محدودة ، إنما خـدمت حقاً وبكـل وضـوح قـوننة هـذه المنظومـة وتقعيدها ، ولكنها أسهمت في الوقت ذاته ، وبكيفية فعّالةٍ جداً ، في التوحيد السياسي الذي قادته لصالحها الجماعة أو الجماعات التي صارت مهيمنة.

عندما تكون أو تصبح جماعة أو عدة جماعات مهيمنةً ، فإن الجماعات الأخرى قد تكون مضطرة لإقامة علاقات معها ، قائمة أولاً على المحاكاة والتقليد . وهذا على الأقل ما يقول به معظم القيّمين على اللسانة الاجتماعية الأميركيّة . وقد يجري تقليـد الجماعـات المهيمنة حتى في عاداتها اللسانيّة، الأمر الذي من شأنـه أن يجعل من هذه الجماعات جماعاتٍ مرجعيّة ، ومن عاداتها اللسانيـة اللغة المرجعية أو أيضاً اللغة المميِّزة.

وإن صواتة هذه اللغة المرجعية (المستقـرة نسبياً بفضـل قانون مكتوب)، ونحوها وصرفها ومعجمها ، قد تغدو إذ ذاك نماذج

تصوغها ، بكل سرور ، الجماعة أو الجماعاتُ المهيمنة ، لكي تقدمها كنماذج تقلّدها الجماعات الأخرى . ومما لا شك فيه أن من الواقعية اكثر ، ان نعتبر ان الجماعة أو الجماعات المهيمنة قد احتاجت ، في لحظة معينة من تاريخها بشكل خاص ، إلى فرض عاداتها اللغوية على من كان لا يملكها ، وإلى تعليمه إيّاها ، وإنها بحثت منذ ذلك الحين عن استقرار النماذج الصوتية والنحوية والصرفيّة والمعجمية لكي تكيّفها مع شروط التعليم وأهدافه ومتطلباته . ويكلّف جهاز كامل من المتخصّصين (الادبيين ، الكتاب ، النحويّين ، المعلمين وكل أرباب اللغة الذين تبدو الطبقة المهيمنة قادرة وحدها على رعايتهم ماديّاً) باكمال وضـع النماذج الـواجب تعليمها ، كتـابة الصـرف والنحو، القواعد، المعاجم لوائح بـالأخطاء الإمـلائية، كتب أمثـال واقوال وعبر ، عروض الشعر وقوافيه وبحوره ، الأسلوبية إلخ .. أو مؤلفات ادبية ، وعندئذٍ يجري كل شيء في اتـجاه واحـد : تثبيت من خلال الاختيار ، واختيـار من خلال التنقيـة او بالعكس من خـلال الاقتراض . وبالتالي جرى التشـديد بشكـل مألـوف على الطابـع المركّب الصوتيّ للغات المسماة مشتركة . ويكون منهجياً الاقتراض الذي تمارسه في بعض أطوار تكوينها ، لانَّ هـذا التكوين مـرتبط بتطـور مراكـز قوّة قـادرة على اجتذاب عنـاصر بـالغة التنـوع ، وصهرها ، (Cohen, Matériaux, II, p.72) . يتعين الاختيار لأجل تثبيت وتوحيد النماذج التي يتعين عليها الرّد على شاغل التصويب اللغوي الذي يُعزى ، عموماً ، إلى الاغلبيّة . بيد انَّ هذا الشاغل لا تتقاسمه بالضرورة كـل الجماعـات المهيمنة . فهـو لا يكفي وحده لتفسيـر الاهميـة الخاصـة التي يـرتـديهـا التلـون اللسـاني المقـوتن في المجتمعات المركبة ذات اللغة الوحيدة.

III/٧ ـ التعيير (التطبيع)

هناك كثيرٌ من التلونات اللسـانية المقـوننة لا يقبلهـا ، رغم تقعيدها ، العدد الأكبر بوصفها النمـوذج اللساني الـوحيد الـذي يُـرتجى العمل بـه . ذلك أن استعمـالها لا يعمُّ الصعيد الشامـل للمجتمع ، وبعبارة أخرى نقول إن هذه التلونات المقعدة لسانياً لا تعـاني ، رغم ذلك ، مـا يسمى مساراً تطبيعيـاً (وفي هذا المعنى أيضاً ، يحكى عن مسار تقعيد وقولبة) . وبوجـه عامٍ جـداً ، إن التلونات المقوننة التي لم يجر تعييرها وتطبيعها (او تقعيدها) هي تلك التلونات التي كانت مرتبطة بجماعاتٍ لا تملك الوسائل الماديّة لتقعيد لسانيّ ، لأن تلك الجماعات كانت قد فقدت ، او حتى انها لم تكتسب ابداً الهيمنة والانتشار في المجتمع الشامل.

وعلى العكس ، من الميسور للجماعات التي تسيطر على سلطة الدولة والجهاز المؤسسي ، أنْ تطبّع لوناً لسانياً مقوننأ . فمنذ أمد بعيد، تفرض الطبقة المهيمنة قراراتها ونظامها بواسطة اللون اللغوي المتداول ، ثم المقونن والمقّعد . وهذا اللـون صار فعليـاً ، وسيلةً للحكم ومؤسسة دولانيّة بين المؤسسات الأخرى ، فـالجماعـة أو الجماعات المهيمنة ، بعدما اكتسبت أدوات التطبيع التي صـاغها التقعيد (قواميس ، قواعد ، كتب مرجعيّة ، الخ)، أسست وطورّت ، في مرحلة ثـانيةٍ ، المؤسسـات المطبِّعـة للغـة : الاكـاديميّـات ، المعاهد ، منظومة تعليمية مع مؤسساتها ، ومؤخراً وسائل الإعلام الجماهيري . وعندما تمنح الجماعات المهيمنة للون المتداول ، ثم المُقونن والمُطبّع ، المُقام المؤسسي قانونياً ، الذي تتمتع به فعلياً منذ أمد طويل ، فإن هذا اللون يغدو عندئذٍ لغة دولة ، لغة قوميّة أو لغة رسميّة . إن اللون المقونن ثم المطبّع ، والمرتبط على هذا النحو بالمؤسسـات الدولانيّـة الاخرى ، والمؤسس بـدوره ، يكون

حينئذٍ مرتبطاً حقاً ، ارتبـاطاً مـوضوعيـاً بنظام القيم ، وبـأهداف ومصالح الجماعة أو الجماعات السائدة . وقد حدث أنَّ جماعات غير مهيمنة قوننت لونها اللغوي ، ولكن يكفي عندئذٍ أن يظل هذا اللون في معزلٍ عن المؤسسات التطبيعيّة ، مثلاً في معـزلٍ عن النظام التعليمي وعن وسائل الإعلام الجماهيري ، حتى لا يعمّ استعمالها على صعيد المجتمع الشامل ، وحتى تبقى من الألوان غير المطبّعة وغير المعيارية.

ليس أمراً غير مهّم بالنسبة إلى اللون المتداول ، ثم المُقونن ، ألاّ يتخذ مسارُهُ مكانته في إطار ميزان الهيمنة الاجتماعي، ففي هذا الإطار ، في الواقع ، سيكون عليه ، أولاً ، أن يقوم بتصفية بعض الألوان اللسانية الأخرى (التي لا تتلاشى دائماً دون أنْ تتـرك ، إجمالاً ، بعض الآثار) ، وأنْ يغدو ، على هذا النحو ، اللون الأول ، وحتى الوحيد ، بالنسبة إلى عدد متزايد من المتكلّمين ، ولكن ، في موازاة ذلك ، لا بد من هذا الأمر ، لإن اللون اللغوي يعمل في نطاق ميزان هيمنة اجتماعي ويظل هكذا تحت الرقابة الشـديدة لأربـاب الآداب ومحترفي اللغة التي يغدو تثبيتُها. المُمدّدُ له سلطانياً ، نفياً للتغيـر اللسـاني ، والتي يؤدي شكلهـا الأحـدي الصلب الى نفي الحاجة إلى التلّون حتى في التساوق ذاته ، وانطلاقاً من اللون الذي يواصل تأدية وظائفه التداوليّة ، يتميّز لونٌ مقعّدٌ بصرامـةٍ ، ومُناطٌ بوظائف مرجعيّة وتعليميّة ، وهو لون ستحاول الطبقة السائدة تطبيعه بلا كلل ، وتعميمه على صعيد المجتمع الشامل.

وإن ما يسمى عموماً لغة مشتركة قد يرتكز أولاً على مجمل العلاقات التي يقيمها من خلال عمله، عددٌ معين من التلونات، وفي المقام الأول اللون التداولي واللون المُطبّع : إن اللغة المشتركة هي أكثر من لون بسيط ، إنها منظومة ألوان لغوية.

III/٨. اللون الشعبي

إن المسار التطبيعي يتضمن المسار التقعيدي (القانوني) ، لكنَّ العكس غير صحيح : فهناك الكثير من التلوّنات المقوننة لم يجر تطبيعها . أخيراً ، هناك بعض التلوّنات التي لم يجرِ أبداً تقعيدها ولا تطبيعها ، واللون الشعبي هو من هذه الألوان . إن الجماعات الاجتماعية المهيمنة فرضت نفسها بهذه الصفة على جماعات لم تكن تشاركها ، في البدء ، اللون اللساني ذاته ، كما فرضت نفسها على جماعات تشاركها إيّاه ، من بين هذه الأخيرة ، ظلت بعض الجماعات لأمدٍ طويل ، بعيدةً عن متناول أدوات التطبيع ومؤسساتها . وظلت القوننة حرفاً ميتاً بالنسبة اليها . ففي نظرها لا توّفر العادات اللغوية للجماعات المهيمنة ، وظائف مرجعيّة . ولم يكن شاغلها الأكبر التصويب اللغوي ، ولم تكن تقيم ، على المحاكاة ، علاقاتها مع الطبقة المهيمنة . عندئذٍ ، استتب الخلافُ بين اللون الذي واصلت هذه الجماعاتُ ممارسته ، واللون الذي قعّدته الجماعاتُ المهيمنة ثم طبّعته كمعيار . إذن ، من المناسب الاحتفاظ ، اليوم ، باسم ألوان شعبية لتلك التي لها اصل إقليمي مشترك مع الألوان المطبّعة والمتداولة ، لكنها ظلّت على هامش القوننة والتقعيد ولم تشارك ، رغم احتفاظها بوظائفها الإقليمية ، في المسار التطبيعي المعياري .

إن بيار جيرو (P. Guiraud) يحدّد **الفرنسية الشعبية**، لا بوصفها اللون « المحكي اليوم في أوساط الشعب » ، بل بوصفها اللون المرتبط ، في الأصل ، بمنطقة باريس وجزيرة فرنسا (Le français populaire, p.1 à 12) . ويميّز هذه الفرنسية الشعبية من العاميّة (Argot) ، وكذلك مما يسمّيه الفرنسية المألوفة ذات الاستعمال الثقافي التي قد لا تكون شيئاً آخر غير اللون المتداول من اللغة المشتركة.

واذا أخذ بهذا التحديد للـون الشعبي ، فإن هـذا اللون لا يمكنـه ، بكل وضـوح ، ان يظلّ وقفـاً على المكـانـة اللسـانيـة/ الاجتماعية الفرنسية وحـدها . ففي المقـام اللساني/ الاجتمـاعي الانكليزي ، مثلاً ، قد تكون الـ (Cockney) ممثلة جيدة جداً لألوان شعبيّة ، في حين أنّ من الصعب إيجاد المعادل لهذه الألوان في المكانة اللسـانية/ الاجتمـاعية الـراهنة في الـولايات المتحـدة . بالتعارض مع الألوان المتداولة والمطبّعة في الاسبانيّة ، يمكن على الأرجح تمييز هوية لون شعبي قشتالي . ومما لا شك فيه ، ان اللون التوسكاني الاكثر اتساماً بالسمات المحلية النوعية (Martinet, Langue et fonction, p.136) هو الذي يستوجب ان تُحفظ له تسمية اللون الشعبي ، في الوضع الاجتماعي/ اللساني الايطـالي، في مقابل الألوان المتداولة والمطبّعة التي تؤسس الايطالية المعاصرة.

إن تحديد اللون الشعبي بوصفه اللون اللساني غير المقونن وغير المُطبّع ، والذي يشترك في أصله الجغرافيّ مع اللون المتداول واللون المُطبّع ، يعادل ، في المنطلق ، ربط وجوده بتمايز اجتماعي متجلٍ في منطقة واحدة من المجال الذي يشغله المجتمع الشامل . اذن ، اللـون الشعبي هو ، على هـذا النحو ، ليس لـوناً جغـرافياً وحسب ، بل هو أيضاً لون اجتماعي ، أقلّه في الأصل . وفي الوضع اللساني/ الاجتماعي الفرنسي ، لا يزال اللون الشعبي يعمل ، بكل وضوح ، كلون اجتماعي ، ومن النادر تقريباً انْ تطبع صواتتـه أو معجميتُه (النبرة الجهوريّة ، المحكي الضاحويّ ، اللـذان تحدّث جيرو عنهما في كتاب : (Le Français populaire, p. 119 et s.) بطابعها خطابَ البورجوازية الباريسية الكبرى أو حتى الصغرى .

غير انّ الامور ليست في كل مكان محسومة بكل جلاء ، وان التعارض بين طبقة اجتماعية وأخرى لا يضمن ابداً الّا يكون خطاب

بعض المتميّزين قابلاً للعزو بواحدة من سماته أو بـأخرى ، إلى اللون الشعبي . ومثال ذلك في الوضع الايطالي ، مثلاً ، حيث يمكن لنطق الحروف /p, t et k/ بـ [Φ, θ et x] ، المميّزة للـون الشعبي التـوسكاني ، ان يظهـر بكـل وضـوح في خطـاب البـورجـوازيّـة الفلورنسيّة ذاتها.

والقول إن اللون الشعبي هو جغرافي ، إنما يعني ربط وجود هذا اللون بأوضاع تفسح في المجال ، بعـد ترجمتهـا إلى خرائط للجغرافيا اللسانية أو لعلم العاميّات ، أمام ظهور بقـع بيض (في فرنسا حول باريس ؛ وفي انكلترا حول لندن ؛ وفي الدانيمارك حول كوبنهاغن ، الخ) . وهذا يعني ربط اللون الشعبي بهذه الثغـرات حيث لا يُلحظ أيّ لون من هذه الالوان غير المُطبَّعة التي كانت تسمى تقليـديّاً العـاميّات (Patois) ، عنـدما كـان الامرُ يتعلّقُ بـالـوضـع الاجتماعي/ اللساني الفرنسي ، او باللهجات العاميّة (Dialectes) ، مثـلاً في الوضــع الالماني او الايطـالي ، وهي الوانٌ غيـر مُطبَّعة احتفظنا لها ، هنا ، بتسمية اللهجـات المحلية (Vernaculaires). إن اللون الشعبي المحدّد على هذا النحو ، غير موجود إلّا في مواقف لغوية احدية حقاً ،وهو يندمج في منظومـة من التلونـات هي اللغة المسمّاة مشتركة ، سواء بتاريخها أم بلعبة القواميس المتساوقة[1].

III/٩. اللهجات الاقليمية واللهجات المحليّة

كان توسّع اللون التـداولي في المجال الجغـرافيّ للمجتمع الشامل قد أدّى ، إنطلاقاً من هذا اللون وبواسطة مسار تبايني ، إلى اللهجات الاقليميّة (Allolectes)[2] . وان معظم المنظومات اللسانيّة

---

(١) انظر لاحقاً ، III/١٦.

(٢) انظر سابقاً : II/١٢ .

التي فُرض تعميمُها على مجتمعات مركّبة ، تشغل مجالاً جغرافياً ذا مكانة مهمّة تقريباً ، شهدت هذا النوع من الألوان التي تمثل في الواقع نزعة إلى اللاتقولب (Déstandardisation) . إن الفرنسية المحكيّة في ليبج ومنطقتها هي غير الفرنسية المحكيّة في أدرليان وحولها ، وكلتاهما تختلفان عن الفرنسية المحكية في بزبيه وحولها . لكن ما من واحدة من هذه الثلاث ، يمكنها ان تتماهى مع اللون المطبّع من الفرنسيّة ، وكلها تختلف ايضاً عن الفرنسيّة الحالية في وظائفها التداوليّة . وان اللهجات الاقليمية التي يمكن سماعها في روما ، في ميلان او في نابولي ، مطبوعة كلّها بطرقٍ لسانية لا تأخذ في الحسبان اللون التداولي ولا اللون المطبّع من الايطاليّة . ويستلحظُ في اسبانيّة الإشبيليّ علامات صواتية ، نحوية ومعجميّة مميِّزة ، مجهولة في الاسبانيّة المُطبَّعة وكذلك في الاسبانية المتداولة . وإن الألوان الممارسة من الإنكليزية في برمنغهام وغلاسكو او دابلن ، ليست هي ما يُطلب من مذيع في الـ BBC(*) ، كما انها ليست الانكليزية التي تصفها القواعدُ والقواميس.

يمكن اعتبار اللهجات الإقليمية كأنها لغة مشتركة ثانية ، أكثر تكيّفاً مع الحاجات اليوميّة ، لغة مشتركة ذات استعمال محدود (Martinet, Langue et Fonction, p.155) ، ويمكن للاختلاف اللساني المرتبط بتوسع اللون التداولي ، وبنقص العلاقات بين الجماعات وداخلها ، انّ يكفي لظهور لهجات محليّة.

إلاّ انّ هذا التمايز اللغوي غالباً ما كان مبّرزاً بالعلاقات التاريخية او الراهنة ايضاً بين اللون المتداول المنتشر واللهجات الاقليمية الموجودة قبل هذا الانتشار . لقد كانت هذه اللهجات الاقليمية الواناً إقليمية مثلما كانت اللهجات التي تنزّلت منها الألوان

(*) هيئة الإذاعة البريطانية .

التداولية والمطبّعة (والشعبيّة عندما توجد) التي تشكّل اللغة المسمّاة مشتركة . وكلّما صادفت لهجةً تداوليةً لهجةً إقليمية قريبة جداً ، بنيوياً ، من اللون الإقليمي الذي تنزّلت منه ، نتج بوجه عام مسارٌ تقاطعي بين اللون التداولي واللهجة الإقليمية التي جرت تصفيتها من خلال اختلاطها المتصاعد والكامل مع اللهجة المتداولة . وان الواقع اللساني الراهن للهجة المحليّة لم يستطع إلاّ انْ ينطبع بتاريخه .

كذلك أمكن أنْ يحدث زوالُ اللهجات الاقليمية بسبب التخلي المحض : فلأسباب اجتماعيّة ، قرّر جيلٌ من متكلّميها الأّ يتكلّم هذه اللهجات الإقليميةَ مع الجيل الذي تلاه . إن اللهجة المحليّة التي تمايزت من اللهجة المتداولة في هذه الظروف ، ظلت مع ذلك ، هي أيضاً ، مطبوعة بتاريخها، بواقع أنّها جرى استعمالها لوقتٍ ما، من قبل مزدوجي اللغة ، ثم من قبل خَلَف هؤلاء المزدوجي اللغة . وفي اماكن أخرى ، صادفت اللهجة المتداولة في خلال توسعها الجغرافيّ ، لهجاتٍ إقليميّة متباعدة بنيوياً تباعداً كبيراً من اللون الإقليمي الذي كانت هي ذاتها قد صدرت عنه ، وحتى انها صادفت أحياناً الواناً من المنظومات اللسانيّة لم تكن ، توالدياً ، ذات قربى معها . وعندئذٍ كان التلاقي أو التقاطع بين اللهجة المتداولة واللهجة الاقليميّة يبدو اقل يسراً ، وحتى انه كان يبدو مستحيلاً . وهنا أيضاً يمكن انْ يحدث زوال اللهجة الإقليمية بفعل التخلي المحض . ولكن عندما كانت تصمد اللهجة الإقليمية ، كان ينشأ وضع من الازدواجية اللغوية التي يمكنها انْ تدوم أيضاً ، عندها يكون الواقع اللساني مطبوعاً ليس فقط بتاريخها ، بل ايضاً بوضعها الراهن كمنظومة متصّلة (انظر لاحقاً ، ١/١٧).

حتى وإن استطاعت اللسانة الوصفيّة ، لوقتٍ ما ، ان تهمل

اللهجات الاقليمية ـ من حيث هي الوان مندمجة في منظومة تلوّنات هي اللغة المسمّاة مشتركة ـ ، فإن اللهجات الإقليميـة هي وقائـع بيّنة ، بيد أنّ مجمل الفوارق التي تشكّلهـا كل لهجـة إقليميّة ، لم تتطور أبداً لدرجة أنه لا يعود في إمكان التفاهم الداخلي المتبادل ان يتوجد بواسطة لهجات إقليمية من اقصى المجال الجغرافي الذي يشغله المجتمع الشامل ، إلى أقصاه . وفي الحقيقة ، جـرى كبح المسار التبايني اللساني بواسطـة الحد الأدنى من التعـاون الذي يفتـرضه التعـايش ، والحـد الادنى من الـروابط الضـروريـة بين الجماعات الاجتماعية والجغرافية في مستوى المجتمع الشـامل . ولهذا السبب ، تظل اللهجات الإقليميّة الـواناً لسـانية ، بحيث أنّ ناطقاً بلهجة إقليميّة لا يتردّد في استعمال لـونه الخـاص به وهـو يخاطب ناطقاً بلهجة إقليمية أخرى (Martinet Langue et Fonction p. 135) .

إن اهميّة اللهجات الاقليمية واستعمالها في وضع لسـاني/ اجتماعي معيّن ، تتوقّفان الى حد كبير على الحِراك الجغرافي الذي يتمتّعُ به الأفرادُ الذين يعيشون في هذا الوضع . ويكون الحراكُ هذا كبيـراً في بعض المجتمعات المـركّبة ، لـدرجـة ان الكثيـرين من المتكلّمين لا يمارسون أياً من اللهجات الإقليمية المشهودة ، وحينئذٍ يكون اللونان الوحيدان اللذان يملكونهما في اللغة المسماة مشتركة اللونين المتداولَ والمطبّع . ولكن عندما يقيم هؤلاء المتكلّمون إقامةً مديدةً في منطقةٍ ، فلا شيء يمنعهم من الكسب اللاحق للهجة هذه المنطقة . ويمكنُ للحراك الجغرافي أنْ يجعل بعض المتكلّمين يتكلّمون لوناً تتلاقى فيه اساليب لسانية واردة من لهجات إقليمية شتى . وفي هذه الحالة ، وفي مستوى المتكلم بوصفه فرداً يستحسن الكلام على لغة فردية (Idiolecte) : يقصد باللغة الفردية مجمل المنطوقات التي ينتجها فرد واحد وبالأخص الثوابت اللسانيـة التي تكمن وراء المنطوقـات ...

ويقصد بها مجمل الاستعمالات اللغوية الخاصة بفردٍ معين ، في وقتٍ محدّد (Dubois, Dictionnaire, p. 249) . وبالعكس يكونُ الحراكُ محدوداً بالنسبة الى بعض المتكلّمين الآخرين ، لدرجة أنهم لا يكتسبون ولا يمارسون في مدى حياتهم كلّها سوى لهجة إقليمية واحدة . وسواء استعمل متكلمٌ ما لهجة إقليمية وحيدة أم استعمل تلوّناً هجيناً ، يمكنه أو لا يمكنه أن يمارس في وقتٍ واحد اللونين المتداول والمطبّع . وحتى في وضع لساني أحدي ، لا يمكن إذن لتوازن قاموس شفهي أن يعتبر توازناً مستقراً ونهائياً .

III/ ١٠ ـ التلوّنات الطفيلية : العاميّة (Argot)

فضلاً عن اللون الشعبي ، المتداول ، المُطبّع واللهجات الاقليمية ، استطاع تاريخ المجتمع المركّب وتاريخ اللغة التي ترسخت فيه ، أنْ ينتجا ألواناً أخرى/ مجاميع فوارق أخرى ، وان يربطاها بأوضاع غير لسانيّة معيّنة . ويمتاز بعض هذه الألوان بواقع أنها تتكوّن أولاً من مميّزات معجميّة . وهي قبل كل شيء مجاميع من الفوارق والاختلافات الواقعة في المستوى المعجمي للغة ، وهي تعمل ، لهذا السبب ، متطفلة ـ إذا جاز القول ـ على الصّواتة وعلم الأصوات والنحو وأشكال اللون الشعبي ، نعني المتداولة والمطبّعة أو اللهجات الإقليميّة .

إن واحداً من أفضل الأمثلة التي نختار أن نسميها هنا **التلونات الطفيلية** ، هو بلا أي شك التلوّن العاميّ (Argot) . وإن شروط صياغة اللون العاميّ معروفة . فمنذ القرن الخامس عشر ، كان يحكي في فرنسا عن **اللغة الاصطلاحية** (Jargon) وعن الجوبلان(*) (Jobelin) . ظهرت مفردة (Argot) في القرن السابع

(*) عاميّة المتسولين والمتسكّعين في القرن الخامس عشر (المعرّب) .

عشـر ، على ما يبـدو ، للدلالـة على اللون الـذي كانت جمـاعاتُ الأشرار ، المتسولين والهامشيين من كل صنف ، تصوغه بوجه عام لغايات ترميزيّة أولاً ، ويهاجس التضامن الداخلي مـع الجماعـة ، وكذلك للدفاع عن الجماعة في مواجهة القمع الذي كانت تمارسـه عليها أغلبية المجتمع . وليست الفرنسيّةُ وحدَها هي التي تملك لوناً عاميّاً ، ويجري بكل طيبة خاطر ذِكْرُ أمثلة أيضاً عن عاميّة الإيطالية ، الاسبانيّة ، البرتغالية أو الالمانية ، الخ . وبـالنّظر إلى الجمـاعات الاجتماعية التي تولّد هذه العاميّات وتستعملها ، يمكن الافتراض ان المعجمية العاميّـة (التي يمكن اعتبارهـا كمعجمية متخصّصـة : عـدوان ، سرقـة ، إخفاء ، قِـوادة ، حياة جنسيـة ، فسق ، تهمٌ ، أشغال شاقة وسجون الخ) أن تعمل أولاً، مع نحو وأشكال وصواتة وعلم أصوات الألوان اللسانية غيـر المقوْننـة وغير المطبّعـة ، مع الألوان الشعبية ، اللهجات الإقليمية ، وفي أوضـاع الثنائية اللغوية واللهجات المحليّة الخ . ولكن ، من الوجهة اللسانيـة المحض ، لا شيء يتعارض مـع إمكان استعمال هذه المعجميّة مـع القواعد (النحو والصرف) ومـع وحدات النّطق الثاني لأي لون كان، بما فيه اللون المتداول أو حتى اللون المطبّع ، وهذا في الواقع ما يمكن حدوثه اليوم في نطاق المعاجم اللغوية (أنظر III/١٦).

إن المعجمية المكوّنة للون العاميّ تستفيد من مواردَ ومناهل ـ لها أهداف العامية الترميزية ذاتها ـ تستعملها الألوانُ اللغوية في أمـاكن أخرى . وعلى غـرار اللغات الخـاصة ببعض المجتمعـات الموسومة بالبدائيّة ، و « اللغات السريّة الخاصة بالمريدين » (Phi-lipp, Guide, p. 399) ، يمكن للعاميّة استعمـال التشويـه المنظومي لدالِّ وحداتٍ تنتسب إلى الإرث الـدلالي المشترك ، وذلـك بتكرار البادئات والداخلات أو اللاحقات ، وبمضاعفة ونقـل أو بتر بعض المقاطع ، الخ . زدْ على ذلك أنّ العاميّة تمارس كل أنواع التدخل في

العلاقة الموحّدة بين الدالّات والمدلولات (Denise Francais, Les argots, p. 631 et s.) .

III/١١ - الألوان الطفيليّة :
المصطلحات التقنيّة والعلميّة

غير انّ العاميّة، في المجتمعات المركّبة، ليست اللون الطفيلي الوحيد الممكن ، كما انّها ليست الوحيدة التي يمكنها ان تمتّ بصلة القرابة (إن من حيث الموارد اللغويّة التي تنهل منها ، أم من حيث الوظائف الاجتماعية المعزوّة اليها) ، الى اللغات الخاصة المشهودة في المجتمعات المسمّاة بسيطة . وعليه ، فإن **اللغات التقنيّة** هي حقاً ، على غرار العاميّة واللغات الخاصة ، ألوانٌ لغوية مطبوعة بشكل رئيسي بطابع المستوى المعجمي المتخصّص ، اللازم لبعض أصناف المهن ، أو لبعض فروع التقنية والانتاج والاقتصاد في مجتمع مركّب . ويمكن لجماعة إجتماعية ان ترتبط بانتاج/ باقتصاد إقليمي ، عندئذٍ يكون من الطبيعي تماماً ان تكون للغتها التقنية صواتة وقواعد لهجات المنطقة حيث الجماعة مقيمة ، أو أن تكون لها صواتة وقواعد اللهجة المحلية في مناطق الثنائية اللغوية ، ويمكن الافتراض ان المصطلح التقني لأرباب حرفة ، مثل مصطلح البزّازين ، او المصطلح المتخصّص الذي يستعمله صبيان الدكاكين ، اي العاملون في المحلّات التجارية (Denise François, Les argots, p. 622 et 623) ، أمكنْ استعماله مع صواتة وقواعد لهجات إقليمية او محلية شتّى ، ولكن ايضاً مع صواتة وقواعد اللون الشعبي أو حتى اللون المتداول ، حسب الوضع الجغرافيّ والاجتماعي للمتكلّمين الذين كانوا يستعملونه .

من المناسب التشديد على إمكان أن يكون لبعض هذه المصطلحات التقنيّة إشتراكٌ مع العامية واللغات الخاصة، لجهة

استعمالها ، هي ايضاً ، لأهداف ترميزيّة . وبكيفيّة عامّة ، يمكن لكل جماعة اجتماعية ان تصطنع ، بالضرورة أو باللعب ، معجميّة هرمسيّة (باطنية) تهدف الى استبعاد كل متكلم/ مستمع لا ينتميان إلى المتحد الذي تكوّنه الجماعة . وغالباً ما يكون الحال هكذا بالنسبة إلى جماعات الشبّان والشابّات : وقد سبق ان كانت معجمية المدارس أو طلاب المدارس الكبرى ، مثلاً ، موضوع دراسات وصفيّة .

من ناحية ثانية ، هناك الوانٌ لسانيّة محصورة ، هي ايضاً ، في مصطلحات متخصّصة ، وتشترك غالباً في صواتة وقواعد اللون المُطبَّع . وقد يكون كذلك حالُ مصطلحات شتى العلوم . وبحسب كل احتمال، يعود هذا الأمر . أولاً ، إلى كيفية الاكتساب المدرسي أو الجامعي لهذه المصطلحات . بَيْدَ أن العلاقة القائمة بين المصطلحات العلمية وصواتة اللون المطبّع وقواعده ، ليست العلاقة الوحيدة الممكنة ، فبإمكان كيميائي أنْ يمارس مصطلح اختصاصه باضافته إلى صواتة وقواعد اللون المتداول او الى ألوان اللهجات الاقليمية التي يتكلمها . وعلى غرار العاميّة والالوان التقنيّة أو اللغات المتخصّصة ، يمكن استعمال معجمية علميّة لغايات ترميزية أيضاً . فالطبيبُ ، مهما تكن دوافعه الحقيقية ، حين يتكلّم على (Autolyse) مع معاونيه وبحضور أسرة شخص اقدم على الانتحار ، أو حين يتحدث عن (Nés du Côlon) أمام مريضه المُصاب بسرطان معويّ ، إنما يستعمل تماماً معجمية اختصاصه لأهداف ترميزية .

المعايير (الأعراف)

III/١٢ ـ المعيار وما فوق المعيار

إن القوننة والتطبيع المعياري ، حين يطبّقان على لون

لساني، إنما يشكّلان ما يسميه فيشمان معالجة اجتماعية نموذجيّةً تضيف ، من خلال امتدادها ، إلى اللون المطبع نتاجاً هو أيضاً إجتماعي نموذجي ويطلق عليه تقليدياً إسم حسن الاستعمال أو أيضاً المعيار (العُرْف) ، إنه في الواقع نظام شكليّ يحدّد الاستعمال الصحيح (Fishman, Sociolinguistique, P.39) : إنه الاستعمال المفروض بوصفه الاستعمال الأصوب أو الأميز ، من جانب قسم من المجتمع (Mounin, Dictionnaire, P.235) ؛ إنّه نظام تعاليم يحدّد ما يتعيّن اختياره إذا أريد التقيّد بالمثال الجماليّ أو الثقافي/الاجتماعي لوسطٍ ذي امتياز وسلطان ، وأن وجود نظام التعاليم هذا يتضمن وجود استعمالات محظورة (Dubois, Dictionnaire, P. 342) ، وقد يكون من الأفضل تسمية نظام التعاليم هذا بوصفه ما فوق المعيار (المعيار الفوقي/ الأعلى Sur-norme) . وما هو في الواقع إلاّ ثانياً ، لا يتضمّنه الإكراه الفعلي الذي يكفل السير الحسن لكل منظومة لسانية بوصفها أداة إبلاغ واتصال . وأن هذا الإكراه لا يمكن تسويغه واعتباره ممثلاً للمعيار الوحيد المقبول في آن واحد بما فيه من ضرورة وكفاية ، إلاّ بقدر ما يكفل هذا السير الحسن للمنظومة بوصفها أداة إبلاغيّة .

قد يكون أكثر يسراً على المرء أن يجد ، في الوضع اللساني/الاجتماعي الفرنسي ، أمثلة عدّة تبرز تعارض المعيار وما فوق المعيار . فالمحظورات التي يطرحها المعيار الفوقي في مادّة المعجميّات ، عديدةٌ ؛ ومن المألوف جداً أن تخالفها أكثرية المتكلمين الذين لا يستطيعون ، مثلاً ، التصميم على أن يطردوا من مصطلحهم فعلاً متزرعاً جيداً مثل (Se suicider) (المحكوم عليه في المعيار الفوقي : إذ أنّ Se و **Sui-cider** تشكلان استعمالاً مزدوجاً ، ويكون من الأفضل استعمال عبارة (Se donner la mort) . وأن عبارة الخيّاطة : (Passe-moi le ciseau) هي جملة مُدانة ، أيضاً ، بقدر ما

تحتقر التضاد : Le ciseau les ciseaux ، الخ . لكن الكتّاب الجيدين يحتقرون أحياناً الأوامر المعجمية للمعيار الفوقي . ومثال ذلك ما كتبه ميشليه (Michelet) ذات يوم :

L'événement l'a placé entre deux alternatives... (Histoire de France, XII, II, cité par le dictionnaire Robert, P.391, t.6) الخ.

على الرغم من المعيار الفوقي التقعيدي الذي يحاول دائماً فرض :

...Bien qu'il n'en ait pas envie

ou: Je m'en suis allé

فإن أي متكلّم فرنسي (ومن ضمنه المعياري ، المفاجأة) قادر في كل حين على القول :

- Il viendra malgré qu'il n'en a/ait pas envie.

ou: Je me suis en allé, etc.

غير أنّ المنظومة اللسانية ومعيارها هما كأداة إبلاغ موجودة في كل متّحد بشري ، مستقلاّن إلى أبعد حدٍ عن الأفراد ، كلٍ بمفرده ، فالعادات اللغوية تُفرَضُ على الفرد كمجموع داخل في مجمل العادات الواجب اكتسابها في خلال التنشئة الاجتماعية ، تلك العادات التي يتعين على الطفل الأخذ بها لكي ينتقل من البيولوجي الى الاجتماعي ، ويغدو عضواً كامل العضوية في الجماعة . اذن ليس المعيار والمعيار الفوقي من طبيعة متباينة : فكلاهما مؤسسة اجتماعية ، وبالتالي إكراه اجتماعي . غير أنّ المعيار يُلحظ بالضرورة في كل متحد ، بينما المعيار الفوقي لا يتعلّق من ناحيته إلاّ ببعض المجتمعات ، وليس فيه شيء محتوم.

---

(٢) بالنسبة إلى الأمثلة على تعارض المعيار/ المعيار الفوقي ، في مادة الصوائت ، انظر لاحقاً : 25/III .

إن منظومة لسانية كمنظومة جيوادجا[٤] التي يتكلمها ما مجموعه ٥٥ صيّاداً بدوياً في منطقة صحراوية نائية ، إنما تمثّل معياراً بالضرورة . إنها مجموعة من البنى الصّوائية والنحوية والمعجمية ، يستحيل الإخلالُ بقواعدها الأساسية دون إلحاق الأذى بعملها كأداة اتصال وإبلاغ . ولكن ، بالنظر إلى البنية الاجتماعية التي يعمل فيها هذا النظام ، لا يمكن أبداً المصادرة على وجود معيار فوقي لهذا النظام ، مؤسس على لون مُطبَّع ، ولا على وجود معيار فوقي لألوان جغرافيّة أو اجتماعيّة متمايزة جداً . مع ذلك ، فإن كل انحراف في الجيوادجا كما في سواها ، لا يدخل في العدد الصغير من الفوارق المعروفة من الجميع والمقبولة منهم (ما من منظومة متآلفة بشكل مطلق) ، إن كل انحراف غير مُرْتَقب ، قد ينتج عنه حتماً خلق الالتباس أو عدم الفهم ، ولو كان ذلك لأمدٍ قصير جداً . وقد يجد المسؤول عن إخلال كهذا بالمعيار ، في حالِ الجيوادجا ، ٥٤ شخصاً على الأقل ، مستعدين للردّ بطريقة أو بأخرى على الالتباس أو عدم الفهم الذي يفرضه عليهم الإخلال بالأعراف ؛ ٥٤ شخصاً مستعدون كلهم للاندهاش ، للهزء ، للاستياء : وهم مستعدون ، إذا كان المذنب ولداً ، لقمعٍ قاسٍ نسبياً .

III/١٣ ـ المعيار الفاعل والمعيار المنفعل :

إن إكراه المعيار الفوقي ، المتولِّد من قوننةٍ يعتبرها المسؤولون عنها كأنها نهائية ، يبدو ذا صلابة كبيرة ، خاصة عندما يُقارن بمرونة المعيار وحده . وتعود هذه المرونة الحقيقية للمعيار ،

---

(٤) الـ jiwadja محكيّة ، أو كانت محكيّة في شمال أوستراليا ، ذكرها جوزيف فرجان :
(J. Verguin: La situation dans le monde, p. 1129) .

الى شروط اكتسابها الى حد كبير.

وبالتالي ، فإن المعيار يفرضه الإكراهُ الاجتماعي ، غيـر أنَّ اكتسابه لا يتمّ أبداً في محيط لغوي ذي تآلف مطلق ، ويكون حصوله في المجتمعات المركّبة أقل بكثير من حصوله في مجتمعات أخرى ، لذا ، فإن العضو المقبل في المجتمع المركّب سيكون عليه ، حتى يقيم معياره الفاعل ، ذلك الذي سينظّم زجرياً استعماله الشخصي للغـة (Martinet, Eléments, P. 149 et 150) ، أن يأخـذ أولاً بالطـرق اللغوية المعمول بها في محيطه بشكل شامل ، الطرق التي لا يمكنه النَّيل منها دون أن يصطدم بعدم الفهم وأن يتعرّض لقمع الجماعة.

ولكنَّ ، ما من طريقة من الطرق اللغوية التي سيتعـرّض لها العضو المقبل في المجتمع المركّب ، طيلة فترة اكتسـابه اللغـة ، ستبدو له ، لاحقاً ، غير سويّة ، وإن يدركها كأنها مخالفة لا يمكن قبولها إطلاقاً . إن هذا التسامح غير الطوعي ، المكتسب جنباً إلى جنب مع العادات اللغوية ، هو القاعدة لمعيار منفعل (Martinet, Elé-ment § 5.6).

إن وجود المعيار المنفعل ، بما يمثّل من ألفة غير واعية في الغـالب ، مع عـدد معين من الطرق اللغـوية ، سيكـون حسب كل احتمـال ، ذا أهمية أولى بـالنسبة الى المستقبـل اللغوي للمتكلم الفتيّ . وعليه ، هناك في عداد الطرق اللغوية غيـر الشموليّـة في الجماعة ، المتوافرة أو شبـه المتوافـرة بالنسبـة إلى المنظومـة ، والداخلة في نطاق المعيار المنفعل ، بعض الطرق التي ستبقى دائماً بالنسبة إلى المتكلم مرتبطة بسياقات غيـر لغويـة علّمته جمـاعته الاجتماعية أنْ يرفضها ، ومما لا شك فيه أنَّ هذا يجبر الطرق اللغوية بشكـل نهـائي ، على أن لا تستعمـل أبـداً من جـانب المتكلم الا استعمالاً سلبياً ، منفعلاً ، وفي المقابل ، فإن بعضاً آخر من الطرق اللغـوية الـداخلة في المعيـار المنفعل ، المطبـوعة من النـاحيـة

الاجتماعية بشكل متدن أو لا مبال ، سيمكن استخدامه قاعدةً للاكتساب ، ثم للاستعمال السلبي ، وحتى للاستعمال الايجابي لألوان جغرافيّة أو اجتماعيّة من اللغة المسماة مشتركة ، غير اللون المكتسب الأول ، بما في ذلك اللون المطبّع معيارياً . وسواء أكان الاكتساب ـ إذا تمّ ـ والممارسة اللاحقة لهذه الألوان المكتسبة في الدرجة الثانية ، كاملين أم ظلاّ جزئيّين فقط ، فإن عليهما تتوقف جوهرياً السهولة التي سيتمكن المتكلم بواسطتها من الاستعمال التالي للعبة معاجم لغته أو سجلاّتها ، (انظر لاحقاً ، III/١٦) .

III/١٤ ـ اكتساب المعيار الفوقي

يمكن لاكتساب المعيار أن يحدث في محيط لساني تسوده ممارسة اللون المتداول ، أو بالحري ممارسة لهجة إقليمية ، أو أيضاً ممارسة اللون الشعبي . ولكن ليس من المستحيل تماماً أنْ يتمكّن العضو المقبل في مجتمع مركّب أن يتعرّض في وقت مبكّر للقاء مع اللون المطبّع من اللغة المشتركة ، وهو اللون الذي يستطيع أن يكون مستعملاً ـ ولو بكيفية فرديّة جداً ـ في الوسط العائلي أو في محيط مباشر أوسع بقليل.

غير أنّ اكتساب اللون المطبّع يجري ، عموماً ، في وسط مدرسيّ ، ويبدأ فرضه منهجياً على الولد منذ سنة دراسته الأولى . ان جوهر الجهود التي يبذلها مُطبِّعو اللغة ، وبالتالي مدرّسوها ، سيرمي في الحقيقة إلى تمرير المعيار الفوقي واللون المُطبَّع الذي يسندها ويؤسسها على الأقل في المعجم الشفهي المنفعل ، وإذا أمكن في المعجم الشفهي الفاعل . ومن الواضح تماماً أنّ نجاح هذه الجهود سيتوقّف على نوعيّة المعيار الفوقي وعلى العلاقات التي يمكن وجودها بينها وبين المعيار.

سيكون اكتساب اللون المطبّع واحتمال دخوله في المعجم

الشفهي الفاعل لفردٍ ما ، من مجال الممكن ، وسيظهر المعيارُ الفوقي وسيكون اكثر تناولاً من الناحية الموضوعية اذا كان نظام تعاليم هذا المعيار الفوقي لا يصف سوى قليل من الطرق اللغوية المتأصّلة تماماً في المعيار.

في المقابل ، سيكون بإمكان اللون المطبِّع أن يظلَّ وقفاً على مجال المعجم السلبي ، وسيبدو المعيارُ الفوقي المرتبط بهذا اللون كأنه قليل التناول في بعض الظروف . وسيكون الحال هكذا عندما سيحاول نظام تعاليم المعيار الفوقي أنْ يستبعد حداً أقصى من طرق لغوية متأصلة بقوَّة في المعيار ذاته. وإذا كان المعيار الفوقي يرمي ، علاوةً على ذلك ، إلى فرض طرق لم تعد مطبَّقة إلاّ في أقليَّة محصورة جداً ، أو لم تعد ملحوظة إلاّ في مدوَّنة أدوات التطبيع والتقعيد (كتب قواعد ، قواميس ، الخ ..) ، فإن هذا المعيار الفوقي ستتاح له كل الفرص لكي يُعتبر إكراهاً ضاغطاً ، واستطراداً ، إكراهاً لا جدوى منه تماماً .

III/١٥ ـ المعيار ، المعيار الفوقي والتلوّن اللغوي

بما أنَّ مستعملي منظومةٍ لسانيّة سيحاولون دائماً تكييف هذه المنظومة مع تنوّع حاجاتهم الإبلاغيّة . وبما انهم سيتوصّلون إلى ذلك بوصفهم جماعاتٍ (المحاولة الفردية في هذا المجال تكون بشكل علم معرَّضة للفشل ، اللهمَّ إلاّ إذا استأنفتها الجماعةُ وكفلتها) ، فإن المعيار (المقعَّد : Norme) لا يمكنه أن يتضمَّن التآلف المطلق للمنظومة اللسانية . بل يتضمَّن ، بخلاف ذلك ، أنَّ تمتلك المنظومةُ مواردَ سيفيد منها التلون اللغوي المتساوق والتبدّل اللغوي أيضاً ، وفي المقابل ، ينزع المعيار الفوقي (الاقعد Sur-norme) الى أن يجعل من اللون المُطبِّع لوناً متآلفاً ومستقراً ،

مزوّداً بوظائف مرجعيّة وتعليميّة ، وفي هذه الشروط ، لا يستطيع مجموع الفوارق إلّا النزوع إلى التزايد بين اللون المطبّع المتعلّق بالمعيار الفوقي والألوان التي تواصل العمل بشكل أساسي وفقاً لمستلزمات المعيار. لذا فإن عمل مقوّنني اللغة ومطبّعيها ، عمل حافظي المعيار الفوقي ، يبدو كأنه مهمة بلا انتهاء . إنه مشروعٌ لا يستطيع إلّا أن يسجل ، الى جانب نجاحاته ، عدداً معيناً من الانتكاسات التي لا يكون بعضها صغيراً.

ومنذئذٍ يشكل لحظُ انتكاسات المقوننين والمطبّعين أو المقعّدين بالذات جزءاً من عملهم . ونادرة هي الأكاديميّات أو المعاهد ، مهما بلغت سلفيّتها ، التي لا يتعين عليها أن تتراجع ذات يوم ، وعندها سيفسحون المجال - ضيّقاً قدر الإمكان ، في الحقيقة - في فصول كتب قواعدهم أو في أعمدة قواميسهم ، لما يسمّونه السمات المألوفة أو المحلّيات المستعملة استعمالاً مألوفاً جداً . وفي الواقع تصدر هذه الطرق اللغوية عن اللون المتداول، اللون الشعبي أو اللهجات الإقليميّة ، وبهذا الثمن يتحقّق توحيد المطبّع (المقعّد) ثم الحفاظ على وحدته واستقراره.

على أنّ القول إن الألوان اللغوية غير المقوننة أو غير المطبّعة في لغةٍ ما تظل تعمل بشكل رئيسي وفقاً لمستلزمات المعيار ، لا يعني أن استعمال هذه الألوان لا يعود يتحمّل أبداً ، إكراهاً اجتماعياً لا مناصّ منه لضمان حسن سير المنظومة بوصفها أداةً إبلاغيّة ، وهذا لا يعني أنّ لهجة إقليمية أو لوناً شعبياً ، أو أيضاً لوناً محلياً ، لا تؤسس كلها في أوضاع ثنائية اللغة ، منظومة تعاليم تحدّد ما يتعيّن اختياره إذا شئنا الامتثال للمثال والعادات الاجتماعية / الثقافية لدى الجماعات التي تمارس هذه الألوان ، وإذا شئنا أن نكون عضواً كامل العضوية في هذه الجماعات . عندها ، لا شيء يسمح

بالافتراض أن هذه المنظومة من التعاليم لا تتضمّن ، هي أيضاً ، وجود استعمالات محظورة ، ستقوم الجماعة بقمعها كاستعمالات ممنوعة.

لقد لاحظ ويليام لابوف (Labov) إن عمّال نيويورك يعطون للونهم اللغوي وبكل طيبة خاطر «تضمينات تحسينيّة ، رجولية» (Marcellesi et Gardin, Linguistique sociale, p. 139) . وإذا كان الحال كذلك حقاً ، فلا بد من ارتقاب إمكانيّة نزوع الجماعة الفرعية الاجتماعية التي يكوّنها رجال الطبقة العاملة النيويوركيّة ، إلى قمع استعمال المعاجم والسجلات (انظر ١٦/III) التابعة للون المُطبّع، وكذلك قمع ألوان اجتماعية أو إقليمية أخرى من الانكليزية الاميركيّة ، وفي هذه الحالة ، يتحدّث مارسيلشي وثماردان عن وجود **معيار معاكس** (Contre - norme) في الطبقة العاملة النيويوركيّة ، وليس من المؤكد إطلاقاً أن المعيار المعاكس الذي وضعته هذه الطبقة الاجتماعية كان متعارضاً فحسب مع المعيار الفوقي المرتبط باللون المطبّع.

إن الحالة التي يذكرها جورج مونان (Mounin, Répression, p.65- 70) تبدو ذات دلالة في هذا الموضوع . فالمتحد الصناعي في روان القديمة ، المتأصل في منطقة ريفيّة ، على حدود البيكاردي والنورماندي ، كان يمارس ما بين ١٩٣٠ و١٩٣٨ لوناً لغوياً يدعوه المؤلّف نوعاً من الفرنسية المؤقلمة (Un Français patoisé) . وكان يتعيّن على هذا اللون أن يمثل بشكل حسن حالة لغوية مرتبطة بمسار من التقاطع الجاري بين اللون المحلي من المنظومة الفرنسية ولهجة محلية قريبة منه بنيوياً . وحين نفحص الوضع عن كثب اكثر ، نكتشف أنه في الواقع أعقد بكثير . فاللهجة المحليّة المحكيّة في روان القديمة كانت هي ذاتها لوناً نورماندياً ملوّناً بالبيكارديّة إلى حدٍ

بعيد . إنها إذن حالة لغوية تُعلن هي أيضاً مساراً تقاطعياً بين لهجة محلية نورماندية ولهجة محلية بيكاردية.

على الرغم من طابع هذه الفرنسية المؤقلمة (الذي قد يقول عنه البعض إنه طابع خلاسي) ، فإن الجماعة التي كانت تمارسه ، إنما كانت تكافح في كل لحظة ، كما يقول مونان ، كلَّ ما كان يتهدَّد التفاهم الداخلي أو يعيقه ، كانت تكافح كل ما كان يتعارض مع تماسكها اللغوي ، وهو عنصر أساسي في تماسكها كجماعة اجتماعية . وكانت هذه الجماعة تمارس في مادة اللغة نشاطاً تطبيعياً وقمعياً عفوياً في مواجهة كل ما كان يمكنه خفض المسافة اللغوية الفاصلة لونها الخاص بها عن الألوان المجاورة.

إذن تستطيع كل جماعة أو كل جماعة فرعية اجتماعية أن تربط بلونها اللغوي ثقلاً إضافياً من الإكراه الاجتماعي الذي يقترب ، مع أخذ كل شيء في الحسبان ، من المعيار الفوقي المرتبط باللون المُطبّع اكثر مما يقترب من المعيار الكافي لحسن سير المنظومة بوصفها اداةً إبلاغيّة.

إن الاعتراض ، المُعلن أو المُضمر ، الذي تظهره بعض الجماعات الاجتماعية في وجه المعيار الفوقي ، وكذلك الاعتراضات القائمة بين الشحنات الإضافية من الإكراه الاجتماعي التي تربطها كل جماعةٍ بلونها اللغوي الخاص ، إن كل هذه الاعتراضات يمكنها تسويغ التعريف الذي يعطيه مارسيلشي وغاردان (Linguistique sociale, p.146) للمتحد اللساني تسويغاً كافياً : إنه مجموعة جماعات اجتماعية تدخل في علاقات جدليّة في سياق إبداعي واحد لجملة معايير يسودها معيارُ الطبقة المهيمنة ، لكنّها مجموعة موضوعة على المشرحة بلا انقطاع.

المواقف والتلوّنات اللسانيّة

١٦/III ـ المواقف (المواضع) والسجلّات

عندما يبني متكلّمٌ قولاً ، يمكن أن يكون اختيار السمات اللغوية ، وشكلها ووظيفتها ، مشروطاً بجملة المعطيات غير اللسانية ، تلك الماثلة في الواقع الخارجي ، والماثلة أيضاً في فكرة المتكلّم أو في مشاعره ذاتها . وتشكّل جملة المعطيات غير اللسانية هذه ما سنطلق عليه تسمية الوضع الفوري لفعل الكلام . وبالعكس ، عندما لا يمكن عزوّ أي دور واضح للوضع الفوري في اشتراط قولٍ ما ، يُقال عادةً إن هذا القول خارج الوضع (الموقف) . في الواقع ، وحتى عندما لا يستطيع الوضع الفوري أن يرى نفسه منوطاً بدور في اشتراط قولٍ ما (ملفوظ منطوق = Enoncé) ، ليس من الصحيح تماماً القولُ إنّ هذا الملفوظ هو خارج الوضع ، فكل ملفوظ موجود أيضاً في وضع عام هو خلاصة التاريخ المشترك بين لغةٍ ومجتمع ، وخلاصة التاريخ الشخصي للفرد المتكلّم ، إذن ، في هذا المقياس ، يكون قول ما دائماً في وضع ما، وفي حال الأقوال المكتوبة، مثلاً، التي تعتبر، بوجهٍ عامٍ جداً، كأنها أقوال خارج الوضع ، فإن استعمال الراموز (Code) المكتوب يحيط وحده ، وإلى حدٍ بعيدٍ ، بشرطيّة الوقائع اللغوية المستعملة واختيارها وشكلها ووظيفتها ، إن هذا الاستعمال للراموز المكتوب هو في الواقع الوضع الفوري الوحيد ، في هذه الحالة . وعليه ، فإن هذا الاستعمال غير ممكن إلّا بقدر ما يكون الوضع العام وتاريخه جامعين اللغة والكتابة.

إن المتكلمين الحائزين على عدّة ألوان في معجمهم الشفهي

يستطيعون الانتقال من اللغة إلى الكتابة . فهم يفترضون مميّزات من شتى الألوان لصياغة المنشط اللغوي الجاري . وإن متكلّماً لا يملك سوى لون لغوي واحد، يجري مع ذلك اختيارات للطرق التي في متناوله . كل ذلك يتمّ وفقاً للوضع الفوري لفعل الكلام . وهذا يحدث بكل وضوح لكي يكون الخطاب متكيّفاً اجتماعياً مع واقع هذا الوضع الفوري أو مع الوعي الذي يكوّنه المتكلمون عن هذا الوضع ، ومع التقدير الذي يضعونه لهذا الوضع ، ومع التأويل الذي يتخذونه لأنفسهم و/ أو يريدون اعطاءه للمستمع الفردي أو الجماعي ، الخ . إن تكيّفات الخطاب هذه مع معطيات الوضع المباشر ، جرى التدليل عليها كأنها أساليب الخطاب ، أساليب الكلام ، ولكننا نستطيع تفضيل مفردة سجلّات / معلجم ، بقدر ما تجنّبنا هذه المفردة التضمينات والأحكام القيميّة المتعلقة بكلمة أسلوب ، وتجنّبنا أيضاً التضمينات والأحكام المتعلّقة بتسمية مستويات الاستعمال ، الملحوظة هي أيضاً ، وفي هذا المعنى ذاته ، في الأدبيات المخصّصة لهذا الموضوع.

III/١٧ـ التفعيل والسياق اللسانيّ

كلما حمل الوضع المباشر مزيداً من المعلومات ، قلّت ضرورة استعمال الطرق اللسانية (Frédéric François, Contexte, p. 69) . هذا هو الأمر الذي يصنع الفرق بين الأقوال التي من خلالها يستطيع المتخاطبون الإفادة من هذه المعلومات التي يمدّهم بها الوضع المباشر ، وبين المتخاطبين بأقوال سيكون هذا الأمر ممتنعاً بالنسبة إليها . وعلى الرغم من عدم وجود أقوال خارج وضع بالمعنى الدقيق للكلمة ، فإن هذه التسمية تخصص عموماً للمناشط اللسانية التي لا يكون من الممتنع عليها الإفادة من المعلومات التي يقدّمها الوضع الفوري/ المباشر لأجل تفعيل الوحدات الواردة في

الرسالة . وإن تفعيلها معناه نقل هذه الوحدات من المعنى اللامحدود الذي يكون لها عندما تكون معزولة إلى المعنى الدقيق الذي يتعيَّن عليها اكتسابه في السياق اللساني . الا وهو كل رسالة خاصة (Fran-çois, Contexte, p. 70) وكتب هيمز من ناحيته : إن استعمال شكل لغوي يحدِّد ماهية سلسلة من المعاني ؛ فيمكن لوضعٍ (فوري) قبول سلسلة معانٍ : وعندما يظهر شكل في وضع ، فإن الشكل يصفّي المعاني الممكنة في هذا الوضع ، غير تلك المعاني التي يمكن للشكل ذاته أن يشخِّص هويَّتها ؛ وعندئذٍ يصفّي الوضعُ المعاني المحتملة بالنسبة إلى الشكل اللغوي ، غير تلك التي يمكن لهذا الوضع ذاته قبولها : يتوقَّف المعنى الحقيقي على تفاعل الشكل اللغوي والوضع (Hymes, Speaking, p. 105) ، والحال ، فإن الوضع الفوري إذا كان لا يقوم بالدور المُناط به ، فإن هذا الدور في تفعيل الوحدات اللغوية لن يمكن توفيره إلاّ بالسِّياق اللغوي ذاته ، وهو السياق الذي يتعيَّن عليه ، وقتئذٍ ، أن يكتسب إتساعاً ووضوحاً خاصَّين.

III/١٨ـ الإبلاغ ضمن الموقف

في المواجهة بين المتكلم والمستمع ، إذا كان المنشط اللساني بكل معنى الكلمة يستطيع الإفادة مما يشكِّل المسلك غير الشفهي للمتخاطبين (مواقف ، حركات ، إيماءات ، أو غيابها ...) وأيضاً مما يشكِّل العناصر ما فوق الجزئية أو الفردية المرافقة للسَّرْد الكلامي ، وفوق ذلك كله الإفادة من كل معلومة تقدمها بقية الوضع المباشر ، سيجري الكلام في هذه الحالة على إبلاغ لغوي ضمن موقف . وعندئـذٍ سيحدث أقصى اقتصاد في الطرق اللغـوية ، وسيمكن أن يخسر وضعُ السياق اللغوي من أهميته ، وستكتسب الرسالة من ذلك سمات ومزايا خاصَّة.

إن التواتر المقدَّر بشكل عام تقديراً ناقصــاً ، للأقــوال غير المكتملة ، يبرهن كفايةً كيفَ أن القولَ الذي يفيد إفادةً قصوى من المعطيات التي يقدّمها وضعه المباشر ، يقتصــدُ اقتصاداً جـذرياً بوسائله المعجمية والقواعدية والصوتية ، وفي هذه الحالة ، يبرهن تــواتر هـذه الأقوال غيــر المكتملة ، على أنَّ المتكلّمين هم قليلــو الانشغال وقليلو الاحتياج إلى سياق لغوي واسع ودقيق.

إن الأقوال غير النحــويّة التي تظهــر في الإبلاغ الشفهي ، الموقفي ، تمثّل هي أيضاً تخفيضاً كبيراً لاستعمال الطرق اللغوية ، وهو التخفيض الذي لا يعوّضه سوى اللجوء إلى معطيات الوضع المباشر . ففي الفرنسية ، لا يمكن لملفوظ مثل /fil/ حتى وإن كان مصحوباً بمدٍ للصائت غير مألوف ، أن يبلغ هدفه إلّا إذا كان ، مثلاً ملفوظاً إسمياً صادراً عن شخص في عمله (خيّاطــة ، معماري ، جرّاح ...) أو أيضاً إذا كــان مصحوبــاً بحركــة من المتكلم نحو المستمع (File- moi ça, j'en ai besoin) أو نحو الباب (file, je t'ai assez vu...) .

III/١٩ـ قواعد الإبلاغ الشفهي

في أغلب الأحيان ، تدينُ قــواعدُ الإبــلاغ الشفهي بجوهــر مزاياها وسماتها في الواقع . الى كون الأقوال المستندة إلى الوضع المباشر، لا تستعمــل سوى جــزءٍ من الإمكانــات التي تملكها المنظــومة اللغويّة . ومن بين طرق توسّع المنطوق الفرنسي ، غالبــاً ما تبـرّز قواعدُ الإبــلاغ الشفهي الموقفي ، التــراكبَ المحض أو الترابط ، وتقلل من استعمال طريقة التوسّع بالإلحاق . ومثال ذلك ان المتكلم يستطيــع ، فــي : i-vient, i-m raconte, des vrais caucaus /ivjɛ̃...imrakõt... devrɛ kãkã/ .

استعمال الملفوظ الأوفــر ، وذلك بتحققــه من خلال أجــوبة

محاوره ومسلكه ، أنّ الملفوظ (المنطوق/ القول) قد بلغ هدفه حقاً وأنه قد فُهم : إن الشخص الثالث المعني بهذه المسألة ، لم يكن قد جاء إلّا بهدف نقل وقائع تشكّل في نظره إتّهاماً للمستمع . والمتكلم يجعله يعلم ، سواء باختياراته اللغوية أم بسلوكه غير الشفهي ، أنّه لم يعطِ ما كانَ يقصدُه سوى رصيد محدود . ففي قول كهذا ، يعتمد المتكلّم بكل وضوح ، على الوضع المباشر بقدر ما يعتمد ، على الأقل ، على السياق اللغوي ليدلّ على العلاقات القائمة بين الأجزاء المحدودة فقط بالوقفات في القول ذاته .

يمكن للطرق اللغوية المستعملة استعمالاً ناقصاً في قواعد الإبلاغ الشفهي الموقفي ، ان تكون في عداد تلك الطرق التي تدخلُ في تعارضات المنظومة الأكثر ثباتاً واستقراراً ، ومثـاله يمكنُ في الفرنسية ان تُستعمل استعمالاً ناقصاً صيَغٌ زمنيةٌ مندمجة إندماجاً قوياً في المنظومة كصيغة الماضي وصيغة المستقبل . عندئذ يكون الحاضر هو المميَّز ، أو بكلام أدّق يكونُ واحداً من مدلولات الحاضر الممكنة ، مدلول « غياب الزّمن » . إن ملفوظات ، مثل :

[I- vient, i-m'raconte; j'en ai besoin, tu me le rapportes quand tu viens]

هي أقوالٌ تبلغ هدفها تماماً ، على الأقل باستنادها إلى الوضع المباشر والسّياق اللغوي على حدٍ سواء . وإنها لتبلغ أهدافها حتى في غياب كُليمات / مثل Hier أو Aujourd'hui/ قد يمكنها على الدوام الاندماج في السياق اللغوي لكي تصاحب أو تحل محل صيغ لفظية جـرى إقتصادهـا في مستوى التـركيب التعبيري الشفهي ذاتـه:

[Hier il vient / il est venu, i-m raconte / i-m'a raconté, j'en ai / j'en aurai besion demain, tu me le rapportes / tu me le rapportera quand tu viens / viendras...

إذن تستطيـع ملفوظـات الإبلاغ الشفهي التي تفيـد إفـادة

قصوى من وضعها الفوري ، أن تكون ناقصة ، لا نحويّة ، أو أنّها لا تستعمل الاحتياطي من الطرق اللغوية التي تمثّلها المنظومة . وهي لا تستطيع فحسب ، بل يتعيّن عليها أحياناً أنْ تكون غير قواعديّة ، لكي تتكيف على نحو أفضل مع الوضع المباشر الذي هو وضعها ؛ وكان هيمز قد شدّد بقوله :

[A person who chooses occasion and sentences suitably, but is master only of fully grammatical sentences is at best a bit odd, some occasions call for being appropriately ungrammatical (Communicative competence, p.227(5).

VI/٢٠ ـ الإبلاغ خارج الموقف والتلوُّن المُطبَّع

عندما لا تكون المعلومات التي يقدّمها الوضع المباشر ، قابلة للاستعمال لأجل تفعيل الوحدات اللغوية ، يتعيّن حينئذٍ الالتجاء الى إرصان أكبر للسياق اللغوي ، فهذا الأخير يتعيّن عليه أن يكتسب مدىً كافياً للتعويض عن عدم فعالية الوضع المباشر . ولإرصان هذا السياق التعويضي ، سيكون على المتكلّم أن يستعين بعددٍ أكبر من الطرق التي يمكن أنْ يوفّرها له اللون الذي يتكلّمه عموماً ، لكنّه يستطيع أيضاً الاستعانة بالاحتياطيّ الذي يمثّله اللون المُطبَّع . وبالطبع هذا الأمر غير ممكن إلاّ للمتكلّمين المعتادين على هذا اللون ، وعندما يكون الحال هكذا ، يمكن لهذا الأمر أنْ يتضمن أيضاً

---

(٥) يبدو إذن إن الإبلاغ الشفهي الموقفي وقواعده يتّجهان نحو التعارض مع الإبلاغ المسمّى خارج الوضع ، خصوصاً في علاقاته التي يقيمها مع اللون المُطبَّع (انظر 20/III إلى 25/III) . غير انّه قد يكون من غير المسوّغ جعل هذا التعارض مطابقاً للعلاقات القائمة بين الراموز المحدود والراموز المصنوع كما حدّدها بازيل برنشتاين (Langage et classes sociales, p. 70-77, et P.91-118) . ففي الواقع يدخل في تعريف هذه الرواميز معطيات اجتماعية ، نفسية ولغوية أيضاً ، لم تؤخذ ، هنا ، كلها في الاعتبار .

استعمال طرق لغويّة يُفسح تواترها الاستعمالي المنخفض جداً ، المجال للافتراض بأنها في الواقع طرق خارجة من المنظومة الحالية بالمعنى الدقيق . وفي هذا الحال ، يجري الكلامُ على معجم مدعوم ، وحتى مأثور (كلاسيكي) أو حتى قديم.

إن الوظيفة الاحتياطيّة للطرق اللغويّة التي يحتفظ بها اللون المُطبَّع في اللغة المسمّاة مشتركة ، هي من البيّنات في مستوى المعجمية ، وان لحظها واستنتاجها من الأمور العادية التافهة ، لكنّها من البيّنات أيضاً في مستوى النحو والمباني، ولا يخلو من الفائدة النّظرُ اليها في لغةٍ كالفرنسيّة جرت قوننتها مطوّلاً وبدقة متناهية ، ويحظى تطبيعها المعياري (تقعيدها) منذ أمدٍ بعيد بوسائل قويّة وفاعلة . إن اللوْن المطبّع من الفرنسية يؤدي ، اليوم ، وظائفه المرجعيّة والتعليمية إن لم نَقُلْ على مستوى الإرضاء العام . فعلى الأقل على صعيد إرضاء المُطبِّعين أنفسهم وما يتنزّل منهم من طبقات وجماعات اجتماعيّة.

وخلافاً لما يجري في الموقف ، من الصعب خلال الإبلاغ خارج الموقف ، إنكار بعض طرق المنظومة ، كذلك في الفرنسية ، ودون إنكار التوسّع بالتراكب او بالترابط ، سيفيدُ نحوُ الإبلاغ خارج الموقف ، إفادةً كبيرةً من التوسّع بالإلحاق والاستتباع . ويرتبط الاستعمال الأقصى والدقيق للتوسع بالإلحاق ، في اللون المُطبَّع من الفرنسيّة ، يرتبط بعددٍ معيّن من الاستعبادات القواعديّة التي بدأ الإبلاغُ الشفهي الموقفي والألوان غير المطبَّعة، يتحرَّر منها، منذ أمدٍ بعيد . يمكن لهذه الاستعبادات أنْ تفرضَ أشكالاً ، لا يتوصّل الى الحفاظ على استعمالها استعمالاً فردياً سوى قوننةٍ دائبة وتطبيع مثابر ومكابر . وإن ظهور بعض صيغ نصب الفعل (Subjonctifs) يثير لدى المستمع ردود فعل تبدأ من الاحترام او التواطؤ نحو مستعملها ، وصولاً إلى الانزعاج منه ، مروراً بالاندهاش والهزل أو

التضايق ، وهذا ما يطلق عليه مارتان جوز (Martin Joos) أحياناً إسم شكلانية مزعجة وإعوجاج معاكس للمجتمع تعلماً.
.(Joos, Isolation of styles, p.189- 190)

٢١/III ـ المنظومة الشفوية للفرنسيّة المُتَداولة

إن الألوان غير المطبّعة في الفرنسية تستبعد ، من جانبها ، هذه الأشكال وتمتلك منظومة شفويّة تختلف اختلافاً كبيراً عن منظومة اللون المطبّع . وإننا لندينُ لأندريه مارتينه (De l'économie des formes verbales en français parlé, le français sans fard, p.91-121) .

بالوصف الأكثر واقعيّة لهذه المنظومة . إن المنظومة الشفوية للفرنسية المحكية ، الفرنسية المألوفة ، الفرنسية « في بوابيجها » ، الفرنسية التي يجيد جميع المتكلمين الراشدين استعمالها والتي يستعملونها دون خوفٍ من الانخداع (Martinet, langue et fonction, p.151) هي منظومة ـ بخلاف منظومة اللون المُطبّع ـ قد يكون من غير المجدي بالنسبة إليها طرح وجود تصريفات شتى . فيمكن الكلامُ على منظومة شفوية بلا تصريف ، بمقدار ما تكون جميع الأفعال فيها متراخية بالكيفية نفسها ، بإضافة الحركات الإعرابية (أواخر الكلمات : Désinences) ذاتها لموضوعةٍ ما ، عندها يكونُ التباين الأساسي للدَّالِّ هو تباين الموضوعة ، ولكن بالنسبة الى قلّة من المُعيجمات الشُفوية (Lexèmes) فقط ، في حين أنَّ أغلبيّتها تحقق المثال ألا وهو وحدة الجذر (Radical) . في هذه الشروط ، قد يكون من غير الحكمة التقليل من قيمة الفوارق القائمة في مستوى المنظومة الشفهية . بين ألوان الفرنسيّة المطبّعة وألوانها غير المطبّعة ، خصوصاً إذا تناولنا أعمالاً تستعمل ما يسميه لابوف (Labov) (Sociolinguistique, p. 200) مُشير الخطر اللغوي ،

ذلك الذي يسمح بلبْاس التعارض الذي يحدثه متكلّمٌ بين استعماله الشخصي والاستعمال الذي يعتبره صحيحاً .

٢٢/III ـ العُرف الكتابي والتلوّنات اللسانيّة

إن استعمـال الرامـوز الكتابي أو المكتـوب يحرم الـوضع المباشر من مساهمة فعّالة في تفعيل الوحدات اللغوية ، وبالتـالي يجبرُ السياق على تقديم مساهمة قصوى . لهذا يجري عموماً اعتبار المنشط اللغوي المكتوب كـواحدٍ من الإبـلاغات خـارج الموقف ، سيستثمر إلى أبعد حدٍ ممكن ، مساهمةَ احتياطي الطرق الذي يمثّله اللون المُطبّع .

غيـر انّ عدداً معيّنـاً من الحالات يفصـل المنشط اللغـوي المكتوب واللون المُطبَّع، اقلّه لدى المتكلمين الذين لم يكتسبوا أبداً استعمالاً فعّالاً للون المُطبّع . كما يحصل انْ يكون مقبولاً من الوجهة الاجتماعية ضمُّ المنشط المكتوب إلى ألوان غيـر مُطبَّعة . واليـوم يمكن بشكل مألوفٍ جداً طبع اللون الدّارج من الفرنسيّة ، وإن بعض المنشورات تجلب اليها ، على هذا النحو ، قسماً من قرّائها . وفي ناحية أخرى ، لا يكون هذا الضّمُّ مقبولاً ، ومثالُ العربية ذو دلالة في هذا المجال ، فكتابة أو طبع ألوان غير مُطبَّعة من هذه اللغة لا يـزال يطرح عـدداً من المشاكـل ، ويواجـه كثيراً من المقـاومات الاجتماعيّة . وإن واحدة من الصعوبات الأولى التي يلاقيهـا ضمّ الراموز المكتوب إلى ألوان غير مُطبَّعة ، ناشئةٌ عن عـدم مناسبـة التقاليد الإملائية المرتبطة منذ أمدٍ بعيد باللون المطبّع (المقعَّد) . ويكفي ان نلحظ تقريبَ النتائج التي يؤول اليها مجهود كتّاب يحاولون كتابة حوار يمكنُ عزوه إلى اللون الشعبي أو الى اللون العاميّ من الفرنسية . وإن المحاولات الجارية لكتابة العاميّات العربية ستقود

أولئك الذين يتحملون مسؤوليتها إلى ابتكـارات إملائيـة في معظم الأحيان .

حتى في المجتمعـات التي يبدو فيهـا مقبولاً ضمُّ الـرامـوز المكتوب إلى الألوان غير المطبَّعة ، لا يكون هذا الاختيار سهلاً ، بالضرورة ، وبريئاً اجتماعياً . إن ضم الراموز المكتوب إلى لون غير مُطبَّع ، يمكنه ان يكون واحدةً من الكيفيّات للإعلان عن تضامن معيَّن مـع الجماعـات الاجتماعيـة الناطقـة بهذا اللـون ، وبالتـالي عدم التضامن مع المتمسّكين باللون المطبّع .

III/٢٣ ـ الإبلاغ الشفهي خارج الموضوع

عندما لا يستطيع المنشط الشفهي الإفادة من المعلومات التي يقدّمها الوضع المباشر ، يغدو هو أيضـاً إبلاغـاً خارج الـوضـع (الموقف) وحسب كل احتمـال سيتعيّن عليه الالتجـاء إلى اللون المطبّع ومميَّزاته . ويلفتُ فيشمان (Sociolinguistique, p. 46) الى أن الشكل الصحيح للغةٍ ما ، اللغة العامـة الصحيحة ، هـو الوسيلـة الإبلاغية الأضمن للتواصل مع المستمعين الذين لا يعرف المتكلّمُ عددهم ولا تنوّعهم . إنها الوسيلة الأضمن المتداولة بين جماعاتٍ ليس بينها علاقاتٌ أخرى ، الجماعات التي تُطال بواسطـة الإعلام الجماهيري ... إنها اللون الإبلاغي المستقل عن المتكلّم والمستمع والذي يمكن التوقع بأنه سيكون فهمُه ممكناً الى حدٍ كبير. وهكذا يقترح فيشمان تعريفه الخاص بالإبـلاغ الشفهي خارج الـوضـع ، ويشدّد في وقتٍ واحدٍ على العلاقات التي يقيمها هذا الإبلاغُ واللونُ المُطبَّع . فلا شيء يسمح بالافتراض أنّ هذا اللون المُطبَّع لا يؤمّن عندئذٍ الوظيفة الاحتياطيّة للطرق المعجمية والقواعديّة التي يؤمّنها في خلال استعمال الراموز المكتوب .

ولكنَّ بلوغَ الطرق القواعديـة والمعجمية للـون المطبَّع ، في اثناء الإبلاغ الشفهي ، غالباً ما يظلُّ اقلّ يسراً مما هو عليه الحالُ في الإبلاغ المكتوب ، حتى بالنسبة إلى طرق المتكلمين المعتادين منذ أمدٍ طويـل على هذا اللـون . وفي الوضـــع الاجتماعي / اللغــوي الفــرنسي الـرّاهن ، يستطيـــع المتكلّمــون المنتسبـون حتى إلى البورجوازية العليا أو الـوسطى ، الإعلان عن خطـر لغوي كبيـر ، يُترجم بـ « معايير شديدة التقلّب في السياقات الشكليّة ، وبمجهود تصويبي واعٍ » .

(Labov, Sociolinguistique, p. 183- 184 et 203)

وفي اثناء ندوة صحافية متلفزة ، أمكننا ان نسمع من فم واحد من كبار المسؤولين في الدولة الفرنسيّة :

«Cela ne signifie pas que nous entrons dans... que nous entri... qu'en entrant dans ce processus, nous avons...»

لا بد هنا من ان نلحظ جيّداً ، قلقاً لغوياً بيّناً ، بشكل خاص في مـواجهة الاستعـيـادات النحويّـة التي تفرضـهـا طريقـة التـوسـع بالالـحاق ، في اللون المطبّع من المنظومة الفرنسيّة . ونظـراً لعدم تمكن المتكلّم من التـوصل ، في شـروط الإبلاغ الشفهي وخـارج الوضع ، الى الطرق القواعدية التي كان ينوي اولاً الإفادة منها ، يبدو انّه اضطُر الى إجراء تعديل جزئي في المعنى الذي كان يتوقعه لقوله ، مما جعله يتوصل عندئذٍ إلى سلسلة اقوال ناقصة ، وحتى لا قواعدية .

III/٢٤ ـ صواتة الإبلاغ الشفهي خارج الموضع

عندما يكون شفهياً الإبلاغُ خارج الموضع ، يمكن ان نتساءل اخيراً ما هي صواتتهُ ؟ واية طرق استطاع المقعّدون انْ يأخذوا بها

في هذا المستوى لأجل اللون المُطبَّع ، وما هي الوسائل التي يملكون لفرضها ، وما النتائج التي توصّلوا اليها ؟

يشدّد فيشمان (Sociolinguistique, p. 44) على أن بعض ألوان المعجم الشفهي يجري اكتسابها ، في المجتمعات المركّبة ، أولاً وان استعمالها يجري من ثمّ في الاتصالات اللغوية الفعليّة والمتواصلة داخل الجماعة الاجتماعيّة . وبالعكس لا يجري اكتساب الوان اخرى إلّا لاحقاً في حياة المتكلّمين ، ويكون استعمالها مدفوعاً ، أساساً ، بدافع إرادة الاندماج في جماعة مرجعيّة لا توجد إلّا نادراً ، وقد لا توجد أبداً ، بالمعنى الحرفيّ للكلمة . وربّما تمثّل الامة متّحداً لغوياً من هذا الطراز الاخير ، وعندئذٍ تمثّل اللغة المُطبَّعة اللونَ المقابل لهذا المتّحد.

في هذه الشروط ، لن تحظى ابداً المميِّزات الصّواتيّة للون المُطبَّع إلّا باكتساب تبايني متأخر ، ومن بين الوسائل التي يملكها المقعّدون لفرض هذا الكسب المتأخر لمميّزات اللون المطبّع الصواتيّة ، لا يمكن تناسي التقاليد الإملائيّة وتأويلها ، التي تفضي إلى ما سمي احياناً صواتة قرائيّة . ومن المعترف به عموماً ان الفرنسيّة هي لغةٌ لعب فيها الإملاء (ضبط الكتابة) دوراً كبيراً ، ولايزال يؤثر في النطق بلا ريب . ومثال ذلك ان التقليد المكتوب يعطي لبعض الصوامت ترسيماً مزدوجاً ، في حين ان تعارض الحروف البسيطة أو القصيرة مع المزدوجات أو الحروف الطويلة ليس له ، حتى الساعة ، وجود صواتي حقيقي في منظومة الصوامت الفرنسيّة . وعندها ، يكثر بعض المتكلمين من اشكال التردد والتنافر : نادرون هم مذيعو التلفزيون الوطني الذين لا يذهبون في لحظة أو في أخرى ، الى مد حرف الـ / m أو ال/ L في / Collusion / Commenter / أو / Pollution / وبشكل اقل وروداً وانتظاماً بالنسبة الى كلمات / Collage /Commission / أو / Collimateur / .

ومهما تكن أو مهما كانت الوسائل التي اختارها التقعيد لكي يفرض على الاستعمال الشفهي للون الفرنسي المُطبِّع ، صواتةً خاصة ، موّحدة ومستقرّة ، يمكن التساؤل عما إذا كانت الأهداف المنشودة قد تحقّقت . هناك ٦٦ ضابطاً من الجيش الفرنسي ، ولدوا جميعهم وترعرعوا في باريس ، يشكّلون جماعة فرعيّة يمكن اعتبارها ممثلة للمتكلمين تعوّدوا باكراً على اللون المُطبِّع من الفرنسية ، سواء في استعمالها الشفهي أم في استعمالها المكتوب . ويبيّن استطلاع ميداني اجري على هؤلاء المتكلّمين (Martinet, phonology as functional phonetics, London, 1949) ان من أصل هؤلاء المتكلمين الستة والستين لا يوجد إثنان يملكان منظومة صوتيّة متماثلة في كل نقطة . في هذه الشروط ، يبدو المعيار الفوقي أقلّ فعاليّةً واستقراراً وتوحيداً في مستوى الصواتة مما هو عليه في مستويات القواعد أو المعجمة. وقد يكون مفيداً، في السبيل الذي فتحه مارتينه (Prononciations, p. 223- 235) ، التعرّف الأفضل على السلوك الصواتي للجماعة المهنية/ الاجتماعية التي يشكلها المدرّسون ، وذلك باعتبارهم جماعةً من أهم الجماعات الاجتماعية التي تحاول الطبقة السائدة استعمالها لاجل التطبيع أو التقعيد اللغوي . لكنْ لا شيء يسمح ، من وجهة قَبْليّة ، بأن نعزو إلى المدّرسين صواتةً أكثر وحدةً من صواتات الجماعة الاجتماعية التي وصفها مارتينه .

III/٢٥ ـ التنافر المعياري والتصويب اللغوي الفوقي

جرى التشديد غالباً على أنّ اللغة كانت مجموعة عاداتٍ ، كان سيرُها يُعتبر مُرْضياً بقدر ما كان ينأى عن رقابة المتكلّم وضبطه الواعي. وبشكل خاص تُبرُزُ الملاحظةُ في مستوى العادات النطقية التي يتضمنها النظام الصّواتي . واذا تمكّنت العادات النطقية الأولى

المكتسبة من النأي عن رقابة المتكلم وضبطه الواعي ، فإن هذا يفسّر إلى حدٍ بعيد جداً طابعها المستقر والمضمون ، وبالتالي يفسّر الصعوبة القائمة وراء الرغبة في معارضتها . وهذا يفسّر عنادها الذي يسير غالباً في اتجاه معاكس حتى لإرادة المتكلّمين . إن مهمّة القيّمين على معيار فوقي في مادة الصّواتة ، ستكون صعبة بقدر ما تصادف أولاً لا وعي المتكلمين ، وبقدر ما تصادف أيضاً لا وعي المقعِّدين انفسهم . وللاقتناع بذلك ، قد يكفي النظر ، على سبيل المثال ، في موقف مقعّدي الفرنسية ومطبّعيها من الفعالية الجارية في راتوب (Ordre) الصّوامت الحنكيّة لهذا اللسان .

نادرةً كانت الانتقادات المعيارية للالتباس المكتسب منذ أمدٍ بعيد بين الصامت الحنكي الجانبي / λ / والزّمرة / ij/ وبين الصامت الحنكي الآخذ في التموضع بين /ɲ/ و /nj/ . وحتى يردّ القيّمون على المعيار ، تعيّنَ أن تنزع الزمرة /ij/ ذاتها الى الاندماج مع /j/ . اندماجاً ظاهراً مثلاً عندما تُلفَظَ escalier و /Suje /soulier /eskaje/ . إن قوّة الرّد المعياري أسهمت في جعل الالتباس يتراجع اليوم ، ذلك الالتباس الذي لم يَطَلْ ، ربّما ، الا بعض أجزاء الأراضي الفرنسية ، .(Martine, Festschrift Onishi, P. 341-348)

يعتبر لابوف أنَّ التدخل التقعيدي يمكنه أنْ يناقض المنظومة اللغوية وفعاليتها لدرجة التوصّل إلى شكل لغوي مصوّب يغدو لا منظومياً ، بعد استعماله في الأوضاع القاهرة (System in creole, P. 452) . هذه الحالة الواقعية لا تنعكس في الخطر اللغوي الصريح لدى الكثيرين من المتكلمين فحسب ، بل تنعكس أيضاً في التصويب اللساني الفوقي الذي لا يمكن فصلُه عن هذا الخطر ، والذي يميّز خطاب الجماعات الممارسة ، في البدء ، لوناً غير مُطبَّع ، والمعتادة ، بالتالي ، قليلاً على اللون المطبَّع .

(Labov, Sociolinguistique, P. 193 et S.)

٢٦/III ـ الميادين :

يقدِّرُ فيشمان انَّ ثمـة فائـدة كبرى من فحص الانتظـامات المشتركة القائمة على صعيد كبير بين الالوان والوظائف المعترف بها اجتماعياً لهذه الالوان إنطلاقاً من مفهوم **الميادين** (domaines) . إن الميادين (المجالات/ الحقول) هي بناءات اجتماعية مستفادة من تحليل ومن تلخيص دقيق لمواقف مناسبة بكل وضوح[٦] . إن الميادين متعددة وكثيرة ... المدرسة ، الكنيسة ، الأسرة ، جماعة الحيّ ، مجموعة التسلية . البعض لا يقبل إلاّ الاستعمال المكتوب للمنظومة اللغويّة ، والبعض الآخر يقبل استعمالها الشفهي لا اكثر . بعض الميادين تتحدّد بوصفها **تنافسيَّة** ، لان عدّة منظومات او عدّة الوان تظلُّ ماثلةً فيها ؛ وبعضها الآخر يُعتبر **حصْريّاً** وذلك بقدر ما تتقبل فقط منظومة واحدة او لوناً واحداً ، ومهما يكن الأمر ، يمكن للميدان انْ يظهر كمفهوم مناسب ، بمقدار ما يرسم ، بين وضع عام ووضع مباشر ، وحدة قياسية وسطى وبالتالي أيسر على الاستعمال في بعض مستويات البحث او الوصف . وهناك تيارات أخرى من البحث الاجتمـاعي/ اللغوي تفضّـل على مفهوم الميـدان ، فحصَ المنشط اللغوي للجماعات او لفروعها الاجتماعيـة وذلك من خـلال

---

(٦) بالنسبة إلى اللسانة الاجتمـاعية التفـاعلية ، وفي المستـوى الجزئي لتحليلهـا ، «الموقفُ الاجتماعي المناسب بكل وضوح هو ذلك الذي تندمج فيه ، بالطريقة المأمولة حسب النّمط الثقافي ، المعطيات الثلاثةُ التالية : إنجاز علاقة الدّور ، اللحظة ، ومكان العلاقة » . (Fishman, Sociolinguistique, P.61) . بعبارة أخرى ، يكون الموقف المباشر مناسباً بكل وضوح عندما يتطابق تطابقاً كافياً مع معطيات الوضع العام ، حتى لا يكون ثمة مفاجأة من اكتشافنا فيها : مَنْ يتكلم اية لغة او لون ، مع من يتكلم ، اين ، ومتى .

العلاقات التي يتعهدها هذا المنشط مع المناشط الانتاجيّة ، المناشطة الرامية إلى صون العلاقات أو إلى تغييرها ، أو ايضاً تلك الرامية إلى معاودة انتاج قوة العمل أو الى ترميمها .

٢٧/III ـ الميادين والسجلّات :

يمكن ان نتوقع من العلاقة القائمة تاريخياً بين ميدان ولونٍ أو عدّة ألوان من اللغة المشتركة ، أنْ تشترط السجلات داخلَ هذا الميدان . وعندما شدَّد فيشمان (Sociolinguistique, P.58) على أن بعض التطابق يجب أن يوجد بين لونٍ ما وخصائص المحيط الاجتماعي قبل ان يكون ممكناً استعمالُ لونٍ اخر لأغراض الكتابة ، قبل ان يكون ممكناً انتقالُ الكتابةِ وظيفياً (معبّراً عن تعارض بارز بين الهزليّ والجديّ ، بين الموافق وغير الموافق ، بين المُهْمَل والمهمّ ، في تبادل لغوي جار) ، لم يقم فيشمان بغير التشديد على ضرورة هذا الاشتراط للسجلات بواسطة العلاقة بين : الميدان/اللون (الألوان) . وهكذا ، سيتعيَّن على المنشط اللغوي المُمارس في ميدان التعليم ان يأخذ في الاعتبار العلاقة القائمة من قبل ، بين : التعليم/ اللون المُطبَّع . لكنَّ المتكلّم سيمكنه ايضاً أن يختار في هذا الميدان استعمال لهجة إقليمية ، اللون العاميّ ، اللون الشعبي من اللغة المسمّاة مشتركة ، أو ايضاً ، لهجة محليّة ، في مواضع الثنائية اللغوية . وبذلك سيعترف فقط بأنّ الوضع المباشر (فرصة ، تبادل لغوي مع مستمع معروف كمتكلم بهذه اللهجة الإقليمية أو المحليّة ...) كان موضوعياً لا يحتمل سوى الاستعانة بلون غير مُطبَّع ، يسمح وحده بتكييف السجل (المعجم) والوضع المباشر .

ولكنْ عندما يختار متكلّمٌ ما سجلاً ، وبما أنَّ الأوضاع

المباشرة والسجلات تدخل في علاقات ترابطيـة ناشطـة[٧] (Joos, Isolation, P.189) ، يمكنه باختياره هذا ، أن يحدّد ، سواء بالنسبة إليه أم بالنسبة الى المستمع ، الوضع المبـاشر كما يناسبـه أن يكون ، أكثر مما هو معطىً له موضوعياً ، وبالتعارض مع العلاقة : تعليم/ لون مقعد ، يختار متعلّمٌ ناطق بالعربية استعمال لهجة محلية في ميدان التعليم ، وسيحـوّل الوضع المباشر الأشدّ إكراهاً (برهان علمي ، نقاش فلسفي ...) الى وضع يُراد منه أن يكون غير إكراهي (راحة ، تسلية ، فرصة ...) أو بالعكس ، يُراد منه أن يكون وضع توتر ، تعـارض نظري أو شخصي مـع التعليم أو مع المعلّم . إن استعمال لهجة محلية عربية في ميدان التعليم يمكنه أن يظهر ، بين أمور أخرى ، إرادة خلق ما يسمّيه جوز وضعاً مباشراً معـارضاً للمجتمـع . وعندئـذٍ ، يكون واضحـاً أنَّ السـجلات لا تتكيّف مـع المعطيات الموضوعية للوضع المباشر وحسب ، بل تتكيف أيضاً ، وعلى الأقل ، مع المعطيات النفسية لهذا الوضـع : ما يعلمه المتكلّم أو يظنّ أنّه يعلمه عن معطيات الوضـع ، والتفسير الذي يعطيه لنفسه أو يريد أن يعطيه لنفسه عنه ، والتفسير الذي يعطيه له أو يريد أن يعطيه للمستمع الفردي أو الجماعي ...

III/٢٨ ـ الكفاية الإبلاغيّة :

إن حسن اختيـار اللـون اللغـوي الـذي سيستعمـل وفقـاً للمستمع ، للمكان، للزمان أو بمقتضى المنشط اللسـاني ، هو مـا أطلق عليه هيمز ، في منظار قريب من القواعد التحويلية والتوليديّة ، **الكفاية أو الكفاءة الإبلاغية** (Hymes, on Communicative compe-

(٧) يستعمل جوز (الفرصة الاجتمـاعية والأسلـوب) ، بينما نقترح نحن (الوضـع المباشر والسجل) .

tence, P. 277-278) . بالمماثلة مع الكفاية النحويّة ، وهي هذه المعرفة الضمنيّة التي يملكها المتكلّم عن بُنى اللغة والتي تسمح له بأن يفهم وينتج عدداً لا يتناهى من الجُمل ، فإن الكفاية الإبلاغيّة هي تلك التي تسمح بإدراك الجُمَل ، لا بوصفها وقائع لغوية وحسب ، بل أيضاً بوصفها وقائع مناسبة إجتماعياً ، وبفضل اكتساب هذه الكفاية ، يصبح الطفل قادراً على تمييز اللحظات التي يتعين فيها الكلام او عدمه ، ويتعلّم ما يلزم الكلام فيه وما لا يلزم ، واين يتكلّم وكيف يتكلّم. وهكذا، يغدو قادراً على المشاركة بنفسه في مناشط الجماعة اللغوية ، وتقويم قيام الآخرين بهذه المناشط .

ويوضح هيمز أنّه لا يجوز اعتبار كسب الكفاية الإبلاغية بوصفها تلقيحاً متأخراً او زرعاً في معارف الولد ، فعلى العكس ، أظهرت معطياتٌ متعلّقة بالسنوات الاولى لكسب القواعد الانكليزية أنّ الأولاد يطوّرون استعمال فوارق الشكل في شتى المواقف والمواضع . وفي الوقت الذي اكتشف فيه شاب أروكاني (Araucan) من تشيلي ، قواعد الاستفهام في المنظومة اللغوية التي اكتسبها ، اكتشف واقعة أنّ تكرار ملفوظٍ استفهامي هو ، من جانب المستمع ، إهانة للمتكلّم . إذن ، يصحّ التشديد على وجود قواعد استعمال قد تكون قواعد النحو والصّرف، من دونها، غير قابلة للاستعمال تماماً.

III/٢٩ ـ تصنيف السّجلات :

« ليس الكلامُ على مستويات بدلاً من سجلّات ،

طريقة دفاعيّة في الكلام »

[جورج مونان]

على غرار مفردة لون/تلون ، يفترض بمفردة سجل أن تكون مصطلحاً فنّياً ، منزّهاً عن كل عاطفة ، لا يتضمَّن اي حكم قيمي ، ولا

ينطوي على أي تراتب . وإننا إذ نصفُ مستوىً واستعمالاً أو أسلوباً بأنّه مبتذل ، عاميّ ، شعبي ، عادي ، شائع ، مسنود أو نبيل ... إنما نقترح مرّة أخرى سُلّمَ قيمٍ وتصنيفاً هو في الواقع النّفي عينه للسجل المعتبر كأنه تكييفٌ للمنشط اللغوي مع وضعه المباشر . هناك بعض المستويات والاستعمالات أو الأساليب تعتبر كأنها ممكن أنْ يوصى بها اجتماعياً ، وأخرى تعتبر محايدة ، وأخرى أيضاً تعتبر قابلة للإدانةِ تماماً . إن الاستناد إلى المعيار الفوقي ، وإن كان ضمنيّاً ، ليس هو مع ذلك أقلّ ثباتاً ، ولا يمكنه إلاَّ أنْ يضفي السُّواد على كل محاولة وصف .

يقترح جوز في مقاله الصادر عام ١٩٥٩ ، تصنيفاً في خمس وحدات : السجل الحميم (Intimate Style) ، السجل الدّارج (Causal Style) ، السجل غير المميّز (Consultative Style) ، السجل الشكلي (Formal Style) والسجل المجمّد (Frozen Style)(٨) . ويتصوّر جوز نفسه هذا التصنيف كأنه سلّم ، لكنّه سلّمٌ قائمٌ أولاً على المعطيات النفسية للموقف المباشر ، وبالأخص تلك المعطيات التي تصنع العلاقات بين المتكلمين ، فتجعلها علاقات حرّة كثيراً بالنسبة إلى العلاقات الأكثر قسراً وإكراهاً :

«We Can say that «styles» belong with is called «set» in psychology, not descriptive linguistics, Joos, Isolation, p. 187-191).

وبكل تحفُّظ ، يضيف جوز أنَّ بعض السّجلات تبدو له محبوكة الصياغة لدرجة أنه يعتبرها ، في الوقت الحاضر ، كأنها غير قابلة للتحليل . ويعطي البعد الاجتماعي للمسائل حين يوضح أنَّ

---

(٨) أي بالفرنسية : Le Registre intime, le registre courant, non-marqué, formel et gelé.

ومن الواضح أننا اعتمدنا في تعريبنا هذا المقابل الفرنسي ، لا الانكليزي .

فرضيّته المتعلّقة بوجود خمسة أساليب (سجلات) ربما لا تصلح إلّا بالنسبة إلى اللغات القوميّة ، وبعبارة أخرى بالنسبة الى اللغات المشتركة التي تكون ، في المجتمعات المركّبة ، منظومات تلوّناتٍ حقيقيّة .

III / ٣٠ ـ التسجيلات والتلوّنات

يبقى من غير الميسور إيجاد معايير تصنيفيّة للمواقف المباشرة التي تتكيّف السجلات معها . فالمواقف التي تتقبل أو تفرض المنشط اللغوي لا تتناهى عدداً ، ومكوّناتها لا تكون قابلة دائماً للتوقع ، كما أنها لا تكون قابلةً للتحليل بكل وضوح . وعليه ، فإن وضع تصنيف للسجلات على أساس تصنيف مواقعها المباشرة ، قد لا يمثّل سوى فوائد قليلة . دون ابتسار لوجود سماتٍ تحديدية غير لسانية ، بالنسبة إلى سجلات الخطاب ، يبقى من الممكن أن نتصوّرها من زاوية علاقات تبعيتها مع لون أو عدّة ألوان تؤلّف اللغة المسمّاة مشتركة . ويمكن لسجلٍ أن يكون تابعاً للون العاميّ ، بقدر ما يمكنه أن يضع في لعبة المشاركة عدداً من المميّزات المنتمية إلى هذا اللون ، أكبر من عدد المميّزات المنتمية إلى أي لون آخر من اللغة المشتركة . ويمكن للسجلات التابعة للهجة إقليمية أن تدخل في لعبة المشاركة عدداً من مميّزات هذا اللون أكبر من عدد المميّزات المنتسبة إلى اللون المطبّع ، المتداول ، الخ ، وقد تتبع للون المتداول السجلات التي يمكن للمتكلّم بها أن يتجنّب استعمال المميّزات الأكثر وضوحاً في لهجته الإقليمية في اللون الشعبي في اللون المطبّع والمقعّد ، ولكن يمكنه أيضاً أن يتجنّب استعمال مميّزات اللون التقني أو العلمي الذي يمكنه أن يمارسه في مجال آخر ، الخ ، يستطيع المتكلّمون أن يختاروا سجلاً تابعاً للون

المتداول ، عندما لا يعرفون كل معطيات الوضع المباشر أو عندما يريدون اجتناب تعريفه كما هو أو كما يناسبهم أن يكون . وإن المتكلم إذ يختار سجلاً تابعاً للون المتداول ، يترك للمستمع ، بكيفية ما ، مبادرة تقديم الوضع المباشر ومبادرة تحديده كما سيناسبه عندما سيغدو متكلّماً بدوره. كما يمكن للمتكلم أن يكون مهتماً بعدم لفت انتباه المستمع إلى أصله الشخصي ، الاجتماعيّ أو الجغرافيّ . إن قولاً مثل (Mon père i fait flic) قد يذكّر المستمع ، حكماً وضرورة ، بأصل المتكلم الاجتماعي ، سواء من حيث معنى القول أم من حيث شكله . إن قولاً مثل (Qu'est - ce que je mets pour dîner?) مع قيمة (Qu'est - ce que je prépare pour déjeuner?) ، (المقتطف من مدوّنة جرى جمعها في المنطقة البيتروازيّة) قد يحمل مخاطر عدم الإشارة إلى أصل المتكلّم الجغرافيّ ، عندئذ يمكن للمتكلم أن يختار سجلاً تابعاً للون المتداول . وأنه يفعل ذلك حتى لا يستوقف انتباه المستمع ، وذلك بإبعاده عمّا قيل ، لصالح الطريقة التي قيل فيها ؛ ويكون الهدف الأول لهذا الاختيار هو أن يوفر بشكل أيسر الإبلاغ على مستوى التداخل الجماعيّ . هذه بلا شك هي الوظيفة الاجتماعيّة التي تحدّد على أفضل نحو لوناً تداولياً وما يتبعه من سجلّات . وقد يكونُ اللون المتداول وسجلّاته ، قبل كل شيء ، هذا الواقع اللغوي الذي تؤول إليه المجهودات التي يبذلها المتكلّمون ، بلا كلل ، لكي يردّوا أفضل ردٍ على مستلزمات الإبلاغ بين الجماعات ، فيصفّوا بقدر الإمكان وفي مجرى المنشط اللغوي ذاته ، المميزات التي تصنع من جهة ثانية اللون المُمارس أو الألوان الممارسة.

III/٣١ ـ السجلات المركّبة

إلى جانب السجّلات التي يمكن تسميتها بسيطة بقدر ما تتبع

بشكل خاص جداً للون لغوي ، لابدّ من تصوّر وجود سجلّات مركبة حيث يظهر ، على الرغم من الهيمنة المسبقة لمميّزات تنتمي إلى لون A ، عددٌ لا يمكن إنكاره من مميزات صادرة عن لون B أو عن لون C، أو عن اللونين معاً . كذلك ، لابدّ من التصوُّر ، في سجل واحد ، إمكان توازن مجمل مميّزات A ومجمل مميّزات B او C الخ.، دون أن يكون هناك، حقاً ، هيمنة مسبقة ، لهذا المجمل أو لذاك . كم يلزم من المميّزات من لون B لكي يغدو السجل البسيط أولاً ، والتابع للون A ، سجلاً مركباً ؟ عندما يمتلك اللون B مميزات صوتيّة قواعديّة ومعجمية في وقت واحد، ما هي المميزات التي ستكون الأفعلَ لتمرير سجل تابع لـ A ، الى سجل مركب B - A ؟ على هذا النحو جرى التساؤل : ما هي مميّزات اللون BEV[٩] التي ينبغي لمتكلّم اميركيّ أسود ، إفتراضها من هذا اللون لكي يستطيع خطابُه ، الدائر في لون آخر من ألوان الانكليزية الاميركيّة ، ان يجد سجلّه (معجمه) المتكيّف مع الأوضاع المباشرة التي يخلقها دخوله مجدّداً في الجماعة العائلية / جماعة الحيّ ، أو جماعة التسليات ، عندما تكون هذه الجماعات قد جرى هجرها منذ أمدٍ بعيد .

وكما يوجد في اللغات القومية المعاصرة تشكيلة كاملة من الاشكال (الألوان) المتباينة ، القائمة تدريجياً والمنصهرة في بعضها البعض (Martinet, langue et fonction, p. 139 - 140) ، يوجد في خطاب معيّن ، تشكيلة كاملة من السجلات المختلفة . ويمكن للسجلات التي لا تشكّل وحدات متآلفة ولا متفاصلة ، ان تنتقل

---

(٩) Black English Vernacular (اللهجة المحلية الانكليزية السّوداء) : لتسويغ هذه التسمية ، ولأجل مدخل وجيز إلى الوقائع اللغوية التي تشتمل عليها ، يمكن مراجعة : Peter TRUDGILL, Sociolinguistics, Penguin Books, 1974, P.65 et s.

تدريجياً من السجل البسيط إلى السجل المركب ، وبالعكس . إن وجود **تواصل خطابي** (Continuum de discours : مصطلح وضعه دافيد دكمب لوضع جامايكا ، انظر لاحقاً IV/ ٢٩) يقوم إنطلاقاً من شتى ألوان لغةٍ واحدةٍ ، لا يعود بعدئذٍ فرضيّةً ينبغي استبعادها بلا فحص وتمحيص .

III/ ٣٢ ـ الوظائف الثانوية للغة

في نظر رومان جاكوبسون (Essais, p. 207- 241) ، العواملُ التي لا يمكن التنازل عنها في كل إبلاغ شفهي هي : **المُرْسَلُ إليه** ، المرتبط بالوظيفة الصوتية التبادلية (Fonction conative) ؛ **السّياق** ، المرتبط بالوظيفة المرجعيّة ؛ **الرسالة** ، المرتبطة بالوظيفة الشعريّة ؛ **الإتصال** المرتبط بالوظيفة (Phatique) ، وعامل **الراموز** (Code) المرتبط بوظيفة اللغة التقعيدية (ما فوق اللسانية) . ويكون المتكلّم أو المرسِل مرتبطاً ، من جهته ، بالوظيفة التعبيريّة . وعندما يكون الخطابُ مُركّزاً على المرسِل ويرمي إلى التعبير المباشر عن موقف الفاعل تجاه ما يتكلّم عنه ، عندئذ تعملُ الوظيفةُ الثانوية للغة ، ألا وهي الوظيفة التعبيريّة . كذلك ، فإن هدف الرسالة كرسالة أي التشديد على الرسالة لحسابها الخاص بها ، انما يُظهر الوظيفة الشعرية للغة ، الخ .

غالباً ما جرى التعليقُ على فرضيّة جاكوبسون ، ويبقى تعليق **هيمز** (Speaking, p. 99- 138) واحداً من أهم التعليقات ، لأنّه يندرج بكيفية انتقاديّة منظورات جاكوبسون ذاته . هذا التعليق يناقشُ أولاً عدد ونوعية العوامل والوظائف المميّزة في فرضيّات جاكوبسون . إن وظيفةً قابلة للتحدُّد في متحدٍّ ما ، يمكن غيابها في متّحد آخر ، وحتى وإن ظهرت بعض الوظائف كأنها ملحوظة عالمياً ، فمن الأفضل أيضاً

البحث عن تحديد ما هي الوظائف الخاصّة بكل حالة معيّنـة . لقد سبق لجاكوبسون أنْ كان متحفظاً في التشديد على أنَّ تنوّع الرسائل لا يكمن في احتكار هذه الـوظيفة أو تلـك ، بل يكمن في الفـوارق التراتبيّة بين هذه الوظائف في كل رسـالة ، عنـدها ، تكـون بنية الرسالة تابعة قبل كل شيء للوظيفة السائدة من ذي قبل . اما هيمز فيعتبر من جانبه ان الميزة المعقّدة لبعض الرسـائل قـد لا تكون الهيمنة المسبقة لواحدة من الوظائف الثانوية للغة ، بل تكون بالأولى التوازن التناغمي او التغالبي بين عدد من هذه الوظـائف . أخيراً يؤكـد هيمز على أنَّ الـوضـع المبـاشـر ، المُهمَـل في فـرضيـة جاكوبسون ، هو عامل من المرتبة الأولى ، وأنّـه كامنٌ وراء معظم العوامل الأخرى . يقول : من الارتجال إبراز وتمييز عدد صغير من العوامل لإقامة الوظائف الثانوية للغة وتأسيسها ، دون اعطاء مكانة لمعطيات الوضع المباشر الأخرى ، أو للوضع المباشر ذاته بوصفه معطىً كلياً .

في الحقيقة ، من حقنا التساؤل عمّا إذا كان من الضروري ، لتبرير تنوّع الرسائل ، إصدار فرضية وجود ستة عوامـل لا يمكن التنازل عنها في الإبلاغ الشفهي ، وست وظائف ثانوية للغة . أليس تنوّع الرسائل هذا يمكن تفسيرُه وبشكـل كافٍ ، بضـرورة تكييف الخطاب مع كل أو بعض وضعه المباشر ؟ واذا اخذنا بثانية هـذه الفرضيّات ، فإننا سنأخذ أيضـاً بملاحظتين لهيمـز (Speaking, p. 120) . الأولى هي ان وجود عدد صغير جداً من السّمات اللغويـة يكفي لكي يُعزى خطابٌ إلى سجلٍ ما بدلاً من عزوه إلى آخر ، او إلى لونٍ ما بدلاً من لون آخر .

وملاحظة هيمز المهمّة الثانية (Ibid., p. 112) هي أنَّ عامل اللغة هو أيضاً عامل متغاير في بعض المتعَدات . وهذا معطى لا تتناوله فرضيّات جاكوبسون .

٣٣/III ـ السجلات والتباين بين اللغات

وهكـذا يمكن أن يتمّ تكيّف الخطاب مـع معطيات الـوضـع المباشر ، باستعمال مميّزات تنتمي الى ألوان مختلفة في منظومة واحدة ، وكذلك بالانتقال من منظومة لغويّـة الى منظومـة أخرى . بالنسبة إلى بعض الناطقين بالعربية ، سيؤدي الانتقال من التعليق على حـدث عائلي الى التعليق على حـدث من الحيـاة المهنيّة أو السياسية مثلاً ، إلى إبدال لهجة عربية اقليمية من الإنكليـزية أو الفرنسيّة ، وإن إبدال الاسبانيـة من الانكليزيـة ، لدى المتكلّمين المنتمين إلى المتحدّ البورتوريكي النيويوركي يمكنه أن يكون مرتبطاً بتغيّر في معطياتِ المتكلّمين النفسية ، ومثاله أنَّ الانتقال من التوافق إلى التنازع بين المتكلّمين قد يكون كافياً لذلك (Fishman, Sociolin-guistique, p.55) . وعندها ، سيتعيّن على تعريف صحيح للخطاب أنْ يأخذ في الاعتبار ليس التباين ضمن اللغة وحسب ، بل أيضاً الإفادة الممكنة من التباين بين اللغات في المتحدات المتعددة اللغات.

٣٤/III ـ إعدادُ الرسالةِ والمقوّماتُ الموقفيّةُ

عندما يوضع الخطاب بكيفية يكون التشديد فيها على الرسالة لصالح الخطاب بالذات وعندما يكون الخطاب مستهدفاً من حيث هو خطاب وتتغلب الوظيفة الشعرية للغة ، حسب جاكوبسون ، على كل ما عداها ، لا يكون من المستحيل اعتبار ذلك بمثابة تكييف للمنشط اللغوي مع وضعه المباشر . واذا كان الحال كذلك ، فماذا ستكون مقـوّمات هـذا الموقف التي سيكيّف المتكلّم خطـابه معهـا بشكل خاص ؟ إن الباحثين الذين أثاروا مسألة وضع الرسالة كرسالة إنما يعطون الأوليّة ، عمـوماً ، للمكـوّنات النفسيـة الممكن عزوهـا الى المُرْسِل ذاته . تأتي في المقام الأول مفاهيمُ الاختيـار ، الإرادة ،

النيّة لدى المرسل ، وهكذا . يعتبر كونراد بيرو (Conrad Bureau, Stylistique, p.109) أنّ وضع الرسالة كرسالة هو « عمل طوعي على اللغة وباللغة » . وبقدر ما يكـون المتكلم هو مُفعِّلُ المنظومـة ، سيكون الشاعر أو الكاتب ، كلاهما ، اللذين يبحثـان عن تفعيل اللغـة في أقصى حدودها ؛ وبنظرهما يكون هذا التفعيل الأقصى هو المبـرّر الأول لطريقة استعمالهما اللغة (ibid., p.20) .

لقد أمكن في بعض الأحيان الزّعمُ بخفض مفهوم الأسلـوب إلى مفهوم الاختيار ، واعتبارهما متماثلين . غير انّ بعض الباحثين يرون أنّ من الأصوب عدم إدخال مفهوم الاختيار إلّا بوصفه شرطاً للأسلوب . وعليه ، فإن لويس بريييتو يعتبر انّ الأسلوبَ هو الكيفية التي تتمّ بها عمليّة ما بالفعل ، وذلك على قدر ما تكون هذه الكيفية ليست هي الوحيدة الممكنة ، وانها كانت بالتالي موضـوع اختيار الفاعل (Prieto, Langue et Style, p.5) . وفي إطار ما يتعلّق بالنحو في خلال وضع الأسلوب، يعتبر بيرو انّ كل جملـة هي نتيجة عمليـة إجرائيّة أجبرت الكاتب على أن يختار ، ليس جملةً بين عـدّة جمل واقعية (اللغة لا تقدّم سوى إمكانات نظرية للجُمَـل) ، بل بعض قواعد بناء بدلاً من قواعد أخرى ، لكي يتوصل إلى انتاج جُمَـل واقعية مميزة بهذا الفائض بالنسبة الى اللغة التي هي الأسلوب . ان وجود القواعد واستعمالها يرجعان إلى اللغة ، لكنّ اختيار القواعد وطرق استعمالها يرجعان إلى الأسلوب. من بين الإمكانات النظرية للجمل التي تقدّمها الفرنسيّةُ وعدد معيّن من لغات أخرى (مُسند إليه + جملة تابعة ؛ فاعل + مسند إليه ؛ فـاعل + جملـة تابعـة + مسند إليه + جملة تابعة أوليّة + جملة تابعة غير أوليّـة ، الخ.) ، سيكون الاختيارُ الواقع على هذه الامكانية أو تلك ، هو الذي سيتعلّق عندئذٍ بالأسلوب وببعده النحويّ .

(Bureau, Stylistique, p.21).

III/٣٥ـ الـرواميـز الـعليـا
(المتضـايفـات : Surcodes)

إن الاستعمال الفعليّ لمنظومة اللغة لا يدير سـوى جزء من الرسالة ، وان المتكلّم يمكنه أنْ يسمح لنفسه بـاستعمال تبـاينات البنى على المستوى الصّوتي او المعناتي للوحدات الدلاليّة ، أو في راتوب هذه الوحدات وتراتبها في المنطوق . ويمكنه أن يمارس حرية اختيار معيّنة لكي يعطي وجوداً حقيقياً لاحتمالات المنظومة (Bureau, Stylistique, p.19) . لقد سبق لبعض احتمالات المنظـومة هـذه أن استفادت منها التقاليد الأدبيّة لتأسيس سلسلة منظومات تنضاف إلى الإكراه الذي تمثله المنظومـة اللغويـة ذاتها . إن الإكـراهاتُ القياسيّة أو الإكراهات التي تحدّد الأنواع الأدبية المختلفة ، الخ .، هي التي يسميها بيرو **الرواميز العليا القبليّة** (Surcodes à priori) . وفي اثناء عملية الترميز الفوقي الاسلوبي ، وخارج الرواميز العليا **القبليّة** ، ستعمل إمكانية الاختيار الممنوحة للمُرْسِل ، بخلق رواميز عليا تمكن قراءتها **لاحقاً** وحسب في الخطاب . ان تنظيم احتمالات المنظومة اللغـوية في إيقـاعات وتمـاثلات او تعـارضات نحـويّة ، معناتيّة ، الخ. سيفضي إلى منظومات حرّة ومكـوّنة ظـرفياً ، والى تجديدات وابتكارات متساوقة ومتعلّقة بالفرد المُرْسِل وحده : إنها **الرواميز العليا البعْديّـة** . وبهذه الـرواميز العليـا يغدو التـرميز الأسلوبي الفوقيّ استدماجاً للفرديّ ، لفـرادة المُرْسِـل ، في عمل الانبناء اللغويّ . إن الاسلوب ، أكان هدفه جمالياً أم غير جماليّ ، هـو اختلاف في استعمـال الرامـوز المقابـل لاختلاف في اكتنـاه الواقع ، والمطابق لرؤية الوجود رؤيةً مخالفة (Bureau, Stylistique, p.30- 31) . والحصيلة هي ان لا شيء يمكنه أن يتعارض مع اعتبار الترميز الأسلوبي الفوقي بوصفه مسجلاً للخطاب وتكيّفاً مع وضع

مباشر قد يكون أحد مكوّناته المميِّزة هو المرسِل ذاته في علاقاته مع الراموز ومع المرجِع . المرسل بوصفه فرداً يحمل ، بكيفيةٍ ما ، نظرةً فريدة الى بعض الوقائع الاختباريّة (Ibid., p.17) . ومما لا شك فيه أنَّ الترميز الأسلوبي الفوقي ، يُظهِر بشكلٍ افضل من كل سجل آخر للخطاب ، أنَّ التباينات الممكنة لدى مستعملٍ ما للمنظومة اللغوية ، ليست ممكنة بالضرورة لدى مستعمل آخر ، وانها تستطيع أيضاً ان تختلف عن تباينات خاصة بالجماعة كجماعة.

III/٣٦ـ الترميز الأسلوبي الفوقي والتباين اللغويّ

إذا كان الترميز الأسلوبي الفوقي يظهر إرادة المبدِع في جعل اختلاف خطابي يطابق رؤية للعالم مختلفة ، لا بد من التوّقع انّ بإمكان هذا الترميز الفوقي جعل كل الالوان التي تصنع اللغة المشتركة ، الواناً مساهمة ومشتركة . ومن الواضح تماماً ان الترميز الفوقي لن يستطيع إهمال الاحتياطيّ من الاساليب اللغوية الذي يمثّله اللون المُطبَّع والاحتمالات التي تظهرها المنظومة من خلاله وفيه . إن العلاقات المعقودة منذ أمدٍ طويل بين الترميز الأسلوبي الفوقيّ واللون المُطبَّع والمعيار الفوقي ، تميّز إنتاجاً فائضاً جداً . ففي كثير من المتحدّات اللغوية ، سارعت الجماعات الاجتماعية السائدة إلى الاستيلاء على هذا الانتاج واستدماجه في الثقافة الرسمية . وفي نطاق الميدان الفرنسيّ ، مثلاً ، كان لانتاج سان ـ جون بوس ، قبلْيّاً على الاقل ، حظ أوفر لكي يندمج في الثقافة الرسمية من انتاج غاستون كوتي او ارستيد بريان.

غير أنّ العلاقات المميِّزة اجتماعياً بين ترميز اسلوبي فوقي ولون مُطبَّع (مُقَعد) ، لا يجوز لها ان تُنسينا ان الترميز الاسلوبي الفوقي لم يعد مرتبطاً باللون المطبَّع وحده ، اكثر مما هو مرتبط بأي

لون آخر من اللغة المشتركة . من المُسلَّم به ، وحتى من الشائع ، ان اللون المطبَّع واللون المتداول ولهجة إقليمية أو عدة لهجات إقليمية ، تسهم جميعها وتشترك ، لغايات أسلوبية ، في خطاب واحد . وهكذا ، وعلى الرّغم من التراث الثقافي الاجتماعي المعارض ، أخذ التردد يتضاءل اليوم ، شيئاً فشيئاً ، في العالم العربي إزاء إشراك اللون المقّعد والالوان غير المقّعدة ، في أهداف الترميز الأسلوبي الفوقي .

في الهدف ذاته ، يمكنُ لمميّزات اللون العاميّ من الفرنسية ان تتعايش مع مميّزات اللون المُطبّع أو المتداول : فميزتها التخريبية ، ومزاياها الرمزية - اللعبيّة ، واستعمالها لاحتمالات المنظومة تقرّب العامية من الصياغة الأسلوبية ويمكنها أنْ تجعل منها ذروة اللعبة اللغوية (Denise François, Les Argots, p.620- 646) . وعندما لا يوجد لون مُطبَّع ، يمكن للترميز الأسلوبي الفوقي أن يفيد من التلون ما بين العاميّات وحده ، أي من مجموع الألوان غير المطبَّعة .

هكذا يبدو تماماً حالُ الخطاب الذي يحلّله جامس ج. فوكس (FOX, Rotinese wiew of language, p.65- 88) . ويتعلّق الأمر بنصوص مجموعة من روتي (Roti) ، وهي جزيرة في الارخبيل الاندونيسي . إنها نصوص طقسية تُقال ، تُرتّل أو تُغنّى في مناسبات التفاعل الاجتماعي الشكلي ؛ تسمّى (Binis) وهي تقابل **رواميز فوقية قبليّة** ، متشدّدة جداً ، فتركيبها قائم على توازي المقاطع الطويلة نسبياً ؛ والمعجمية الضرورية لهذا التوازي/ العدد الأكبر من الكلمات المترادفة/ توّفرها مختلفُ عاميّات روتي . والمستمعون واعون لواقع أنَّ في أزواج الكلمات المترادفة ، تأتي احدى المعيجمات من زمرة العاميّات الغربيّة ، وتأتي المعيجمة الأخرى من زمرة العاميّات الشرقيّة . يضيف فوكس ان الشعور الناتج لدى

المستمعين هو شعور بالغرابة . وإن المبدع (هو بلا شك جماعي اكثر مما هو فردي في حالة هذه النصوص بالتحديد) اذ يستفيد على هذا النحو من التباين بين العاميّات ، إنما يبدو حينئذٍ كأنّه بلغ غاية الترميز الاسلوبي الفوقي وأنّه قام على هذا النحو بواسطة فروقات في استعمال الراموز ، بابلاغ فرقٍ ما في اكتناه الواقع . ويضيف المؤلّف ان الاستثمار المنهجي للتباين العاميّ لغايات اسلوبية ليس خاصاً بالتراث الروتي وحده ، وانه ملحوظ في أماكن أخرى ، في الإبداعات الطقسية للبورنيو (Bornéo) ، في بعض متحدات المايا ، وفي الشعر العبراني في العهد القديم ، الخ.

إن استعمال التباين بين اللغات ، أي الانتقال من منظومة لغوية إلى أخرى ، جرت دراسته كتكييف للخطاب مع المرجع ، مع المرسل اليه ، مع المكان او لحظة الخطاب . ولكنّه دُرِسَ على نحو اقل من حيث هو مساهمة ممكنة في الترميز الاسلوبي الفوقي ، ومن زاوية الإمكانات التي يقدمها للمرسل لكي يبلغَ فرقاً في اكتناه الواقع ، باستعمال شخصي لشتى الرواميز التي بحوزته . لماذا لا تكون اللحظة أو وتيرة الانتقالات من لغةٍ الى أخرى في خطاب متكلم متعدّد اللغات ، قابلة للاستعمال لغايات الترميز الاسلوبي الفوقيّ ؟ وكما كان صعباً تحديد السجل (المعجم) دون الإحاطة في وقت واحد بالتباين ضمن اللغات وبين اللغات ، سيكون بلا شك هذا العمل جردة ناقصة لموارد الترميز الاسلوبي الفوقي ، بقدر ما يكون تناسياً للموارد التي يقدمها التباين بين اللغات في المتحدات المتعدّدة اللغات .

الفصل الرابع

المواقف
اللغوية المتعدّدة

التعدّديةُ اللغوية والمجتمعاتُ « البسيطة »

IV / ١ ـ الثنائية اللغوية ، التعدّدية اللغوية ، الاحتكاكات اللغوية

ليس التباين ضمن اللغة هو الوحيد القادر على طبعْ النشاط الخطابي لمتّحدٍ ما . فالتباين بين اللغات ، ذلك الذي يُلحظ بين المنظومات ذاتها ، يمكنه أيضاً أن يطبع هذا النشاط . إن الثنائية اللغوية أو التعددية اللغوية ، أي أن استعمال منظومتين أو أكثر ، من جانب المتكلّمين في متحد واحد[1] ، لا يمكنه إلّا أنْ يبدّل معطيات التباين ضمن اللغات ، الخاص بكل منظومة من المنظومات المعنية ، لكنه لا يتعارض مع وجود هذا التباين ذاته .

إن التعريفات وتوجيهات البحث التي يقترحها أوريل فاينريخ (Uriel Weinreich, **Contact**) ، بالنسبة لاحتكاك اللغات والمواقف

---

(١) بما أن الثنائية اللغوية ليست سوى حالة قصوى من التعددية اللغوية ، فإن هذا المصطلح الأخير ، الأعمّ ، سيستعمل هنا ، إلّا إذا كان من الضروري أن نوضح أن المقصود هو استعمال لغتين فقط .

اللسانيّة الاجتماعية المتعلّقة بها ، لا تزال على الرغم من قدمها ذات سلطـان مرجعي دائم . يُقـال إن لغتين أو أكثر همـا على اتصـال واحتكاك ، اذا كانتا مستعملتين استعمالاً تعاقبياً من قبل الأشـخاص أنفسهم . والأفراد الذين يستعملون هذه اللغات هم ، عندئذٍ ، مجال الاحتكاك . وامثلة الانحرافات بالنسبة الى معيار كل لغة ، التي تنتج في خطاب الناطقين بعدّة لغات ، كنتيجة لاعتيادهم على غير لغة ، اي كنتيجة لاحتكاك اللغات ، ستجري الإشارة اليها كوقائع تبادلية . ويوضـح فاينريخ أنّ المسألـة ذات الفائـدة العظمى في التداخـل اللغوي هي تفاعل العوامل البنيوية واللابنيوية التي تحرّك التبادل أو تحول دونه . ويضيف : كذلكَ ليس من الممكن الاحاطة تماماً بوقائع تبادليّة ، بهذه الوقائع الخطابية وتأثيرها على معيار كل من اللغات المعرّضة لـلاحتكاك ، إلّا اذا كـان اللسانيّ قـد أخذ في اعتبـاره العـوامل غيـر اللغويـة . إن هذه العـوامل النفسيـة والاجتماعيـة الثقافيّة ، تشكّل الوضـع العام والأوضاع المباشرة لاحتكاك اللغات واتصالها . وهذا يعني أنّ المواقف اللغوية المتعدّدة ستكون ، حسب كل احتمال ، بين أكثر المواضع تركيباً وتعقيداً ، التي سيكون على اللسانيّ واللسانيّ الاجتماعي أنْ يفحصاها .

IV/٢ ـ اتصال اللغات والمجتمعات « البسيطة »

إن تجمّعاً بشرياً ، قليلاً عددياً ، معزولاً نسبياً ، وعديم التمايز اجتماعياً ، يمكنه بكل وضوح أن لا يستعمل سوى منظومة لغويـة واحدة ، لكن كثافةً سكانية مرتفعة جداً وعدداً كبيراً من المتكلمين بلسان واحد ، ليسا في الظاهر شروطاً أوليّة لوجود متّحدات ذات خطاب متعدّد اللغات (Jackson, Colombian Vaupès p.50-64) ، ذلك ان المجتمعات المسمّاة بسيطة يمكنها أيضاً أن تقدّم اوضاعاً مكثّفة من التعدديّة اللغـوية . وان واحـداً من اهم الأمثلة التي وصفهـا

وشرحها علماء الإناسة اللغوية ، يمكنه حقاً ان يكون مثال مجتمع هنود فوبيس (Vaupès) ، (Sorensen, Amazon, p.78-93) .

٣/IV ـ مثال فوبيس : موقف عام

في وسط بلاد الامازون الشمالية الغربية ، ما بين حدود كولومبيا والبرازيل المشتركة ، هناك مدار من مدارات التعدّد اللغوي يتطابق تقريباً مع وحدة جغرافية ، وحدة حوض نهر فوبيس وروافده ـ يصب نهر فوبيس في الريو نجرو ، وهو من روافد الأمازون (Sorensen, Amazon, p.78) . من المناسب ان نشير إلى ان هذا التعدّد اللغوي البلدي يبدو أنّه استثناء ، على الأقل بالنسبة إلى البلاد الكولومبية . فالاغلبية العظمى من القبائل الكولومبيّة هي بكليتها ذات لسان واحد ، باستثناء بعض الافراد الذين يعلمون من الاسبانية ما يكفيهم للخدمة كمترجمين لدى السلطات أو الزائرين . وكثيرة أيضاً هي الجمعاتُ المعزولة التي لا تملك اية وسيلة إتصال لغوي خارج متحدّها (Condmont, Colombie, p.1197) .

يعطي الكتّاب الاميركيّون الشماليّون لمنطقة فوبيس مساحةً تساوي مساحة إنجلترا الجديدة ،ويحدّدن سكانها الهنود بوصفهم جماعة ثقافيّة ذات إيلاف او تآلف عظيم جداً . إن هنود فوبيس هم عشرة آلاف تقريباً . أكثر من نصفهم بقليل يعيش في الأراضي الكولومبيّة ، لكن مفهوم الدولة / الامة هو مفهوم بلا وزن ، بالنسبة إلى المجتمع الهنودي وثقافته (Sorensen, Amazon, p.81) . وهذا الامر يُرى على نحو افضل عندما يُعلم ، مثلاً ، ان التشريع الكولومبي لا يمنح صفة مواطن لاي هندي إلاّ إذا كان يتكلّم الإسبانية ويجيد كتابة إسمه (Condmont, Colombie, p.1198) . وتبقى نسبة السكان ضعيفة : ٠,٢ نسمة/كلم² . والسكنى مبعثرة ، ذاك ان الهنود يقيمون منازلهم فوق أراضٍ متصلة وغير محدودة على

طول الانهر ، بالقرب من الانهر السريعة ، هناك حيث تكون الظروف مؤاتية اكثر لصيد الأسماك الذي يظلّ بالنسبة إليهم واحداً من المناشط الاقتصادية الأساسيّة . وبوجه عام ، يعتبر هؤلاء السكان الهنود حضريين ، على الرغم من انهم يتنقلون غالباً وبسهولة انطلاقاً من مختلف المنازل المشتركة .

فالمنزل المشترك ، كوحدة سياسية واحتفالية أساسية ، وكوحدة لمعاودة التوزيع الاقتصادي ، هو مجموعة نُوى عائلية ، ويمكنه ان يحتوي منها على ثمانية . وان منزلاً مشتركاً ينعم ببعض الاستقرار عبر الزّمان ، ينتهي به المطافُ إلى ان يكون شبكة حقيقية لخطوط القرابة الابوية . هناك وحدات أخرى ، أوسع من المنزل المشترك ، تبني المجتمع الهنودي . فالعشيرة هي وحدة تضمُّ عدداً معيّناً من السلالات الأبوية ؛ إنها وحدة سياسية واحتفاليّة ، ذات إسم وموقع ، وتشغل مكانة مركزيّة في المجتمع الشّامل .

IV/٤ ـ القبيلة ، الوحدة الزواجية الخارجية ، الجماعة اللسانيّة

يوجد في فوبيس وحدة اجتماعية تضمّ عدّة عشائر ، لا يتردّد البعض في تسميتها قبيلة ، لكنّ باحثين آخرين يرفضون إطلاق هذه التسمية عليها ، لأنها ليست وحدة إقليمية ولا وحدة حربيّة . كما انّها لا تملك مزايا ثقافيّة خاصّة بها ، وهي تُحدَّد جوهرياً بوحدتها اللسانية . ولا يشير اليها ج. جاكسون إلا بوصفها رُكاماً لغوياً (Langage aggregate) . وفي منطقة فوبيس ، يعدّ جاكسون أكثر من ٢٠ من هذه الوحدات اللسانيّة التي تتطابق ، في البنية الاجتماعية ، تمام التطابق مع وحدات الزواج الخارجي من خط الأب . ويكتب سورنسن من جانبه: للقبيلة الاتساع ذاته الذي للجماعة اللسانية

المؤلفة من أفراد استعملوا اللغة كلغة أساسية أو لغة الأب[٢] في طفولتهم ، داخل النّواة العائلية . فاللغة التي تعطي الهويّة للجماعة اللغوية / القبيلة هي في وقت واحد لغة الأب ، لغة المنزل المشترك واللغة القبليّة لكل فرد من أفرادها . وهي ، تعريفاً ، لغة أخرى ، غير اللغة التي تُحدَّد بها هويَّة جماعة الأم . ويعترف الهنود بمجموع المنازل المشتركة الناطقة بلغة الأب ذاتها ، بأنّها الوحدة الاجتماعيّة القصوى ؛ إنها القبيلة ، وهي أيضاً الوحدة الزواجية الخارجية . وبموجب التعريف الخاص بثقافتهم ، يتضمن معيار التمايز بين القبيلة عدم التفاهم بين اللغات في نظر الهنود . إن هندية أو هندياً لا يمكنهما الزواج من داخل جماعتهما اللغوية / القبيلة دون ارتكاب مُنكر (inceste) . وعلى هذا المنوال قد تتزوج هي أخاها ، وقد يتزوج هو أخته بالتالي .

IV/ ٥ ـ اللغاتُ المتواصلةُ واكتسابُها

بولادته ، ينتسب الهنديُّ الفتى ـ أكان صبياً أم صبيّة ـ إلى جماعة والده اللغوية/ القبيلة ويسكن حكماً في المنزل المشترك حيث يعيش الأب . والأم تنتسب ، من جانبها ، وبشكل دائم إلى جماعة لغوية/ قبيلة/ مختلفة ، وهو انتساب لا يمكن للزواج أن يسقطه . وعندما تخاطب امرأةٌ أولادها ، تستعمل باستمرار لغة المنزل المشترك ، لغة زوجها . لكنّها بوجه عام ليست المرأة الوحيدة من جماعتها اللغويّة في المنزل المشترك ، وغالباً ما يمكنها ايجاد محاوراتٍ لكي تستعمل معهن لغتها الخاصّة بها . إن في ذلك مناسبة

(٢) ثمة تردّد هنا في استعمال تسميات « لغة أبوية » أو « أمومية » نظراً للتضمينات العاطفية التي كانت متعلقة بها ، ولعدم الوضوح الناجم عنها من الوجهة العلمية . وبدا لنا من الأفضل من حيث الدّقة الوصفية استعمال لغة الأب ولغة الأم .

للأولاد لكي يكتسبوا أيضاً لغة أمهم . وفوق ذلك ، إن عادة تزويج صبيٍّ من ابنة خاله ، أي من امرأة من جماعة أمه اللغوية / القبيلة / نفسها ، تشجع بالتالي الأم على تعليم ولدها لغة الجماعة التي تنتسبُ إليها . علاوةً على ذلك ، هناك في المنزل المشترك جماعة أو عدة جماعات نسائية من قبيلة (قبائل) مختلفة في وقت واحد عن قبيلة الأب وعن قبيلة الأم ، وعندئذ ينقادُ الفتيان إلى استماع ، وربما الى اكتساب لغة ثالثة ، لغة رابعة .... حتى في حرم المنزل المشترك الواحد.

تنتسب اللغاتُ المحكيّة في هذا المدار اللغوي التعدّدي ، إلى عائلات مختلفة : عائلة التوكانوان الشرقي ، الأراواك ، وبشكل أساسي عائلة بيرا ـ بارانا . وان عائلة توكانوان هي العائلة الأكثر عدداً وكذلك الأكثر شهرةً . واللغات المختلفة الممثلة لهذه العائلة ، يعتبرها الناطقون بها أنفسهم كأنها لغات غير مفهومة على التوالي . وأن أقرب لغتين في هذه الجماعة هما أبعد من بعضهما ، مما هو حال التباعد بين الدانيمركية المقولية واللون المحكي في جوتلند ، كما يوضح سورنسن (Amazon, p.91) . فالفوارق بين هذه اللغات تتعلق بالمعجميّة وبالقواعد وبمقدار أقل بالصّواتة . أخيراً ، لا بد من الإضافة أنّ هذا المدار اللغوي التعدّدي يتطابق مع ذلك المدار حيث تستعمل التوكانو ـ وهي اللغة الأهمّ في عائلة توكانوان الشرقية ـ كلغة علاقات بين القبائل.

عندما لا يمتلك الفتى الهنديّ التوكانو كلغة الأب أو كلغة الأم ، وعندما لا يكون قد تعلّمها في الاتصال مع إحدى جماعات النساء في منزله المشترك ، فسوف يتعلّمها بالاحتكاك مع الزائرين الكثيرين الذين يترددون على هذا المنزل . ولكنّها نادرةً هي المنازل المشتركة التي لا تضمّ في عداد قاطنيها أي فرد من الجماعة اللغوية / قبيلة توكانو. واليوم لا تزال هذه الجماعة هي الأكبر عددياً.

وقد أثرّت تأثيراً كبيراً في تاريخ المنطقة ، حتى وإن كان الامتياز الذي لا تزال تنعم به في هرم القبائل لم يعد فيه أي شيء عدواني حالياً . إن التوكانو ، كلغة قبليّة ، تملك عدداً وافراً من المتكلّمين بها ، وامتداداً جغرافياً ، كافيين على الأقل ليكون فيها ستة ألوان عاميّة . وهي كلغة علاقات بين القبائل ، يجري اكتسابها في صورة من صور عاميّاتها (Sorensen, Amazon, p. 88) .

٦/IV ـ التصنُّع الوظيفيّ في اللغات المتواصلة

لا يتفاخر الهنود أيّ تفاخر بتعدّدهم اللغوي ، بل يعتبرونه أمراً عادياً . فما من هندي يزعمُ معرفة لغةٍ لا يعرفها في الواقع ، ويبدو تماماً أنّ الهنود لامبالون ، ومتقـزّزون ربما ، من تعـدّدهم اللغوي . إن هذا الموقف اللغوي الذي يعتبره سورنسن قابلاً للعزو إلى هنود فوبيس ، يُستخلص من رصد سلوكهم الشفهي في معظم المواقف المباشرة . وإن الانتقال من لغة إلى أخرى ، أو استدخال ملفوظات تنتمي الى لغة أخرى ، في خطاب منطوق بلغة معيّنة ، لا يتطابق عند المتكلّمين الهنود مع إرادة وضـع معاجم أو سجـلّات مختلفة ، مثلاً . وعندما تدور محادثاتٌ بلغتين أو بأكثر من لغتين ، لا يلتفت أحدٌ إلى ذلك بوجه خاص . ففي هذا النوع من المحادثات ، يبدأ كل واحد الكلام بلغة الأب الخاصة حتى يؤكّد هويّته وانتسابه القَبَلي . ولكن بعد وقتٍ ما ، ينتقل المتكلمون الأكبر سناً ، وبلا تعليق أو تفسير ، إلى لغة المنزل المشترك حيث حصل التبادل اللغوي ، ظاهرياً من باب اللياقة مع الضيوف ، أو ينتقلون الى لغة تـوكانـو بوصفها لغة علاقة ، أو إلى أية لغةٍ أخرى ، بما يتوافق مع المتكلّمين الآخرين من غير الضيوف ، الخ.

بين العشرين لغة الموجودة في فوبيس ، لا ينطق بكلٍ منها

سوى عدد صغير من المتكلّمين . فما من لغة تبدو ذات دور مميّز في التراتب الاجتماعي . زدْ على ذلك ان بمستطاع جميع الهنود أنْ يتواصلوا بواسطة التوكانو . فتآلف المنطقة ثقافياً هو من البيّنات . ذات يوم ، سأل جاكسون مخبريه : لماذا تتكلمون كل هذه اللغات بدلاً من الاعتماد ، حصراً ، على التوكانو ؟ فحصل على الإجابة التالية: إذا تكلّمنا جميعنا التوكانو، فمن اين يمكن أن نحصل على نسائنا ؟ في الحقيقة ، هذه بالذات هي وظيفة الجماعة اللغويّة/ القبيلة ، كوحدة اجتماعيّة متكتمة حول توزيع النساء ، الذي هو الضمانة الحقيقية لاستقرار التعدُّد اللغوي في المنطقة . إن اللغة هي رايةُ الجماعة ، وبالنسبة إلى كل متكلّم ، التصنُّع الوظيفي الأول للغة التي يتكلّمُها ، هو أنْ تكون رمزاً للانتماء إلى الجماعة . إذن ، لكل هندي اسبابٌ ممتازة (إجتماعية ، إنْ لم تكن دائماً لغويّة) لاعلان عدم المعقولية المتبادلة بين لغات المنطقة.

IV/٧ ـ سمات التعدّدية اللغويّة الهنوديّة

في وضع فوبيس الاجتماعي/ اللغوي ، يمكنُ لباحثٍ أن يفضّل ، كموضوع دراسي ، الجماعة الاجتماعية الأصغر حجماً ، مجموعة النّواة العائليّة ، أو زمرة اجتماعية اكثر كثافة ، جماعة المنزل المشترك ، أو ايضاً على مستوى أعلى من التكثُّف ، مدار التعدُّد اللغويّ بكامله . ومهما يكن اختياره ، سيجد نفسه ، بثباتٍ ، امام تعدّد لغوي جماعي ، متميّز باستقرار لا يبدو أنّه قد تضرّر جديّاً في الماضي ، من جرّاء الغزوات الأوروبية والتوسع (النسبي جداً في المنطقة) للبرتغالية والإسبانية بوصفهما من اللغات العلائقيّة الممكنة . وفي الظروف الحاضرة ، لا شيء يدعو للتوقّع بأن هذا

الاستقرار يمكنه انْ يتطوّر نحو سلسلة من تبدّلات اللغات[٣] . أي نحو وضعٍ يمكن ، في مرحلة أولى ، لبعض من اللغـات العشرين المحكية حالياً ، ان يزول لصالح عددٍ أصغر من بينها ، وان يتطور على مدى أطول بلا شك ، نحو وضع من أحادية اللغة / توكانو . وان واحداً من الاستنتاجات الأولى التي يمكن استخلاصها من دراسة الوضع في فوبيس ، هو أنَّ المجتمعات المكثّفة ليست ، في الظاهر ، الضمانات الوحيدة الممكنة لاستقرار تعدُّد لغويّ معيَّن ، فمؤسسات التعدُّد اللغوي ، وأبعادُه ، وكثافة السكان ، وبالتالي العدد المرتفع للمتكلمين الذي يمكن لهذه المؤسسات أن تقدّمه لكلٍ من اللغـات الحاضرة ، الخ .، ليست شروطاً اوليّة لـوجود تعـدّدية لغـوية ولا لاستقرارها.

إن تعدد اللغات عند الهنود في فوبيس يمكنه ، كـأي تعدُّد لغويّ ، انْ يُحلَّل في منظار علمي تعدُّدي ؛ وفضلاً عن وجهات النُّظر اللغوية والاجتماعيّة بحقّ ، يمكن تناوله أيضاً من وجهة اكتسابه ، بقدر ما يمكن تنـاوله من وجهـة أوسع ، هي وجهـة علم النَّفس . وبمقتضى الوجهة المختارة ، قد يكون من الممكن حينئذٍ أن تُعزى الى هذا التعدّد اللغوي سماتٌ ومزايا شتّى.

وإذا أخذنا في الاعتبار واقع انَّ متكلّماً هندياً يكتسب على الأقل ثلاث لغـات منذ طفـولته الأولى ، فمن الممكن ، عقليّـاً ، انْ نصف هذا المتكلّم بأنّه متعدّدُ اللغاتِ باكراً[٤] . ولكن هل سيتوجب

---

(٣) تستعمل المصطلحات الانكليزية ، في هذا المعنى ، Language-Shift ، التي جرت ترجمتها غالباً بكلمة إبدال .

(٤) المصطلح المستعمل هنا هو ذاك الذي اقترحته وناقشته اندريه تابوريه ـ كيلر :
Andrée Tabouret-Keller, Plurilinguisme et interférences, Guide, p. 305-310.

أيضاً اعتباره متعدِّد اللهجات (Diglotte) أو متعدِّد اللغات ، متأخراً ، آخذين في الاعتبار واقع أنّه يكتسب ، بوجهٍ عام ، لغةً رابعة ، خامسة أو سادسة ... اعتباراً من مراهقته أو في وقت لاحق أيضاً من أيام حياته ؟

إذا وقع الاختيار على تحليل نفسيٍّ لحالة هؤلاء المتعدّدي اللغات ، فربما سيلاحظ أنّهم يملكون إجادة متساوية ، تقريباً ، على الأقل ، في كل من اللغات الثلاث أو الأربعة ، المكتسبة أولاً ، الأمر الذي من شأنه أن يسمح عندئذٍ بأن نرى فيهم متعدّدي لغاتٍ متوازنين . ولكنْ ، إذْ نفترض التوصل إلى تدقيق الوسائل وسلّم القياس ، ماذا سيكون الأمرُ عندما يصل إلى تحليل الإجادة اللغوية بالنسبة إلى اللغة المحكيّة الخامسة ، السابعة أو العاشرة ؟

إن مسألة من الطبيعة ذاتها ستطرح نفسها عندما سيتعيّن تقويم المعرفة التي يملكها المتكلم الهندي من كلٍ من لغاته المختلفة . إن معرفةً تعادليّة لكل من لغاته الأولية ، الثلاث أو الأربع ، أي أنّ معرفة تسمح له بإرسال ملفوظات بالسهولة نفسها التي يتلقى بها الملفوظات في هذه اللغات ، يمكنها أن تجعل من تعدّده اللغوي تعدُّداً لغوياً متماثلاً . لكن ماذا يمكنُ أن يكشفَ تقويمُ معرفة اللغات المكتسبة في الأخير ، والتعددية اللغوية الهنودية ألا تغدو بالمقدار نفسه تعددية لغوية لامتماثلة من بعض جوانبها ومعالمها ؟ ألا يتعيّنُ وصف التعددية اللغوية المُعاشة في المنطقة بأنها أسلوبيّته ، وذلك على قدر عدم ارتسام هرميّة نفوذ واضحة جداً بين اللغات المحكيّة ، ولأن هذه اللغات تحظى كلّها تقريباً بالمقام الاجتماعي ذاته في نظر الهنود كافّةً ؟

التعدّدية اللغويّة الهنودية ، مبكّرة/ متوازنة ومتماثلة ، ولهذا السبب بالذات يتعين عليها أنْ تكون تعدّدية ثابتة/ مستقرة ، بَيْدَ أنّ بعض معطيات فوبيس الاجتماعية/ اللسانيّة يمكنها حقاً أن تكون

عوامل قويّة لعدم الثّبات والاستقرار . ومثاله ، أنّ جميع اللغات العائلة في المتحّد ، جرى اكتسابها من طرف النّاطقين بها ، بالرجوع إلى وضع معناتي/ ثقافي واحد . وان كل التوصيفات المخصّصة للمجتمع الهنودي ، ألا تمنحه في الواقع تآلفاً كبيراً جداً من وجهة النظر هذه ؟ إذن ، يفترض بالهنود الاّ يملكوا سوى منظومة مدلولات واحدة في مقابل دالاّتٍ لغاتهم المختلفة ، وعندها قد نكون أمام حالة نموذجيّة من التعددية اللغوية الموسومة بأنها مُركبّة . والحال ، فإن التعدّديات اللغوية المركّبة تمتاز ، بوجهٍ عام جداً ، بنفوذيتها ، بقابليّتها للاختراق أو النفوذ: ففي المسير اللغوي، قد لا يمكن إلاّ بصعوبة ، أو قد يمكن أبداً الفصل بين صوائتة كلٍ من اللغات المتواصلة ، ونحوها وصرفها ومعجميّتها . في هذه الشروط ، تغدو إمكانية التداخلات بين المنظومة الحاضرة ، إمكانيةً كبيرةً جداً من الوجهة النظريّة ، ولا محدودة إذا جاز القول . فاذا كانت شتّى اللغات المتواصلة لا يمكنُ إبقاؤها منفصلة إلاّ بصعوبة ، فإنّ الوضع اللغوي التعدّدي يكون من الداخل ، مُهدّداً في استقراره وحتى وجوده ذاته . والحال ، مهما تكن التعددية اللغويّة الهنوديّة مركّبةً وقابلة للنفوذ ، فما من شيء يسمح للباحثين بأن يقرّروا أنّ هذا الأمر يطول استقرارها في المدى القريب .

IV/٨ ـ مسائل نظريّة :

يبدو في الواقع أن الوصف والدراسة اللسانيين الاجتماعيين ، لوضع مثل وضع فوبيس ، يدعوان إلى إثارة عدد معين من المسائل النظريّة ، ويدعوان أيضاً إلى معاودة التفكّر فيها.

إنطلاقاً من معطيات الوضع هذا ، وإذا لم يكن هذا الامرُ قد سبق الشّروعُ به في أماكن أخرى ، قد يكون من المُلحّ أنْ يُعاد النّظر

في فرضيّةٍ كانت ، بالأمس ، لا تزال سائدة : لغة واحدة ، ثقافة واحدة . ففي هذه الحالة ، يشدّد سورنسن (Amazon, P.91) على أنّ التآلف الثقافي لا يعني تآلفاً لغوياً ، وثقافة المنطقة الهنوديّة ، المشتركة بين الجميع ، هي ثقافة واحدة ومؤتلفة ، في حين أنّ ما يعتبر بالنسبة إلى البعض لغة الأب ، يعتبر بالنسبة الى الآخرين لغة الأم ، ويعتبر بالنسبة إلى آخرين أيضاً لغة مجهولة.

وفوق ذلك ، عندما يعمل بعض الباحثين في حلقاتٍ تهيمنُ عليها النظريّات التحويلية والتوليديّة ، وهم منشغلون بمسائل فوبيس ، إنما يصل الأمرُ بهم أحياناً إلى معاودة النّظر في بعض المقدّمات (Prémisses) الكبرى والوسطى ، الأساسية لهذه النظريّات . فإذا كانت النظرية اللسانية متعلّقة بالمعرفة الضمنيّة التي يملكها فرد مُرْسِل/مُستقبِل نموذجي ، أحدي اللغة في متحد خطابيّ متآلفٍ بذاته ، فماذا سيحلُّ بالفرد ، كما هو الحال في فوبيس ، الذي لا يكون مرسلاً/مستقبلاً نموذجياً ، إلاّ بشرط أنْ يكون متعدّد اللغات ، لا أحديَّ اللغة ؟ إن العلاقة بين القواعد والكفاية اللسانية الفرديّة تطرح هي أيضاً بعض الأسئلة . فإذا افترضنا أن القواعد يتعيّن عليها أنْ تعكس ، بكيفيّةٍ أو بأخرى ، الكفاية اللسانية الفردية ، فإنّ قواعد اللغات المختلفة لمتكلّمٍ من فوبيس لن تكون ملائمة (Jackson, Colombian Vaupès, P. 63) .

٩/IV ـ الفصل الوظيفيّ بين اللغات :

يرى فيشمان (Sociolinguistique, P. 87-88) أنّ اللسانة الاجتماعية قد اكتشفت أن استعمال عدة رواميز منفصلة داخل مجتمع ما ، وإبقاءها مستقرّة ، كانا يتوقّفان على الخدمات التي يقدّمها بعض الرّواميز ، بشكل مختلف عن الوظائف المنسوبة إلى البعض الآخر . وأن المنظومات اللغوية الحاضرة قد تتوفر لها جميع

الفرص والحظوظ لكي تكون في وضع غير تنازعي ، وبالتالي ثابت ومستقرّ ، نظراً لأنّ تصنعاتها الوظيفيّة تختلف عن بعضها . ومن ثمّ لا يكونُ ثمّةَ داعٍ ، في مدّة قصيرة ، لتصوّر إمكان إبدال اللغات وزوال لغة أو عدة لغات منها لصالح لغة (أو عدّة) لغات (أخرى) ، وإمكان التطور في اتجاه وضع لغويّ أحديّ جديد.

حول هذه النقطة أيضاً ، يتطلب واقعُ قوبيس اللساني/الاجتماعي أنْ يُعاد التفكُّر والتمعُّن في التقريرات النظريّة ، إن استقرار هذه التعددية اللغوية واستمرارها غير التنازعي لا يدينان ، في الظاهر ، بشيءٍ كبير لفصل وظيفي بين اللغات الحاضرة ، لأن التصنّع الوظيفي الأول ، بالنسبة إليها كلها ، هو ذلك الذي يجعل منها رمزَ الهويّة الفردية والانتماء إلى الوحدة الاجتماعية/ الزواجية الخارجية . وفي هذا الوضع اللغوي التعدّدي ، ليست الفوارق ، بالمعنى الاجتماعي ولا بالمعنى الجغرافيّ ، موزّعةً توزيعاً متكاملاً . وبالتالي من الصعب الرّد على السؤال ، في إطار تعدد اللغات في قوبيس : مَنْ يتكلّم أية لغة (أو لون) ، مع مَنْ ، أينَ ومتى ، بمقتضى الهدف المنشود ، وبحسب الموضوع المعالَجُ الخ . بالصيغة التالية : إن متكلّماً L يستعمل اللغة X (أو لوناً من ألوانها) في الأوضاع المباشرة (مستمع ، مكان ، لحظة، موضوع مُعالَج...) A وB، واللغة Y في الأوضاع C، D وE؛ الخ.

إن صيغةً مماثلة لا يمكنها واقعياً أن تحيط بالاختيار الذي يجريه المتكلم الهنودي المتعدد اللغات في بداية التبادل اللغوي ، بين المختلف اللغات التي في متناوله . كما أنّها لن تحيط ، وحدها ، **بالانتقالات**(*) من لغةٍ إلى أخرى في مجرى النشاط الخطابيّ . من

(*) تستعمل الانكليزية مفردات : Language-Switch او Code Switching التي تترجم الى الفرنسية أحياناً بمفرده Commutation (إبدال) .

المستحيل التقليل من قيمة واقع أنَّ كل وضع مباشر يرتسم في وضعٍ عام يمكنُ لبعض معطياته أن تلعب ، قبل كل شيء ، على القواعد التي تتحكَّم مثلاً في الاختيار الصحيح للغةٍ ما ، أو في الانتقال الصحيح إلى هذه اللغة ، في هذه الحالة ، ليس الاعتبار الأساسي في قوبيس دائماً هو أن تكون اللغةُ المُختارةُ مفهومةً من الجميع أو على الأقل من جانب العدد الأكبر من المشاركين ، غير أنَّ هذا لا يعني ، أيضاً ، أنَّ الاختيار الأوليّ أو أن الانتقالات من لغةٍ إلى أخرى تكون ، في ذاتها ، حاملةً لمعلوماتٍ اجتماعيّة . ومع ذلك ، فإن المعلومات المنقولة لا يمكن تأويلُها إلاَّ بمقتضى حال لغة الأب عند كلٍ من المشاركين.

لغةٌ واحدة أم لغتان ؟

«يبدو العالم كأنَّه محيط من التجاذبات المتناقضة ، مع ملتقياتٍ تؤدي بعد مسافة قصيرة إلى مفترقات ، ويبدو كأنَّه محيط من مراكز التجاذب الجديدة المتطورة في كل مكان تقريباً والمهدِّدة في كل آن بالإخلال بتوازن المجاميع القائمة » .
A. Martinet (Langue et fonction, P. 128).

IV/ ١٠ ـ المسافةُ بين اللغات :

معروفٌ قليلاً وبشكلٍ سيء تاريخُ اللغات الحاضرة في قوبيس ، وفوق ذلك ، لا يزال عددٌ منها بمنأى عن أي وصفٍ تساوقيّ . كذلك لكي يعالجَ الباحثون المعطيات التي يملكونها عن هذا الوضع اللغوي التعددي ، إنما ينقادون عادةً إلى طرح مسألة اختيار المعايير الواجب استعمالها لتقرير ما إذا كان واقعان أو أكثر من واقعين لغويّين هما لغتان (أو لغات) مختلفة ، أو بالعكس ، ما إذا كان يجب اعتبارها فحسب كأنها ألوانٌ للغةٍ واحدة . اعتباراً من أية فوارق في البنى ، واعتباراً من أي عدد من هذه الفوارق ، توجد

مسافة حقيقيّة بين اللغات ؟ وفي غياب البيّنات البنيويّة ، ما هي العوامل غير اللسانية التي يتوجّب تصريفها مع فوارق البنى لإقامة المسافة بين اللغات ؟ أحديّة لغوية أم تعددية لغوية ، كيف نقرّر ، في بعض الأحوال ، نوعيّة الوضع المدروس ؟ إن فوارق البنى في بعض المنظومات المتواصلة في فوبيس تزيل كل لبْس وغموض ، لكنّ الحال ليس كذلك دائماً . ففي خلال استطلاعه الميداني ، تعيّن على سورنسن أن يستعمل كمعيار للتفريق بين بعض اللغات الماثلة هنالك ، ما أسماه لامعقوليّتها المتبادلة ، نظراً لعدم وجود تفاهم بين المتكلّمين يضمن وجود لغات متباينة ، وليس عدم وجود من لغةٍ واحدة ، وكانت الطريقة المستعملة في سياق الاستطلاع تقوم على تربّص الفرص حيث كان هنديّ يعلنُ أنّه لم يفهم شخصاً ما ، في خلال مناقشة تستعمل فيها عدّة لغات (Sorensen, Amazon, P.81).

بناءً على تصريح أولئك الذين أعلنوا ، بعد سورنسن وبإجماعٍ كافٍ ، اللامعقولية المتبادلة بين العشرين لغة المحكية في فوبيس ، يبدو من المناسب التشديد على أن براهين عدم الفهم هذا ، يُفترض أنْ تكون صعبة الإثبات . فالتعدّد اللغويّ عامٌ في فوبيس ، والهنود الذين لا يتشابك معجمهم الشفهي هم الاستثناء (خاصة إذا أخذنا في الاعتبار وجود التوكانو كلغة علاقات) ، فلا توجد حدود جغرافية ولا حدود من أي نوعٍ كان بين اللغات الحاضرة، وليس بالإمكان توقّع تراكيب اللغات في المعجم الشفهي (إذْ كلها ممكنة نظريّاً) لفردٍ ما ، أو في المعجم الشفهي لعائلة ، أو أيضاً في المعجم الشفهي لمنزل مشترك (Jackson, Colombian Vaupès, P. 55-57) . وفي هذه الشروط والظروف ، لا يفترض أن يكون من المهمات الميسورة ، التقريرُ بعدم وجود تفاهم بين متكلّمي اللغة A ومتكلّمي اللغة B ، أو بين متكلمي اللغة B ومتكلمي اللغة C ، وأيضاً بين متكلّمي اللغة B ومتكلمي اللغة C ، الخ ، ولا التقرير بعدم

وجود معقولية متبادلـة بين اللغات المتـواصلة في ضـويبس . ففي القرار الذي اتخذه الباحثون بهذا الصّدد ، من الممكن ان يُكتشف مُجـدّداً إنعكاسٌ مطـابق كثيراً للمـوقف اللغوي للمتكلّمين الهنـود انفسهم.

في الواقع ، إن عدم الفهم كمعيار لوجود لغات متباينة يعادل تماماً ما يعادله التفاهم المتبادل كمعيار لوجود لغة وحيدة ، واحدة . كتب مارتينه : علينا القول بوجود لغة منذ أن يقوم إتصال وإبلاغ في إطار نطق مزدوج من الطراز الشفهي ، وبأننـا أمام لغـة وحيدة ، واحدة ، طالما انّ الابلاغ متوافر عمليّاً . والمؤسف هو أنّ معيـار التفاهم المتبادل ليس حاسماً دائماً ، إذْ بوجـه عام تـوجد جميـع الدرجات الممكنة بين الفهم المباشر/ الفوري وعدم الفهم المطلق (Martinet, Eléments, P.147) . فوجود تفاهم متبادل لا يعني إذن أننا أمام لغة واحدة ، وحيدة ، فبعد مرور مفاجأة الاحتكـاك الاول بين دانيماركي ونرويجي ، وبعد مرور وقت على ما يسميه هوچن شبه الإبلاغ[٦] ، من الممكن أن يقوم بين المتكلّمين تفاهم مقبول بقدر ما يكون هذا التفاهم كافياً في الأوضاع المباشرة لتلبية حاجات العيش المشترك بين هؤلاء المتكلّمين.

بالعكس ، لا يمكن لعدم التفاهم بين المتكلّمين انْ يكفي وحده لتعيين ما إذا كنا أمام منظومات مختلفة ، ومثال ذلك ، في سلسلة التلوّنات الجغرافية A ، B ، C و D ... من لغة معيّنة X ، يمكن وجود عدم تفاهم ، دون مشكـلات كبرى بين متكلمي A و B ؛ Bو C ؛ C و D ، الخ . وحتى احياناً بين متكلّمي A و C، أو متكلّمي C و E ...، في حين لا يـوجد سـوى عدم التفـاهم بين متكلّمي A و E . وفي

(6) E. Haugen, Semicommunication, the language gap in Scandinavia Sociological Inquiry, Vol. VI, 1966, P. 280-297.

الواقع ، يمكن لعدم التفاهم أنّ يزول إذا قام تفاعل اجتماعي متواصل بين متكلمي A و E . فإذا كان اللونان A و E غير قابلين للفهم المتبادل ، فهل يتعيَّن عليهما دائماً أن يُعتبرا كلونين من اللغة X ذاتها أو كمنظومتين متباينتين ؟

١١/IV ـ المقوّمات البنيويّة

إن الإجابة الوحيدة الصالحة علمياً ، التي يمكنُ للساني أن يردَّ بها على هذه المسألة ، هي وصف تبايني يشدّد نقطةً فنقطةً على الفوارق البنيوية بين A و E . بيدَ أنَّ المسافة بين اللغات تكون ذات تحليل رديء إذا وقفنا عند الفوارق البنيوية وحدها . وفي ما يتعدّى الدراسة التباينيّة للمنظومات ، ستلزم الإحاطة بتفاعل الوقائع البنيوية مع المقوّمات غير اللغوية.

ومن المناسب فحص الفوارق البنيوية التي تسهم في المسافة بين اللغات[٧] ، وتمحيصها من الوجهتين الكميّة والنوعيّة : كم يلزم

---

(٧) نشير هنا إلى معالجة جان سيغي (La dialectométrie, P. 1-21) للوقائع البنيوية ، المتمثّلة في هذا الإطار ، فبعد استخلاص نتائج العمل الذي قام به في كتابه (L'Atlas linguistique de la gascogne) ، وضع (Séguy) سيغي طريقة منهجية تسمح بتقويم المسافة اللغوية الفاصلة بين مواضع الميدان المدروس ، إن هذه الطريقة ، كتطبيق لمسافة هامّينغ (Hamming) ، تكمّم فقط التشابه (Séguy, Ibid., R.2 et 19) دون صياغة أحكام تشخيصية (Ibid, P. 19 et 23) . والمقصود هو معالجة إحصائية للمقوّمات الكميّة ، إلى حدّ تشكّلها النهائي والضروري رياضياً (Ibid, P. 2) سيغي يستخلص إذن ٥ مكوّنات ، ٥ ثوابت كمّية (Paramètres) للمسافة اللغويّة (معجميّة ، صوتية تعاقبيّة ، صواتيّة ، أشكال شفهية ، قواعدية) ، ثم يبني ٥ مشبّكات / مقولبات (Matrices) ، واحدة لكل ثابتة كمّية ، مقيماً العلاقات بين الوقائع اللغوية (وعددها ٤٢٦ في الميدان المدروس) والمواضع الجغرافيّة . وتُحسب نقطةٌ ، كلما حملت الخانات المقابلة لموضوع واحد ، بالنسبة الى الموضعين الجغرافيين ، علامات متباينة . ومجموع هذه النقاط سيشير الى المسافة اللغويّة بين المواضع الجغرافية (Ibid., P.11) .

من الفوارق البنيوية حتى تُعتبر منظومتان كأنهما متباينتان ، وأين يتوجب تحديد موقع هذه الفوارق : في الأصوات ، الأشكال ، النّحو والصّرف ، المعجم؟

يقرّر مارتينه ان الاستعمال المتعاقبي لمنظومتين صواتيتين متباينتين ، من المرجّح انْ يكون المعيار الأقل التباساً لوضع لغوي ثنائي ؛ ويقرّر أيضاً أنّ الثنائيّة اللغوية ، بأوسع معنى للكلمة ، هي استعمال الأشخاص أنفسهم لمنظومتين صواتيتين وقواعديتين متباينتين ، بتباين المتخاطبين الذين نتوّجه اليهم (Martinet, Langue et fonction, p.131- 135) . من الممكن إذن الاستنتاج مما تقدّم انّ الفوارق المتجليّة في مستوى الصُّواتات والمنظومات القواعديّة هي التي تسهم ، على نحو أفعل ، في إقامة المسافة بين اللغات .

IV/١٢ ـ التعدديّة اللغويّة وتقارب المنظومات

تبدو النتائج التي توصّل اليها جون ج. غومبرز وروبرت ويلسون في أثناء وصفهما وضع كوبوار (Kupwar) اللغويّ المتعدد (Convergence, p.151- 167) ، سائرة في هذا الاتجاه ، وبخاصة فيما يتعلّق بالمنظومات القواعديّة . ان كوبوار هي متّحد قروي في إقليم سانغلي ، في ولاية مهاراشترا في الهند . تتواصل ثلاث لغات في هذا المتحد البالغ عدد متكلّميه ٣٠٠٠ . فمنذ ستة قرون تقريباً ، تتعايش الكانَّادا (Kannada) ، لغة درافيديّة ، والماراثي (Marathi) ، لغة هنديّة/ أريّة . أما الأوردو (Urdu) ، وهي أيضاً منظومة هندية/ أريّة ، فقد وصلت مع الهيمنة المونغوليّة ، واستتبّت في المنطقة منذ أكثر من ثلاثة قرون . إذن ، الوضع في كوبوار هو وضع تعدّدية لغوية مستقّرة ، متواصلة مع اللغات غير المتقاربة كلها توالديّاً . إن هذه التعدّدية اللغويّة هي أيضاً تعددية لغويّة اجتماعيّة ، حيث جميع اللغات الماثلة أمامنا ، ليس لها المكانة ذاتها بالنسبة الى جميع

افراد المتحدّ ، لكنها تتراكبُ في المقابل وفقاً للفئات الاجتماعيّة . ويمكننا أنْ نعتبر أنَّ استقرار هذا الوضع اللغوي المتعدّد يعودُ إلى فصل وظيفي واضح بين اللغات : فكل متكلّم يكتسب (ومن ثَمَّ يمارس) لغةً واحدةً في النَّواة العائليّة ، في مجال الحياة الخاصّة . ثم ، يغدو متعدّد اللغات منذ أن يشارك في التفاعل الاجتماعي خارج الأسرة ، في المجال العام . فبقدر ما سيكون الفصل بين الإثنيّات (الاعراق القومية) هو القاعدة بالنسبة إلى الحياة العائلية في كوبوار ، وبقدر ما ستظل اللغات مرتبطة بهذا الفصل ، لن يكون ثمّة أسبابٌ موجبة لزوال هذه التعددية اللغوية ، إلّا قليلاً (Gumperz et Wilson, Convergence, p.154).

تمثّل التغيرات التي طرأت على اللغات الثلاث المتواصلة ، تكييفاً تدرجيّاً للفوارق القواعديّة ، وتقارباً لغوياً بحيث أنّ اللغات المستعملة في انتقالات متواصلة من لغة إلى اخرى لا يعودُ لها سوى ، بنية سطحية وحيدة ، واحدة (Ibid., p.154- 155) . من الميسور قياسُ هذا التقارب بين الاوردو والكانّادا والماراثي المحكيّة في كوبوار . وبالتالي يوجد بالنسبة إلى كل من هذه اللغات ، لونٌ مقونن ، مكتوب ، ومُستعمل في المجال الدينيّ وفي المجال التعليمي الذي لا يزال بعيداً عن الشمول والعموم ، وفي الواقع تمثّل هذه الألوان المدوَّنة أو المقوننة حالاتٍ لغوية قديمة ، وان مقارنتها مع حالة الالوان المقابلة المحكية اليوم في كوبوار تعطي المقياس الصحيح لنتائج التقارب مع هذه الأخيرة . وربما تكون هذه الألوان المحكيّة قد بلغت ليس فقط وحدة كبيرة في بُناها النحويّة ، بل أيضاً درجةً رفيعةً من إمكانية ترجمتها المتبادلة (Gumperz et Wilson, Convergence, p.155) .

IV/١٣ - التقارب والكُليمات

عندما يبلغ التقاربُ النّحوَ والمعجمية على هذا الوجه ، لا يعود ثمة مجال للاندهاش من كون المسافة بين اللغات تقوم ، في قسم كبير جداً ، على الفوارق بين منظومات الوحدات القواعدية الصّغرى (Monèmes) غيـر أن منظومـات الكليمـات هـذه ليست بمنـأى عن التقارب ، والوضع في كوبوار يبيّنُ تماماً الفرضيّةَ القائلة بعدم وجود حدود وقيود على تداخل هذه المنظومات وتنافذها (Interpénetration).

ويجري هذا التنافذ حتى باقتراض لغة لمادة أخرى (Petrovici, Interpénétration, p. 1- 16) ، وبعبـارة أخـرى بنقـل كليمـات ممكن عزلها، من لغةٍ إلى لغةٍ أخرى. ويعتبر فاينريخ (Contact, p.29-31) أنّ من المناسب في إطار التداخل القواعدي التمييـز بين وحدات قابلة للفصل ووحدات غير قابلة للفصل[٨] ، لكنّه يضيف إذا كان من السهـل إجراء تمييـز مطلق بين النّوعين من الـوحدات في بعض الانماط اللغويّة ، فمن الافضل في انماط أخرى معالجة درجة حرية الكليمات النحويّة بوصفها متغيّراً.

على الرّغم من كون نقل الوحدات القواعـدية غيـر القابلـة للفصل ، غير مألوف إلاّ قليلاً ، فإن غـومبرز و ويلسـون يلحظان وجود إفتراضات كهذه ، ثابتة اليوم بشكل نهـائي ، في منظومـات الاستقبال . وهكذا ، بينما تملك الأوردو المعقّـدة ، لأجل بنـاءات مماثلة لبنـاء الانكليزيـة (فعل + Can) : (جـذر فعلي + Sak) ،

---

(٨) تعتبر قابلة للفصل الواصلات ، حروف الجرّ ، حروف العطف ... في منظومـات كالفرنسية وعدد معين من لغات أخرى ، في حين أن الكيفيات أو الصيغ الفعليـة (ازمنة ، صيغ ، اوجه ...) تعتبر فيها كليمات صرفية غيـر قابلـة للفصل (Wer- neich, **Contact**, P. 29-31) .

وتملك الماراثي المقعَّدة : (جذر فعلي + u + (Sák) ، فإن الأوردو والماراثي وكذلك الكانّادا المحكيّة اليوم ، تستعمل جميعها البناء مع u .

الى جانب اقتراض الكُليمات الصّرفيّة غير القابلة للفصل ، المثبوتة اليوم في منظومات الاستقبال ، هناك عدّة إقتراضات من هذا النوع لا تزال غير مثبوتة في مستوى المنظومات وتظلّ مجرد وقائع خطابيّة . وهكذا ، في ملفوظٍ مثل : Aw bi yahr metad- ya ، تقترض الكانّادا من الأوردو المقطع ya- ، الذي يدلُّ على الماضي . وكذلك الحال ، في : hwa siham-na bulaneko pawae ، تقترض الأوردو من الماراثي الدّال na- الإضافيّ . لكنَّ هذه ما هي إلاّ وقائع خطابيّة ، وحتى وإنْ كانت هذه الاقتراضات لا تختلف نوعيّاً عن تلك المثبوتة سابقاً في منظومات الاستقبال ، فإن المستمعين يعتبرونها بمثابة أغلاط ، وتكون موضوعاً للهزء والسخرية ولا تُكرَّر ابداً من جانب المستمعين بشكل طوعي (Gumperz et Wilson, Convergence p.161- 162) . إذن ، يلعب هنا عمل الوقائع غير اللغوية ، لصالح الحفاظ على المسافة بين اللغات ، وعندما يغدو الضغط الاجتماعي عاملاً يؤخّر التقاربَ بين المنظومات الحاضرة.

IV/ ١٤ ـ الوظيفة الاجتماعيّة للكليمات الصّرفيّة

مع ذلك لا يزال صحيحاً القول إن عدداً محدوداً من الكليمات الصرفيّة ، حتى وإن كان التقارب اللغوي لا يزال يعمل على خفضه ، يمكنه احياناً انْ يكفي لتكوين النّواة التي ينطلق منها المتكلّمون في إدراكهم اللغات كلغاتٍ متباينة . وهذه الكليمات ، فضلاً عن وظائفها اللغوية الخالصة داخل كلٍ من المنظومات القائمة ، ترى نفسها عندئذٍ مفروضاً عليها وظيفةً محض اجتماعيّة ، هي وظيفة تسجيل

الفصل الذي يـريده المتكلمّـون ، بين لغتين أو أكثر . وفي بعض الحالات ، لا يبقى سوى هذه الكليمات لمواجهة تبدُّل اللغات ذاته (Gumperez et Wilson, Convergence, p.162) . وعنـدمـا تستفيـد المعايير الإجتماعية ـ كواجب الحفاظ على هويّة إثنيّة في كوبوار ـ من الوقائع اللغويّة ، يمكنها الإكتفاء بمجموع مخفوض من الفوارق القواعديّة والصوتيّة أيضاً بلا شك ، ويبدو أنّ هذا المجموع سيمكنه أنْ يكون مخفوضاً بقدر ما تكون المستلزماتُ الاجتماعية زجريّة . ولذا لا يمكن الرّد على مسألة : لغة واحدة أم لغتان ؟ بجواب لغوي محض . ويمكن فقط لاعتبار التفاعل بين العوامل البنيوية وغير البنيوية ، أن يقرّر ويحسم هذا الأمر.

١٥/IV ـ العواملُ البنائيّة وغير البنائيّة

حين فحص جاكسون مقوّمات الوضع اللساني/الاجتماعي في منطقة فوبيس ، إنما بيَّنَ هذا التفاعل بين العوامل البنائية وغير اللغـويّة في إقـامة المسـافات بين اللغـات (Jackson, Colombian Vaupès, P. 59-60) وعندما تعيشُ جماعاتٌ تفاعلاً اجتماعياً كثيفاً ، تنزع الفوارق التي تفصلُ بينها ، إلى التقولب والتنمذج . ويصـلُ الأمرُ بالجماعات إلى أن تتشابه وتتماثل لدرجة أنها لا تعود تختلف إلّا ببعض **العلامات** (Diacritique) البالغة الوضوح . ومع انخفاض الجردة الإجماليّة للفوارق الاجتماعيّة/ الثقـافيّة ، لا تكتسبُ هـذه العلاماتُ إلّا مزيداً من الأهميّة ، فتغدو رموزَ هوية يستعملها الأفرادُ لكي يتمرتبوا هم أنفسهم ، ويمرتبوا الآخرين.

وهذه ليست فقط السّمات المسـاهمة في تمييـز الرمـوز من بعضها البعض ، الرموز التي ترتدي عندئذٍ أهمية خاصة ، بل هناك أيضاً البعدُ الذي تجري فيه هذه السّمات . في فوبيس ، هذا البعد

هو ميدانُ اللغة ، والسِّمات الرمزيّة هي المقوّماتُ اللغويّة التي تجعل ، في نظر الهنود ، لغاتِ المنطقة غير قابلة للتعاقل (Inintelligible) أو التفاهم . وأن ما نعلمه عن موقف الهنود اللغويّ يبدو مؤكّداً لهذه النتائج : فالهنود يعتبرون أنّهم بحاجةٍ الى سنتين ، على الأقل ، لكي يتعلموا لغةً جديدة بطريقة مقبولة ، فهم لا يتكلّمون لغةً طالما أنهم لا يجيدونها حقّ الإجادة . وعندما تسنحُ فرصةُ وضعٍ مناسب ، يجرون تجارب للتكلّم بلغة في طور الاكتساب ، ولكنّهم لا يواصلونها إذا لم تكن النتائج مقبولة وكافية في نظرهم ، الخ ، فعندما يتكلّم هنديّ لغتين متقاربتين بشكل وثيق جداً ـ التيوكا Tuyuka واليوروتي Yuruti، مثلاً ـ إنما يبقونهما منفصلتين بكل اعتناء ووعي. وكان سورنسن (Amazon, P.82 et 89) قد استنتج : لقد خطر في بالي أنّ مؤسسة الزواج الخارجي كان يمكنها ممارسةُ ضغطٍ يحضّ المتكلّمين على فصل لغاتٍ شديدة القرابة ، وذلك ، ولو بكيفيّةٍ مصطنعةٍ ؛ غير أنّني لم أتمكّن ، حتى الوقت الحاضر ، من استنتاج ابتكارات لغوية تسير في هذا الاتجاه .

إن الإرادة التي تنزع لدى المتكلّمين الى الإبقاء على مسافاتٍ بين اللغات ، إنما تعود بكل وضوح إلى مجال الوقائع غير اللغويّة . هذه الإرادة تواصل ، في كوبوار ، التلاعب على المقوّمات اللغوية المحض ، بكبحها تقاربُ المنظومات . أما في فوبيس ، فهذه الإرادة ـ وإن كان من غير المثبوت أنها تعمل على تباعد المقوّمات اللغوية ـ هي ذات فعالية كبيرة ، وتسهم على هذا النحو في الاستقرار العام للوضع اللغوي التعددي ذاته . بيد أنّ هذه الإرادة لا يمكنها أن تكون العامل غير البنيوي الوحيد ، القادر على دخول اللعبة ، وغالباً ما تكون هي ذاتها مرتبطة وظيفياً بعدّةِ مقوّمات غير لغويّة أخرى. وعليه ، فإن تقارب المنظومات وحتى تبدّلات اللغات في فوبيس قد يكون من الصعب إجتنابها ، وقد ينهارُ الاستقرارُ في

مواجهة المستجدات الاجتماعية/ الاقتصاديّة القابلة لأنْ تؤدي إلى التفكيك القَبَلي للمجتمع الهنودي . وقد سبق لسورنسن أن لاحظ في أطراف منطقة فوبيس ، ان الكابوكلو (Caboclos)أي الهنود المنخلعين عن قبائلهم والفلاسيِّين ، هم عادةً ذوو لغةٍ واحدة .

التعدّديةُ اللغويّةُ والمجتمعاتُ المركّبة

IV/١٦ ـ الدولةُ واستقرارُ تعدديّةٍ لغوية

لا يرقى أيُّ شك إلى كثافة المجتمع الذي يندرج في نطاقه متّحدُ كوبوار (انظر IV/١٢ ، و IV/١٣)، حتى وإن كانت تختلف في عدّة نقاط عن الكثافة المعزوّة، بعامةٍ، الى مجتمعاتٍ كتلك التي يُقال إنها غربية ، ولكن لا يجوز التسرّع في الاستنتاج من هذا المثل أنَّ جميع الأوضاع اللغوية التعددية المرتبطة بمجتمعات مركّبة ، تنزع إلى الاستقرار ، ولا أنَّ فعاليتها تخضع للكيفيات ذاتها التي تخضعُ لها في كوبوار.

إن استقرار وضع لغويّ تعدّدي في مجتمع مركّب يتوقّف ، أيضاً ، على المنظومات اللغوية القائمة وعلى عدة عوامل غير بنائية ، في وقتٍ واحد . ومن بين هذه الأخيرة ، لا يمكن التقليل من اعتبار خيارات الدولة تجاه التعدّدية اللغوية ، والوسائل الاقتصادية التي تملكها لتجسيد خياراتها . فعندما تضعُ دولةٌ ما التعدّد اللغويّ في دستورها ، فإن ذلك يمكنه الإسهام في استقرار الوضع اللغويّ التعدّدي ، ولكنّه لا يسهم فيه بالضرورة . إن الدولة الهندية تعترف بالتعددية اللغوية للأراضي التي تسيطر عليها ، لكنها لا تستطيع أن تتحمل النفقات الضرورية لتعميم تعليم اللغات المعنيّة ، ولتطبيع فعّال للغاتٍ غالباً ما تكون معقّدة من قبل ، ويتزايد التباعد بين

الالوان المقوننة والالوان المحكيّـة ، ويزداد التقـارب بين الالوان المحكيّة ذاتها . ويقال الشيء ذاته عن تثبيت وضع لغوي تعدّدي يمكنه أيضاً ارتداء طابع مسار اقتصادي تحدّدُ الدولة كلفتـه بكل سهولة ، دون أن تتمكن دائماً من دفعها ، عندما يظلّ الوضع اللغويّ المتعدّد وضعاً واقعياً أكثر وله وضعاً تدرجه الـدولةُ في مستـوى المؤسسات ، يكون أمامه كثير من فرص عدم الاستقرار ، حتى وإن كان نطاقُه الاقتصادي ليس بالضبط نطاقَ تخلُّفٍ ميؤوس منه . وإنه سيفقد توازنه بشكل مؤكّد ، على قدر ما تختار الدولة لغة رسمية أو قومية وتفرضها على اللغات القائمة .

١٧/IV ـ المركزيّةُ واللهجاتُ المحليّة :

يبدو بوجهٍ عام أن سلطة الدولة كلما طوّرت نزعاتها المركزية تناقص تكيُّفها مع وضع لغوي تعدّدي في المجتمع الذي تسوده.

إن كثيراً من الفوارق القائمة بين الأوضاع اللغوية الثنائيّـة التي أمكن وجودها في المجتمعات الايطالية ، الالمانية ، الاسبانيّة والفرنسية ، هي في الواقع فوارق يمكن عزوها لشتى أنواع المركزية التي تحمّلتها هذه المجتمعات ، والوحدة القومية الحديثة نسبياً في إيطاليا والمانيا ، تركت فيهما مكانةً للهجات المحليّة ، لم تكن تمنحها لها المركزيّاتُ الاقدمُ في اسبانيا وفرنسا ، إن الوجود الذي عرفته اللهجات المحلية في اسبانيا حتى آخر المرحلة الفرانكويّة نفسها ، ليس هو أيضاً كالبقاء الصعب لبعض « العاميّات » في فرنسا.

دون الشروع بدراسة مقارنة للمركزيّات الفرنسيّة والاسبانيّة ، سيُشدَّد مع ذلك على أنَّ مركزية جمهورية جاءت في فرنسا لتحل محلَّ المركزيّة الملكيّة ، وظهرت في كثير من الامور ، بأنها أفعلُ من سابقتها ، فبينما كانت المركزية ، منذ بداية الجمهورية الفـرنسية الأولى ، تخلخل بلا توقف كل الأوضاع والمواقف اللغوية الثنائية في

البلاد لصالح اللغة المشتركة ، ظهر تاريخ الكاتالانية ووضعها الراهن في اسبانيا ، مثلاً ، انّهما نسبياً أقلّ تشجيعاً لاستمرار هذه الرواية الأيبريّة . وفي عصر الجمهورية الاسبانيّة الثانية ، شهد الوضع اللغوي المزدوج في كاتالونيا محاولة استقرار وتثبيت جديّة ، واليوم تحاول الجنرالية ، التي اقامتها مرحلةُ ما بعد الفرانكويّة ، انْ تشجع هي ايضاً هذا التثبيت . غير ان هذا لا يعني أن الفعالية الحاضرة سيكون من السُّهل قلبُها : ٤٤٪ من سكان كاتالونيا ولدوا في أماكن أخرى من اسبانيا ولا يتكلّمون الكاتالانيّة ؛ ٧٠٪ من المدرّسين العاملين في المناطق لا يعرفون ، هم ايضاً ، الكاتالانية ، وهذا الأمر أدلُّ وذو نتائج أشدّ . فهناك نَفَرٌ من الصحافيين اضطرّ ، وهو يستعد لإصدار جريدة يومية ثانية بالكاتالانيّة ، الى العودة للمدرسة لتعلّم كتابة اللغة التي أخذ على عاتقه استعمالها بعد بضعة اشهر . وإذا كان كثير من الكاتالانيّين لا يزالون يتكلمون لغتهم الكاتالانيّة الخاصّة بهم ، فإنهم لا يكتبونها في الغالب إلاّ قليلاً[٩].

عندما لا يتجلى وضع لغوي تعدّدي إلاّ قليلاً ، أو حتى لا يظهر في شيء على مستويات الدولة والمؤسسات ، وعندما تكون السلطة ، المميّزة بنزعات قديمة جداً نحو مركزية عميقة ، قد عرفت كيف تتزوّد بالوسائل الاقتصادية لأجل تطبيع لغوي فاعل ، فإن هذا كلّه لا يعني أن الطبقات والجماعات الاجتماعيّة التي ترتبط الدولة بها ، قادرة عندئذ على فرض لغتها على الجميع تقريباً . ويحصل تخلخل شبه كامل في الوضع اللغوي التعدّدي ، تخلخل سيفضي ، على مدى بعيد أو قريب نسبياً ، الى تبدّل في اللغات ، والى أحديّة لغويّة جديدة . إن انقلاب ميزان القوى بين الطبقات والجماعات الاجتماعية ، كفيل وحده بأن يغيّر ، في هذه الحالة ، ما أسماه

(9) Charles Vanhecke, Le Monde, 26 Octobre 1978.

فاينريخ القَدَر الخارجي للغات الخاسرة (Unilinguisme, P. 647-683) . كذلك لابد الاّ يأتي هذا الإنقلابُ متأخراً جداً ، خشيةً أن يظلَّ هو ذاته عاجـزاً تقريبـاً في مواجهـة تبدُّل اللغـات ، ان حالات هـذه الأوضـاع اللغويـة التعدديـة البالغـة التغلغـل ليست نـادرة في المجتمعات الأوروبية المركّبة . إن وضع الايرلنديّة كلغة خاسرة أمام الانكليزية هو وضع نموذجي ، ويمكنه أن يظهر غير قابل للـرجوع عنه ، على الرّغم من تخطيط منتظم وحائز على وسائل اقتصـادية حقيقية .

الموقفُ الفرنسيّ

١٨/IV ـ اللهجاتُ المحليّة ، المدينة والرّيف

كثيرٌ من اللهجات المحلية في الموقف الفرنسي ، تجد نفسها هي أيضاً في وضع اللغات الخاسرة . فالفرنسية اليـوم هي اللغة اليوميّة لثلاثة أرباع السكّان ، ودرجة التنشئة المـدرسية العـالية تنزع بثباتٍ الى زيادة هذه النسبة ، كما كتب برنار بوتييه منذ اكثر من عشر سنوات (B. Pottier, France, P. 1144-1161) . وبدون الوقوف هنا عند بعض الملايين من الشغيلة المهاجرين الذين لهم مشاكل لغويّة خاصة ، وحتى إذا لم يبق سوى ٢٠٪ من مزدوجي اللغة لدى السكان المولودين والعايشين في فـرنسا ، فقـد يكون من المفيـد التسـاؤل : مَنْ هم هؤلاء المزدوجـو اللغـة ، أين ، متى ومـع مَنْ يتكلمون لهجاتهم المحلية ، وما هي مواقفهم اللغوية .

بوجه عام جداً ، هناك تواضـعٌ على الاعتراف بـأنّ متكلّمي اللهجات المحلية في فرنسا هم أعضاء أو منحدرون من جمـاعات ريفيّة ، بينما سكان المدن يتكلمون اللون المتداول أو لهجة إقليمية

من لهجات الفرنسيّة ، هكذا هو الحال في برست ، لوريان أو كامبر في بريتانيا ؛ في مراكز بلاد الباسك السياحيّة ، في دانكرك ، برج ، كاسل أو هاز بروك في الشمال ، الخ . واذا كان تعارض المدينة / الريف يحافظ على أهمّيته ، فإن ذلك ليس من دون بعض الخصائص واللطائف . ومثاله في الالزاس حيث المراكز الحَضَرية تنتمي دوماً إلى المجال الجرماني ، حتى وإن كانت ستراسبورغ ، ميلوز أو كولمار تضم بضعة الاف نسمة لا يتكلمون إلاّ الفرنسية (Pottier, France, P. 1158-1160).

في المقابل ، إن أبناء فلاّحي سيفين القادمين إلى ليون بحثاً عن عمل ، والفلامانديّون المقيمون في المدن الصناعية ذوات اللغة الفرنسية مثل ليل او روبيه ، او العائلات الكورسيكية ، البرتونيّة أو الاوفرنيّة ، المقيمة في باريس ... تمكّنوا من تكوين أحزمة ، جماعات عائليّة من متكلمي اللهجات المحلية في قلب المدن الكبرى ذاتها . ومما لا شك فيه أنّ هؤلاء المتكلمين لا يستطيعون في الحقيقة استعمال لهجاتهم المحلية مع ذوي اللغة الوحيدة المحيطين بهم ، وأنهم لا تُسنح لهم أبداً فرصة التحاور اليومي بهذه اللهجات إلاّ خارج دوام العمل ، الخ . ولتقويم وقت حوارهم العائلي بشكل صحيح ، لابد من الاضافة أنّ هؤلاء المتكلمين غالباً ما تركوا أسلافهم المباشرين في بلدهم ، وأنّهم هم انفسهم لا يرون من الضروري دائماً أنْ يتكلّم اخلافهم المباشرون وأن يتعلّموا بلهجتهم المحلية ، الأمر الذي سيجعلهم يزيدون من اعداد الفرنسيين ذوي اللغة الوحيدة .

غير أن قسماً من هؤلاء الذين يلتزمون اليوم بالمطالبة البريتونية أو الاوكسيتانيّة هم من الحَضَريين الذين لا يبدو عليهم انهم يعتبرون واقع جلاء اللهجات المحلية عن الحواضر ، أمراً لا رجوع عنه . وغالباً ما يختار الاكبر عمراً بينهم ، أنْ يتعلموا اللهجة

المحلية التي نسي ذووهم أن يعلموهم إيّاها في طفولتهم ، في الإطار العائلي . ففي نظرهم ، مصادر التعليم متنوّعة جداً ، وتنطلق من قواميس القرن الماضي إلى الطرق السمعية ـ البصرية الأكثر حداثةً .

IV/١٩ ـ نحو تبدُّل اللغات

بَيْدَ أن كل ما يتجه نحو الحدّ من تعارض المدينة / الرّيف ، وكل ما يقرّب مستوى وطريقة حياة سكان ريفيين من المتكلمين لهجة محلية ، من مستوى وطريقة حياة الحضريّين ، لا يبقى ، ظاهرياً ، دون أثر في استقرار الأوضاع المتطابقة مع اللهجات المحلّية . سنة ١٩٦٢ ، أجري استطلاع لساني / اجتماعي في ست بلدات من منطقة غاسكون في جبال البيرينيه العالية ، تناول أطفالاً في سن الدراسة الابتدائية ، في إحدى هذه البلدات ، الواقعة بعيداً عن طرق المرور والسياحة الكبرى ، الخالية من الفنادق والمصحّات والمصانع ، والبالغ عدد سكانها ٢٥٩ نسمة ، كان ٨٢٪ من الأطفال الخاضعين للاستطلاع ، يتكلمون في عائلاتهم اللون المحلي من اللهجة الغاسكونيّة . وفي بلدة أخرى من هذه البلدات ، تقع في وادٍ سهل البلوغ ، وكان معظم سكانها يعملون في مصنع كيميائي قريب ، هناك ٢٠٪ فقط من تلاميذ المدارس كانوا لايزالون يتكلمون الغاسكونية في الوسط العائلي . وفي معظم الأحيان كان كثير من التلاميذ الفتيان ، المستجوبين ، يترددون في تسمية ما كانوا يتكلمونه في بيوتهم ، « فرنسية » او « لهجة عاميّة » (Tabouret- Keller, Observations, p. 2-13) . ومع ازدياد وتيرة الانتقالات من لغةٍ إلى أخرى ، وازدياد كميّة التفاعلات والتداخلات ، كانت المسافة بين اللغات تفقد من واقعها وحقيقتها في نظر هؤلاء المتكلمين الشبّان .

كما أنّ استطلاعاً أجري في (سل ـ سير ـ ديرول) سنة

١٩٧٥ (Dany Hadjadj; Parlers en contact) ، يسهم في تكوين فكرة صحيحة عمّا يمكن ان يكون حال لهجة محلية اليوم في فرنسا . تقع (سل ـ سير ـ ديروبل) في دائرة تيير ، في المجال الذي تمضي فيه الالوان الأوكسيتانية الشمالية جداً ، لملاقاة الفرانكو ـ بروفنسالية شرقاً والوان الاويل (Oïl) شمالاً : وهي بلدة يزيد عدد سكّانها عن الألفين . من اصل ٩٦٥ متكلّماً خضعوا للاستطـلاع ، أعلن ٧٨٧ أنهم يفهمـون اللهجـة المحليـة ، وأعلن ٤٦٩ أنهم يستعملـونهـا بفعالية . هؤلاء المتكلّمون هم مزدوجو اللغة ، مبكّـرون ـ اكتسبوا اللهجة المحليّة والفرنسيّة قبل دخولهم في المنظومة المدرسية . من أصل هؤلاء المزدوجي اللغة الـ ٤٦٩ ، هناك ٤٥٨ يستعملون اللهجة المحلية في العائلة : ٤٠٢ يتكلمونها يومياً ، والباقون بشكل دوري . لم يبق سوى ٤٣٩ ممن يستعملون يومياً اللهجة المحلية خارج الأسرة.

غالباً ما جرى تحـديد اللهجـات المحليّة كمنظـومات لغـويّة مرتبطة بوحدة جغرافيّة ضيقة نسبياً : منطقة ، وادٍ ، قرية ، الخ . وكان التفاعل الاجتماعي يسمح هناك باتصالات يومية أو مألوفة على الاقل ، لضمان وحدة المنظومة في مواجهة خلاف يظهر غالباً من وادٍ إلى وادٍ ومن قرية الى قرية . وإذا كان المزدوجو اللغة قد اعتادوا على الانتقال من اللهجة المحلية إلى الفرنسية حين يخرجـون من بيوتهم ، اي حين ينتقلون من المجال الخاص إلى المجال العام ، فـإن العلاقـة بين اللهجة المحليـة والوحـدة الجغرافيّـة ستشهد انحساراً في فعاليتها بوصفها سمة مُحدِّدة ، وعمّا قـريب لن يبقى للهجة المحلية أي تمسنُّع وظيفي آخر سوى التصنع اللغوي الحميم .

الى هذا الاستنتاج بالذات توصلت دانيا حَجاج عندما شدّدت على وجود « فصل وظيفي واضح نسبياً ـ في المتحدات الموصوفة ـ بين استعمال الفرنسية واستعمال العاميّة ... التي هي لغة الحياة الحميمة بامتياز ، حياة المتحد المحليّ » (Hadjadj, Parlers en con-

tact, p. 387) ولكنَّ اللهجة المحليّة لاتزال تخسر ميدانياً وبشكل له دلالته ، حتى في إطار الجماعة العائليّة . فـاذا كان ٤٢٩ متكلّمـاً يستعملـونها مـع ذويهم في الأسرة ، فلم يعـد هناك سـوى ١٤٤ يستخدمونها مع أطفالهم : « ما من متكلّم ولد بعد سنة ١٩٤٠ يتكلم العـاميّة مـع أولاده » (Ibid., p. 442) . عندمـا تكون منظـومـة من منظومات الاتصال والاحتكاك مرتبطة ارتباطاً خاصاً بالجماعة الاكبر سناً في المتّحد ، يكون ثمة مميّز تعاقبي لتبدّل اللغات في طـريق التطور ، كما كتب فاينريـخ (Unilinguisme, p. 681) . ومن جهتها ، تتكلم دانيـا حجاج على « المحكي المنتظم » في صـدد « سل » « ديرول » ؛ ولم يتردّد مارتينه إلاّ قليلاً في جعله توجه اللهجـات العاميّة نحو الزوال ، سمةً من السمات المحددة لها : فالعاميّـة لا تستمر إلاّ بقدر ما يكون هناك أناسٌ يجدون في بعض الظروف أنَّ من الاسهل عليهم استعمالها بدلاً من اللغة القوميّة ؛ كما أن اللهجات العامية هي بتعريفها عرضة للزوال ، كما يُقال (Martinet, Eléments, p. 152) .

تنشئة مدرسية متطورة ، تفاوت مستوى وطريقة العيش بين الحضريين والريفيين، انتقال الريفيين الى المراكز الحضريّة ، إنّما تعتبر كلها مسارات سلميّة عموماً ، ادت إلى إثارة هذا التوجّه نحو زول بعض اللهجات المحلية في الموقف الفرنسي . ولكنْ وكان هناك مسارات أخرى اقل سلماً . فقد كانت الحرب العالمية الأولى شؤماً على اللهجـات المحلية في عـدّة مناطق ، ومن المحتمـل ان تكون الحرب الثانية سبباً لاستمرار وابقاء قسم كبير من اللهجات المحلية بعد الحرب الأولى (Martinet, langue et fonction p. 138- 139) . ويُقدَّر ان الحياة العائلية كانت في زمن السلم كما في زمن الحرب ، فرصةً لتقارب أناس قادمين من آفاق اجتماعية / جغرافية ولغوية بـالغة التنوع ، وبالتالي كانت فرصة امام متكلمي اللهجات المحلية لكي

يستعملوا بشكل مألوف اللهجة المتداولة أو اللهجة الاقليمية من الفرنسية . ويضاف إلى ذلك ، أنَّ تلك الفرصة كانت في وقت واحد عامل تماسك قومي ولغوي . ومن الآن حتى يجري تحليل الزوال الماديّ لمتعددي اللغات بسبب من وقائع الحرب كعامل وحدة لسانيّة ، لاتزال المسافة بعيدة : فهذا الأمر كان يستلزم ، بالتالي ، واقعياً في تحليل الوقائع والظواهر ، ووضوحاً كان مرفوضاً ومُفتقداً بوجهٍ عام . غير أنَّ مفردة قتل العُشْر (Décimation) استعادت في بعض الأحيان معناها الأول ، وان الدّسكرة - اللانغدوكيّة ، مثلاً - البالغ عدد سكانها ١٥٠ نسمة ، والتي استطاعت ان تسجّل ١٥ إسماً على نصب تذكار الموتى في ساحتها ، ليست بلاشك دسكرة لا يمكن إيجادها . اذن ، من الوجهة الاجتماعية / اللغوية ، الحياةُ العسكرية والموت في ميدان القتال هما في التحليل الأخير مما يتوجّب تصنيفه في عداد العوامل المحتملة لتبدلات اللغات .

IV/ ٢٠ - استمرارُ اللهجات المحليّة

لقد ساهم ولايزال يسهم كثيرٌ من العوامل في تفكيك استقرار المواقف والأوضاع اللغوية الثنائية في فرنسا ، لدرجة أن المرء قد يكون من حقّه ان يندهش من استمرار بعض هذه الأوضاع ، وأن يتساءل كيف استطاع تفاعل العوامل البنائية وغير البنائية أن يلعب أحياناً لصالح استمرار بعض اللهجات المحليّة .

إن الألوان التي تصنع اليوم ما يسمى اللغة المشتركة هي ، على غرار « ألوان المحكي أويل Oïl » (أي اللهجات المحليـة في الوسط ، والغرب والشرق ، وفي النورماندي والبيكاردي)، الممثلة الحاليّة للغة الغاليّة / الرومانية في الشمال ، كما أنَّ التباينات البنيوية محصورة نسبياً بين هذه الألوان وتلك من اللهجات المحلية . وهي أشدّ وضوحاً وعدداً بين اللغة المشتركة واللهجات الحالية

الممثلة للغاليّة / الرومانية في الجنوب ، ونعني اللهجات الفرنكية / البروفنسية ، الغاسكونيّة والاوكيستانيّة ، وهي تباينات تظهر عندما تتعارض الفرنسية مع الرومانية الآيبيريّة في كاتالونيا ، ومع الألوان الكورسيكية (القريبة من التوسكانية في شمال الجزيرة ، ومن السردينية في جنوبها) . وفوق ذلك ، عندما يتمّ الاتصال مع المنظومات غير الرومانية (الجرمانيّة مثل الفلاماندية والألزاسيّة ، والسلتية / البريتونية في بريتانيا ، غير الهندو / أوروبية في بلاد الباسك) .

في ما يطلق عليه بوتييه تسمية الثنائية اللغوية الريفية في فرنسا (France, p. 1150- 1151) ، يميّز بين ثنائية لغوية فردية ، متفرّقة (Sporadique) ، وثنائية لغوية مستعملة ، وثنائية لغوية مكثفة . وهو لا يعطي المعايير التي تؤسس هذا التمييز . ومن الواضح أنّ المقصود ، حول بعض النقاط ، هو حيوية الثنائية اللغوية اكثر من الانتماء إلى المجاميع التي حدّدها علماء العاميّات . وعلى الخريطة ، يمكن ان نقف عند تعارض منطقة مين (Maine) الأحدية اللغة مع شامبانيا ، ومع منطقة ثنائية لغوية متفرّقة من مناطق الشمال الغاليّة / الرومانية ، ومع منطقة ثنائية لغوية مستعملة في مناطق الجنوب ، وثنائية لغوية مكثفة هناك حيث يجري الاتصال مع الوان المحكي غير الغاليّة / الرومانيّة . وقد يستهوينا الاستنتاج من ذلك كله أنّ التوجه نحو زوال مُتَجلٍ في لهجة محليّة ، هو في المقابل توجُّه متناسبٌ مع مجمل الفوارق البنيوية التي تضمها في مواجهة اللغة المشتركة .

على أنّ هذه الاستنتاجات تستوجب التدقيقَ الجدّي . فحتى وإن توقّفنا عند معطيات الخريطة القليلة الإثارة للانتباه ، فإننا نكتشف في الشمال ثنائية لغويّة دارجة في الكونتنتان . في حين أنّ الغاسكونيّة ترتبط في كل مكان آخر بثنائية لغوية مستعملة لا اكثر ،

وتغدو مكوِّنةً لثنائية لغوية مكثّفة في بعض أودية البيرينه الوسطى . يتعيّن الاستنتاج من ذلك أن بعض المعطيات الجغرافيّة تلعبُ بكل وضوح لصالح استقرار الأوضاع اللغويّـة الثنائيـة . ان صعوبـة الوصول النسبية الى اودية البيرينه العالية ، وجزيريّة كورسيكـا ، وشبه جزيريّة بريتانيا او الكوتنتان ، وابتعادها عن منطقة الأحدية اللغوية المركزية ، تعني باريس والإيل دي فرانس ، إن هذه كلّها حواجز جغرافيّة ، فعاليتها واضحة بمقدار فعالية الحواجز اللغوية المتكوّنة بفعل التباينات البنيويّة .

IV/٢١ ـ مواقف لغويّة

من بين المقوّمات غير البنائيـة ، استطاع مـوقف المتكلمين ولايزال يستطيع ، هو ايضاً ، أنْ يكـون حاجـزاً دفاعيـاً فعّالاً من حواجز اللهجات المحليّة . إنَّ لهجة محليّة يمكن إدراكها كإمكانية اتصال مع النّاس الذين لا يمكنُ الوصول إليهم بواسـطة الفرنسيّة . وهكذا ، تسمح الالزاسيّة ، الفلاماندية ، الكورسيكيّة ، الباسكيّة أو الكاتالانيّة باتصالات مع متكلمين من التابعيّة الألمانية ، البلجيكيّة ، الهولنديّة ، الايطاليّة او الإسبانيّة . إن في هذا حظاً إضافياً للإبقاء على اللهجة المحلية ، وهذه تغدو بذلك أشدَّ مقاومةً لضغط الفرنسيّة التفكيكي (Martinet, Langue et fonction, p. 143- 145) . وعندما تقوم اتصالات بين جماعات اجتماعية تفصلها حدود سياسية غير متطابقة مع حدود لغوية حقيقية ، فإن الاتصالات اللغويّة ، الاجتماعيـة / الثقافيّة ، الاقتصادية ، وحتى السياسية ، غالباً ما تسير جنباً إلى جنب . وإنَّ ما يبقى من وحدة اللغة الباسكيّـة ، من طرفي جبـال البيرينه مثلاً ، لا يمكنه إلاّ ان يخدم المناضلين بالسلاح في منظمة ETA ، ويخدم معارضتهم للمركزيّة المدريديّة . إن محكيّ فلامانديّاً في شمال فرنسا يظل عاميّةً طالما أنّه لا يدوم إلاّ بفعل جمود اولئك

الذين يتكلّمونه ، لكنّه يغدو لوناً من اللغة الهولنديّة عند اولئك الذين يريدونه ، وبوعي ، بهذه الصفة ؛ وإن هذا التباين في وجهة النّظر سيؤدي سريعاً إلى فوارق كبيرة في السلوك اللغوي للأفراد الذين سيتجنّبون بعض الكلمات وبعض الأشكال ، ويؤثرون عليها كلماتٍ وأشكالاً أخرى (Martinet, Langue et fonction, p. 153) . وقد يكون من الصعب التشديد بوضوح أكبر على الفعالية التي يمكن ان يملكها أحياناً تفاعلُ العوامل البنائية وغير البنائيّة في الحفاظ على المواقف اللغويّة الثنائيّة . فهناك وقائع بنيويّة (تباين مخفوض بين بُنى لهجة محلية من الميدان الفرنسي وبُنى منظومة خارج هذا الميدان) تلعب دورها في المستوى الاجتماعي : اتصالاتٌ بين جماعات من جنسيّات متباينة ، استيعاء المتكلّمين الفرنسيين لهجةً محليّةً لانتمائهم الموضوعي إلى متحّدٍ خارج الإطار القومي ، الخ . وفي المقابل تؤثر هذه المقوّمات الاجتماعية في المقوّمات اللغويّة : ضرورة الحدّ من المسافة بين اللغات : فلاماندية / منظومة هولنديّة ، وبالتالي الحفاظ على المسافة او تشديدها : فلاماندية / فرنسيّة ، عندئذ ترتبط النتائجُ بالتقارب وبالتباعد اللغويّين .

إن وجود منظومات ، على حدود الميدان الفرنسي ، قريبة بنيوياً من لهجات هذا الميدان المحليّة ، لم يعد يظهر اليوم ضرورياً في المطلق لكي تظهر ، لدى متكلّمي هذه اللهجات المحليّة ، إرادة الحفاظ على المسافة بين اللغات أو إرادة تشديدها : لهجة محلية / فرنسيّة . من الصعب إنكار وجود هذه الإرادة لدى بعض متكلّمي لهجات الأوكسيتانية ، الفاسكونية أو البريتونيّة . وفي المستوى السياسي ، كانت هذه الإرادة قد تجلّت في المطالبة بتعليم اللهجات المحليّة رسمياً . فجرى التصويت على قانون في كانون الثاني / يناير ١٩٥١ . لا يعكس ، في منظوره وفي منطوقه ، إلاّ قليلاً وبشكل رديء المتطلبات التي أدّت إلى صدوره . يمكن تخصيص ساعة

اسبوعياً ، في التعليم الابتدائي ، لاكتساب مفاهيم أولية من ألوان المحكي المحليّة . ويؤذن للمعلمين بالاستعانة بـالمصطلح المحلي كلما استطاعوا الإفادة منه في تعليمهم ، لاسيما في دراسة اللغة الفرنسيّة. ويغدو هذا التعليم لألوان المحكي المحية اختيارياً في مستوى الدراسات الثانويّة ، ولا يوجد أيُّ تأهيل خاص لأولئك الذين يأملون الإسهام في هذا التعليم.

IV/٢٢ ـ الديناميّة المعاصرة للهجات المحليّة في فرنسا

إذا كانت مطالبُ متكلّمي بعض اللهجات المحليّة قد استطاعت أن تطرح بعض المسائل على المركزيّة الفرنسية ، فإن هذا الأمر قد حصل أولاً ، هناك حيث ظلّ قائماً الإحساس بمحكي مرتبط بمجتمع معيَّن : هنـاك مثلاً حيث كـان يوجـد مصطلح محلّي للـدلالة على المحكي : الاوكيستاني ، الغاسكوني ، الخ . كان يمكن أن نتوقع من ألـوان المحكي المسماة (Oil)، الأقـرب بنيـويـاً إلى ألـوان اللغـة المشتركة ، وغير المستفيدة شيمـة الأوكسيتانيـة والبريتـونية أو الغـاسكانيّـة من دعم مصطلحات قـريبة وراء الحـدود القوميـة ، والواقعة على أطراف المنطقة اللغويّة الأحديّة المركزيّة ، كان يمكن أن نتوقع من هذه الألوان المحكية أن تُظهر حيويّة ضعيفة . وحين نضيفُ إلى ذلك بعض المقوّمات التاريخية ، تجتمع الشروط لكي لا تعود لدى المتكلّمين إرادةٌ قوية للحفاظ على المسافـات بين اللغة الفـرنسيـة ولهجـاتهم المحليّـة ، ولا أيُّ ظهـور لهـذه الإرادة في المستوى الثقافي والسياسي.

في المناسبة ، كان الأمر أقل تعلقاً بسهولة الانتقال من اللهجة المحلية إلى المشتركة ، والعكس بالعكس ، وبتماثل البنى اللغوية أو

تباعدها ، من تعلقه بحضور أو غياب رغبة توكيد الذّات . إنّ المحكيّات الفرنسية/ البيروفنسيّة المتميّزة تماماً ، من وجهة الصّواتة والقواعد والمعجميّة ، من الفرنسيّات المحليّة ، لم تسهم قطّ في تجديد الاهتمام باللهجات المحليّة . وقد تلاشت بفعل الانطفاء ، والانقطاع في التناقل ، وليس البتّة ، كما هو حال كثير من اللهجات المحلية الأنأى شمالاً ، بفعل الانصهار الجوهري (Coalescence) مع اللهجات الإقليمية على شكلٍ من التواصل المنظومي (انظر لاحقاً : 29/IV إلى 31/IV) . وعلى الرّغم من الوضع الميسترالي ، يُلحظ وضعٌ مماثل في بروفنسا المنخفضة التي لا تصل إلّا على كاهل التجديد الأوكسيتاني.

من المحتمل جداً أن تكون الفوارق البنيويّة المؤسسة للمسافة بين لهجة محلية سافواردية واللهجة الإقليمية من الفرنسيّة التي تشاركها مدارها الجغرافيّ ، موسومةً على الأقل ، بمقدار الفوارق الصّواتيّة والقواعديّة التي تقيم التمايز ، مثلاً ، بين لغتين هنوديتين في فوبيس . وبينما يمحي المحكي السافواردي (نسبة إلى سافوا) أمام الفرنسية المحليّة ، يُحافَظُ في فوبيس وبدقةٍ متناهيةٍ على التباينات البنائية التي يمكنها أن تصنع من المنظومتين القائمتين ، لغتين كاملتين لهما مكانة متماثلة.

صحيح أنّ الحصيلة الإجمالية للفوارق الاجتماعية / الثقافية بين الفرنسيين ذوي اللغة الواحدة وذوي اللغتين ، الممارسين لهجاتٍ محليّة ، قد انخفضت انخفاضاً كبيراً في مجرى التفاعل الاجتماعي المكثّف والمطوّل الذي عاشوه. ومع ذلك يمكن القول ، دون الوقوع في اللسانة الاجتماعية / المُخيّلة ، إذا كانت معايير اجتماعية جديدة في سافوا أو في بروفنسا تستلزم الحفاظ على هويّة الجماعات ، فإن في مستطاع صواتة اللهجات المحلية وقواعدها أن تكفلا ، بلا مصاعب كبرى ، وظيفتها الاجتماعية في

تسجيل المسافات بين الجماعات ، فضلاً عن وظائفها اللغوية الخالصة . إن قدر لغةٍ خاسرة غير مكتوب أبداً في بنيتها اللغوية بالذات.

الثنائية اللغويّة ، الازدواجُ اللغويّ والتواصلُ الخطابيّ

IV/٢٣ ـ الازدواج اللغوي (Diglossie)

منذ أن قُبلت اللهجات المحلية في مصاف المنظومات اللغوية بصفة كاملة ومستقلة ، جرت عادةُ الكلام على أوضاع لغويّة ، في معرض الكلام على الأوضاع التي كانت اللهجاتُ المحليّة من مكوناتها . وفي عهد أحدث ، بدأ اعتبارُ هذه الأوضاع كأوضاع ازدواج لغويّ . وليس مصطلح ازدواج لغوي مصطلحاً بلا تاريخ . في وقت أول ، ظل مجرّد مرادف للثنائية اللغوية (Dubois, Dictionnaire, p. 155) . ثم ظهر مفهوم **الثنائية الاجتماعية** : كان يقصد هكذا الوقوف خطأً ضد بعض الأفكار المتداولة التي كانت تجعل من الثنائية اللغوية ظاهرة لا يمكنها أن تتضمن سوى لغتين لهما مكانة اجتماعية متماثلة ، وبالتفضيل ، متميزة ، أو أيضاً ظاهرة فردية تنتمي جوهرياً، ولهذا السبب ، إلى علم النفس واللسانة النفسية الخ . في المقابل ، كانت الثنائية اللغوية تميّزُ وضعاً تتراتب فيه لغتان أو حالتان لغويّتان ، وفقاً للفئات الاجتماعية (Tabouret - Keller, Guide, p. 307) ، حيثُ كان استعمال إحدى اللغات المتنافسة يشير في وقت واحدٍ إلى تباينٍ في المركز الاجتماعي بين المتكلّمين الخ . إن معظم تعريفات الازدواج اللغوي يسترجع تعريفات الثنائية اللغوية

الاجتماعية ، مع تدقيقها أو توضيح بعض نقاطها . إن مصطلح ازدواج لغوي يدلُّ على توزيع الاستعمالات في كل من اللغات حسب الظروف والموضوعات الخاصة ؛ ويترافقُ هذا التوزيع ، عموماً ، مع انتشار استعمال احدى اللغات ، ومع فارقٍ في الميزة (Tabouret - Keller, Guide,p. 308) إن الازدواج اللغوي هو وضع ثنائية لغوية شاملة متحداً بكامله ، حيث يكون استعمال كلٍ من اللغات مُقيّداً بهذا الظرف الخاص أو ذاك : استعمال رسمي للفرنسيّة في كبريات المدن الإفريقيّة ، مقابل الاستعمال الدّارج والعائلي من جانب المتكلّمين انفسهم للغتهم الام (Mounin, Diction-naire, p. 108) ، إنّ الازدواج اللغوي وضعٌ لغوي ثنائي تكون فيه إحدى اللغتين ذات مركز اجتماعي سياسي أدنى ، وأن كل الأوضاع اللغوية الثنائية التي تُصادف في فرنسا هي إزدواجيّات لغوية ، سواء في بلاد Oil، في بلاد OC ، في بريتانيا، الخ ، (Dubois, Dic-tionnaire, p. 155).

في الواقع ، كان شارل فرغيسون قد أطلق منذ ١٩٥٩ مصطلح الازدواج اللغوي ، وحاول وصف الوقائع المقابلة (Diglossia, Word, Vol. 15, No2, p. 325- 340).

IV/٢٤ ـ لونانِ في مقام اجتماعي مختلف

كتب فرغيسون : في عدة متحدّات خطابيّة ، يجري استعمال لونين أو أكثر من ألوان اللغة الواحدة ، من قبل متكلّمين في ظروف مختلفة، حيث يتعيّن على كل لون أن يلعب دوراً محدّداً . فأخذ هذه الالوان يكون الأول من حيث اكتسابه وتعلمه في الظروف الطبيعية لاكتساب لغة تسمى اللغة الام ، ويكون مستعملاً في العائلة أو بين الاصدقاء . وهناك لونٌ آخر يسمى اللون المتراتب لأنه ليس الأول ، وعليه أن يكتسب بالإضافة إلى اللون المحلي الأول ، حتى يستعمل

لاحقاً في المناسبات العامة أو مع متكلّمي لهجة عامية أخرى. للرجوع بشكل مناسب إلى هذا اللون أو ذاك، يقترح فرغيسون أن يسمى اللون المتراتب باسم اللون H (High)، وأن يسمي L (Low) اللون المكتسب أولاً والمستعمل إقليمياً (Diglossia, p. 327).

إن إحدى أهم مميّزات الوضع الازدواجي اللغوي ـ كما يشدّد فرغيسون ـ هي تخصُّص وظائف H و L : ففي مجموعة أوضاع تكون H وحدها مناسبة، وفي مجموعة أخرى تكون L هي المناسبة. ولا تتشابك المجموعتان إلاّ قليلاً جداً، ولا يمكن التقليل من الأهمية التي تستوجب استعمال اللون الصحيح في الوضع الذي يتطلبها، حتى وإن اعتبر المتكلمون أن H أعلى من L في كثير من الجوانب، وبالأخص عندما تكون H متعلقة بتراث أدبي قديم أو حتى حديث (Diglossia, p. 328 - 331). ويدخل في تعريف الأوضاع اللغوية الازدواجية، حسب فرغيسون، أن يكون للونين طرق وأوقات اكتساب متباينة، وبالأخص أن يكون لهما وظائف ومراكز اجتماعية مختلفة.

IV/٢٥ ـ لونان في منظومة واحدة

في المقالة نفسها، كان فرغيسون قد أوضح أنّه لا ينوي تمحيص الأوضاع ذات النّقاط المشتركة مع الأوضاع اللغوية الازدواجية، بل ينوي تمحيص الأوضاع التي تكون فيها اللغتان القائمتان مختلفتين، أكانت متقاربة نمطياً أم لم تكن. ويشدّد المؤلّفُ على واقع أنّ الألوان الواردة في الأمثلة التي تناولها (أوضاع العربيّة، السويسرية، اليونانيّة والهايتيّة) تنتمي إلى لغة وحيدة واحدة، حتى وإن كانت الفوارق مثيرة دوماً، خصوصاً في مستوى (L/H) القواعديّ. حتى أنّه ليذهب إلى القول، مع كل التحفّظ

الضروري في الموضوع ، بإمكان اعتبار قواعد أي لون من ألوان L بوجه عام ، أبسط من قواعد اللون المقابل H (Diglossia, p.325, 333, 334) .

أما بخصوص المعجميّة ، فيشدّد فرغيسون على أنّ كتلة المصطلح مشتركة بين H و L حتى وإن كانت حقيقية الوانُ الأشكال وفوارقُ الاستعمال . غير أنّ كل تعميم بشأن العلاقات بين صواتات H و L يبدو صعباً ، في تقدير المؤلّف ، نظراً لتنوّع المعطيات.

ومهما يكن الأمر ، فمن الثابت بوجهٍ عام ، وكلما تعلّق الامر بتقرير ما إذا كان لونان هما لغات مختلفة أو ليس هما كذلك ، أنّ تفاعل كل المقوّمات البنائيّة وغير البنائية هو الذي يتعين أخذه في الاعتبار . إن شعور المتكلمين المعيّنين ومواقفهم اللغوية يمكنها أيضاً أن تكون على الأقل حاسمة في الموضوع مثل وقائع البنى . ومعيار التسمية التقليدية للألوان لا يزيل شيئاً من الشبهات . ومثاله أن فرداً واحداً ناطقاً بالعربية لا يمكنُ أنْ يوجد ، بالنسبة إليه ، سوى لغة واحدة وحيدة لكل العالم العربي ، ولكن حسب الظروف والمتخاطبين (وإن تعوزه الحجج المظهريّة الحصيفة لإسناد هذه الأطروحة) أو بالعكس سيكون في إمكانه أن يعارض لغتين عربيّتين على الأقل . في هذه الحالة الأخيرة ، سيكون في متناول الناطق بالعربية ، إسمان لمعارضة واقعين : الفصحى ل (H) ، وبالنسبة ل (L) توجد العاميّة في مصر ، والدّارجة في تونس ، الخ . وهناك حيث يعارض البعض الأوفرنيا بالبروفنسالية واللانغدوكية ، وكلاً من هذه الوقائع بالفرنسية ، نجد آخرين ما عادوا يريدون أن يعارضوا الفرنسيّة إلاّ باللغة الأوكسيتانيّة . وفي أي حال لا يستطيع جمع التسميات أو تفريدها أن يصنعا وحدهما القرار.

يختم فرغيسون مانحاً للازدواج اللغوي التعريف الذي يعتبره بمثابة التعريف الأكمل : **إن الازدواج اللغوي هو وضع لغوي**

مستقر نسبياً حيث يوجد ايضـاً ، فضلاً عن اللـون او الالوان المكتسبة اولاً (الالوان التي يمكنها ان تشتمل على مقولب او مقولبات إقليمية) ، لونٌ متراتبٌ ، بالغ التباعد ورفيع التقعيد ، غالباً ما يكون اشدّ كثافـةً وتركيبـاً في المستوى القـواعدي ، ويكونُ حاملاً لادب عريض ، مكتوب وبارز . وبعامّةٍ يُكتسب هذا اللونُ في المنظومة التربويّة ، ويُستعمل غالبـاً في الكتابـة أو في المواضـع الشكليّة للخطاب . ولكن لا تستعمله اية جماعةٍ من المتحدّ في الحديث الدّارج (Diglossia, p.336) .

IV/٢٦ـ ديناميّة المواضع اللغوية الازدواجيّة

غير انّ فرغيسون ، بعدما سجّل في هذا التعريف الاستقرار النسبي للمـواضـع اللغـويّة الازدواجيّـة ، وبعدمـا شـدّد على أنّ الإزدواج اللغوي يمكنه على امتداد قرون أحيـاناً ، الاّ يطـرح اية مشكلة على المتحدات التي يميّزها ، أخذ في اعتباره شتى الإمكانات الـديناميّـة . إن بعض التيارات الاجتمـاعية/ الاقتصـاديّة و/ أو الاجتماعية/ الثقافية (الحاجات المتزايدة لمحـو الأميّة وللتنشئـة المدرسية ؛ تكثّف الاتصـال والإبلاغ بين الجمـاعات الاجتمـاعيّة والجغرافيّة ؛ الحاجة إلى لغة قوميّة تؤكّد استقلالاً او سيادة حديثة ، الخ) ، إذْ اندمجت في وقت معين في وضـع لغوي إزدواجي ، إنّها طوّرت ديناميّته ووجّهتها (Diglossia, p.338-339) . ويعتبر مارتينه من جهتـه (Rapport, p. 2) ان ديناميـة المواضـــع اللغويـة الازدواجية (وبوجه أعمّ المواضع اللغوية التعدديّة في المتّحد) هي المعيار الأوثق لتبـويب هـذه المـواضـع ، شـرط الاستناد إلى ذيـوع المصطلحات القائمة ، أكثر من الاستناد الى تعارض H-L.

ومنذ الآن ، يمكن تقديم ثلاثة انماط ديناميّة لهذه المواضـع .

الديناميّة الأولى هي ديناميّة الحفاظ على الإزدواج اللغوي ، عندما يكون هذا الإزدواج مُدركاً كسمةٍ قوميّة حقاً ، وكعلامة استقلال . هكذا كان الحال في النرويج في القرن التاسع عشر ، بعد حقبة الهيمنة الدانيماركيّة . وممّا لا شك فيه هو أن الحال كذلك في سويسرا الألمانية ، اليوم . ومن جهة ثانية يمكن أن تكون النّزعة نحو ديناميّة تقاربيّة ، تنطلق الى توحيد الألوان اللغويّة القائمة ، وهذا ما يميّز الوضع الرّاهن في النرويج ، وما ترتسم ملامحه ، ربّما ، في اليونان اليوم . إن هذه الديناميّة يمكن أنْ تفرض نفسها عندما يكون المتكلّمون انفسهم مقتنعين الى حدٍ كبير بأن الألوان القائمة هي فعلاً لغة وحيدة/ واحدة ، وأيضاً عندما لا تتطور الصراعات الاجتماعية أو الإثنية الكبيرة جداً .

أخيراً ، يمكن أنْ تكون النزعةُ نحو إلغاء هذا اللون أو ذاك من الألوان القائمة . في الوضع الفرنسي الراهن ، تشهد الألوان الأقل شيوعاً (لهجات محلية وأيضاً لهجات إقليمية من الفرنسيّة) تناقصاً متزايداً في ذيوعها هذا . إن لوناً كبير الذيوع يظل يتوسع في متحدٍ ما ، إذا كان من قبلُ لغةً نموذجيّة في متحدٍ أو في عدّة متّحدات أخرى (Ferguson, Diglossia, p.339) ، أو إذا كان الوضع يضعها في مواجهة عدة ألوان أخرى أقل ذيوعاً : تفرض الفرنسية نفسها في بروكسل حيث تتعارض مع عدّة ألوان من الفلاماندية ؛ وتفرض نفسها في فرنسا في مواجهة عدّة ألوان من اللهجات المحلية والإقليمية ، الخ .

لكنَّ الاتجاه يمكن ان يكون أحياناً نحو تصفية اللغة الأكثر ذيوعاً ، محلياً على الأقل . ومثال ذلك الفرنسية التي تمّت تصفيتها حالياً في المواقع الفلاماندية من نصف بلجيكا الشمالي .

٢٧/IV- الإزدواج اللغوي:
معاييره اللسانيّة والاجتماعية

يمكن اذن ، حسب فريغسون ، الكلامُ على ازدواج لغوي ، ومعارضته بالثنائية اللغوية بقدر ما يضمُّ الوضع لونين من لغةٍ وحيدة/ واحدة ، مع مجابهتهما بمراكز اجتماعيّة مختلفة .

بعد ذلك ، أمكنَ تميزُ المقوّمات الاجتماعيّة الى أنْ جُعلت السّمات التحديدية الوحيدة للوضع اللغويّ الإزدواجي . هكذا هو الحال بالنسبة إلى فيشمان الذي كتب (Sociolinguistique, p.88) :
في مجتمعٍ يستعمل لغتين او أكثر في سبيل اتصالاته الداخليّة ، يجري هذا الاستعمال عادةً حسبَ اتجاهين ؛ لغة H (high = رفيعة) مستعملة لاجل الدين والتعليم وجوانب أخرى من الثقافة ، ولغة L (low = مشتركة) يستعملها الفاعلون اليوميّون في البيت والأسرة ووسط العمل اليدويّ ؛ يمكن للغتين (H و L) أن تعتبرا عندئذٍ كلغتين متراتبتين.

في نظر فيشمان لم يعد ثمة حاجة إلى انتساب الالوان القائمة إلى لغة وحيدة/ واحدة ؛ ولم يعد تعريفه للإزدواج اللغوي يتناول سوى الجانب الاجتماعي لبعض حالات الثنائية أو التعددية اللغوية.

وفي نظر مارتينه ، يوجد في الواقع تنوع كبير جداً في التفاعلات المحتملة بين لغتين ، ومصطلح الثنائية اللغوية يشمل كل هذه الاحتمالات ؛ ومع الاحتفاظ به ، ربّما يتجنّب تبويباً قائماً على تقسيم ثنائي يعتبره المؤلّف بسيطاً (Eléments, p.148). إن التصنيف القائم على هذه الثنائية ينتسب ، من جهة ثانية ، إلى تصوّر للوقائع الاجتماعية/ الثقافية أقل ما يُقال فيه إنه تصوّر تقليدي ومحافظ . فالعمل اليدوي وبعض المشاغل الأخرى مثل ، اللون اللغوي الذي يجعل هذا الجانب من النشاط البشري ممكناً ،

نجدهما مشمولين في الحكم القيمي ذاته ، فكلاهما مشتركان (Low) ، في حين أنّ الدين أو الثقافة واللون اللغوي المتعلّق بهما ، رفيعان (High) . وإذا اعتبرنا ان من المنشود علمياً وضع اصطلاح لساني اجتماعي يفصل في حدود الممكن بين الألوان اللغوية وتصنّعاتها الوظيفيّة والأحكام القيمية المتعلقة بهذه الأخيرة ، فلنقُلْ إن مفهوم ومصطلح الازدواج اللغوي (Diglossie) لا يسيران دائماً وبكل وضوح في هذا الاتجاه وان حدود التعارض بين H و L يمكن اعتبارها ذاتية حقاً (Martinet, Rapport, p.2) .

IV/٢٨ـ الثنائية اللغويّة والازدواج اللغوي

منذ ١٩٥٩ ، جرى التوسع في مفهوم الازدواج اللغوي وتنقيته ، فأضيفت عدّة اعتبارات ذات دلالة إلى النظريّة الأصلية ، كما يعتبر فيشمان (Sociolinguistique, p.88) . ففي نظره ، كان مفهوم الازدواج اللغوي يرتبط بالتالي ارتباطاً وثيقاً ، ومنذ البداية ، بمفهوم الثنائية اللغوية ؛ ومن ثمّ كان الشاغل الأكثر دلالةً هو الفصل بين هذين المفهومين ، على قدر ما يكون هذا العمل التفكيكي ممكناً.

على هذا النحو ربّما يسمُ الإزدواج اللغويّ أوضاعاً لا توجد فيها أية ثنائية لغويّة عامّة . فعندما تفرضُ دولةٌ وحدةً سياسية ، إقتصادية ، دينية ... على متّحدات لغوية مختلفة وفوق ذلك مفصولة جذرياً من حيث تقاليدها الاجتماعية الثقافية ، فان عدّة لغات تجري عندئذٍ في هذا الإطار التوحيدي المفروض وتتعارض فيه ضمن علاقةٍ من الطراز الازدواجيّ اللغوي، وفي إطار علاقات اللغات المتراتبة. لقد قدّم التاريخ الأوروبي كثيراً من الأمثلة عن هذه الأوضاع حيث كان التفاعل الاجتماعي ، بعد غزوٍ ما ، يتمّ بواسطة الفرنسية ، الدانيماركيّة ، الألمانية أو الروسيّة ... داخل جماعة الغزاة ، بينما لم يكن يجري أي اتصال مباشر مع طبقات المغلوبين وجماعاتهم

الاجتماعية . كان هؤلاء المغلوبون يظلون جماعياً ذوي لغة واحدة ، وكانوا يواصلون ممارسة الإنكليزية - النرويجية ، الاستونيّة - وكان نفر قليل من شارحين ومترجمين - يكفي لـلاتصالات النـادرة بين الجماعات المهيمنة والجماعات المهيمن عليها - ولم تكن المـواقف اللغوية الازدواجيّة من هذا النوع عرضية وثانوية بالضرورة ؛ وربما لا تعود فقط إلى مجال الماضي.

وفوق ذلك ، عنـدما لا تحظى اللغـات ذوات الوضــع اللغوي الثنائي أو التعدّدي ، بموافقة اجتماعية إجماعيّة ، بتصنّعات وظيفية محدّدة ومفصولة بشكل قوي ، يكون ثمّة ثنائية او تعدّدية لغوية بدون إزدواج لغوي . ويكون هذا الأمر مميّزاً لحقبات تبدلّات اجتماعيـة سريعة ، عندما تزول معايير اجتماعية دون أن تقوم مقامها معايير واعراف جديدة . وترتبط الثنائية أو التعدّدية اللغوية من دون ازدواج لغوي ، بمواضع ومواقف انتقاليّة ، كتلك التي يمكن مثلاً أن تعيشها الأجيال الأولى من جماعات المهاجـرين ، كاليـد العاملـة المنتقلة بكثافة ، الخ . في هذه الأوضاع ، تفلت المهارة اللغوية الفردية من الضبط الاجتماعي الذي تمثله من جهة ثانية التصنّعات الوظيفيـة الخاصة بمختلف المنظومات المتواصلة . ويمـحّـي شاغل الحفاظ على المسافات بين اللغات ، وتؤدي أوضاع كهذه ، بشكل مألوف ، الى استبدالات لغوية أي حلول لغات محل أخرى .

يتعايش الازدواج اللغوي والثنائية او التعدديّة اللغوية عندما يدرك كل متكلم بوضوح متى ، أين ومع مَنْ يتكلم هذه اللغة بدلاً من تلك . وهذا التعايش المألوف قليلاً على صعيد أمة كبرى . غالباً ما يكون سارياً في اقاليم أو في مناطق بأسرها . يذكر فيشمـان مثل الكانتونات السويسرية الألمـانيّة حيث لكـل من الألمانيـة وللهجة الألمانية المحلية وظائف اجتماعية حسنـة الموقـع ورفيعة القيمـة . (Fishman, Sociolinguistique, p.91-92)

أخيراً ، قد لا يميّز الإزدواجُ اللغوي فقط المواقف الثنائية أو التعددية اللغوية ، بل قد يطبع بطابعه أيضاً كل وضع يقوم فيه مجتمع لغوي أحدي بمعارضة مختلف ألوان لغته ، واصفاً بعضها بأنه عاميّ / دارج (Vulgaires) وبعضها الآخر بأنه كلاسيكي / مأثور (Classiques) ؛ ويمكن أن يكون ثمّة إزدواج لغوي منذ أنْ تتعايش معاجمُ مختلفة (سجلات) وألوان متباينة وظيفياً لهذا السبب أو ذاك . إن وضعاً لسانياً اجتماعياً كوضع باريس وجزيرة فرنسا (Ile-de- France) مثلاً ، حيث تنتمي جميع الألوان القائمة إلى اللغة المشتركة وحدها ، قد يكون إزدواجياً على قدر ما تكون الألوان الشعبية والمتداولة والعاميّة ... متعارضةً اجتماعياً مع اللون المُطبّع . ومما لا شك فيه أنّ موقف فيشمان هذا هو الأقرب الى وجهة نظر فرغيسون .

IV / ٢٩ـ التواصل الخطابي: الوضعُ الجاميكي

يبدو مفهوم التواصل الخطابي كأنه من أحدث تحوّلات مفهوم الإزدواج اللغوي ، بدأ دافيد دكمب بوضعه (Continuum, p.349-370) في خلال دراسته للوضع الجاميكي المحدّد بوصفه وضع متصل خطابي ما بعد لغات المستعمرات المولّدة (Post- créole) . يخلّدُ كثير من الجاميكيّين الاسطورة القائلة بأنّ الجزيرة لا تضمّ سوى اللونين القائمين فيها ، وهما العاميّة والنموذجية (المقولبة أو المقعّدة : Standard) ـ كما يلاحظ دكمب ، (١٠) (Decamp, Continuum, p.350) ـ الذي يستنتج من جهته وجود تواصل لغوي موجّه توجيهاً اجتماعياً ـ إقتصادياً ، وجود طيف متواصل من الألوان

---

(١٠) « ... Two varieties, the patois and the standard » : هذه « العامية » يُشار إليها عموماً كأنها الانكليزية / الجاميكيّة المولّدة ، ويتكلمها قرابة المليون متكلّم .

الخطابية[11]. وطرفا هذا التواصل غير قابلين للفهم والمعقولية المتبادلين ، فهو تواصل يتضمن كل الالوان الخطابية الوسيطة المحتملة ، من الخطابات الممكن عزوها الى الإنكليزية الجاميكيّة (المختلفة عن النموذج البريطاني) وصولاً الى الخطابات المنتمية إلى المنظومة المولّدة التي يمارسها جماعات اجتماعية من الفلاحين الفقراء ، وهي لغة مولّدة لا تمارسها الطبقات الحضرية الوسطى أو حتى انّها لا تفهمها بالضرورة.

إن كل متكلّم جاميكي يضبط مدىً معيّناً من هذا المجموع التواصلي ، وهو مدىً يتوقف اتساعه على سعة وتنوّع إتصالات المتكلّم الاجتماعيّة . ويضيف د. دكمب إن التحدّث عن تواصل خطابي يعني انّه عندما يكون هناك عيّنتان من الخطاب الجاميكي ، مختلفتان جوهرياً عن بعضهما ، يمكن دوماً أن نجد في عيّنة إضافية مستوىً ثالثاً ، وسيطاً . هذا معناه اذن انّ من الممتنع وصف المنظومة في حدود عاميّتين ، ثلاث عاميّات او ست عاميّات ... غير متواصلة اجتماعياً.

ونظراً لعدد العيّنات الخطابية المأخوذة من المجموعة التواصليّة والمفترض أنّها متآلفة ، فإن المشكلة قد تكمن في تصنيف هذه العيّنات داخل راتوب (Ordre) دالّ . وحين يتخلّى دكمب عن اتخاذ الخصائص الاجتماعية الاقتصاديّة لمخبريه كمعايير للتصنيف ، فإنه يستعمل تقنيةً تسمح له بتصنيف للعيّنات قوامُه فقط الظهور المشترك (Co- occurence) للسمات اللسانية (الصّواتيّة ، البنائيّة والمعجميّة) في كل لسان للقوم (Decamp, Continuum, p.356 et s.) . لكنّه يوضح انّ هذا الشّكل من التنّوع

---

(١١) بالمماثلة مع الطيف الضوئي الذي يعطي تفكيكه تواصل الالوان ، (Decamp, Ibid., p.357) .

اللســانيّ ـ ونعني به التـواصل الخطـابي ـ غير ممكن إلاّ ببعض الشروط والظروف . فلا بد للغة الرسمية السائدة من أن تكون قد وفرّت القاعدة المعجمية للغة المولّـدة في المستعمرات (Créole) . ومن دون ذلك لن يصمد ويـدوم سوى وضــع بسيط من الازدواج اللغوي أو من الثنائية اللغويّة . كذلك لا بد ان يكون فعّالاً وفعلياً تفوق اللغة المُطبِّعة وانْ يكون في الإمكان حدوث ضغوطـات كافيـة من فوق . واذا ظلّت هذه الضغوطات غيـر كافيـة ، فلن يقوم تـواصل خطابي . واذا كان التطبيعُ والضغوطات الفوقية قويّين جداً ، فسوف يتطوّر الوضع في اتجاه تبدّل اللغات لصالح اللون المطبِّع . كذلك ، لا منـاص من فصلٍ نسبي بين الطبقـات والجماعـات الاجتماعيّـة ، الشديدة الانعزال في السابق : فبدون حراكٍ اجتماعي معيّن ، قد لا يعتبر متكلّمو اللغة المولّدة . ان اكتساب اللون المُطبِّع هو عامل لا بد منه في أية ترقية اجتماعية محتملة.

IV/ ٣٠ـ التواصل الخطابي: الأوضاعُ العربيّة

هل يمكنُ لمفهوم التواصل الخطابي انْ يكون مُنوِّراً لدراسة أوضاع أخرى غير الوضع الجاميكي ؟ وهل يمكنه أن يسمح ، مثلاً ، بفهم أفضل للوضــع في الأقطار العـربيّة ؟ هـذه الأوضاع جـرى اعتبارها لأمدٍ طويل كأنها نموذج كلاسيكي للإزدواج اللغوي ، حسب فرغيسون . إن لوناً يسمّى كلاسيكياً ومُقعّداً بدقّة ، كان يقوم فيها بالوظائف الخاصة باللغة (H = اللغة الجليلة) ، وإنّ لونـاً آخر ، قريباً من (H) ، لكنه فقط ذو استعمال محلي وشفهي ، غير مقعّد وغير مطبَّع، كان يحظى بمكانة اللغة (L). وإن مسارات تصفية الاستعمار ومجهودات الإنماء الاقتصادي شجّعت مؤخراً حِراكاً إجتماعياً معيّناً في هذه الأوضاع . وفي غياب الوسائل الاقتصـاديّة الكـافية ، لم تتمكن أبداً الضغوطات الفوقية والتطبيعات اللســانية ، أنْ تفـرضَ

تبدلاً في اللغات لصالح اللون (H) أي العربية الكلاسيكية . ولكن هذه الاخيرة لم تبق ، رغم ذلك ، دون تأثير في جمهور المتكلّمين . حالياً ، تكثرُ التوصيفات من التلوّنات والالوان بين (H) و (L) ، (عربية كلاسيكية ، عربية وسطى ، عربية محلية محكيّة) لدرجة أنّه بات من المناسب ان نتساءل عما إذا كانت إرادةُ التطبيع والضغوطات الفوقيّة والحراكُ الاجتماعي النسبي لم تكفِ ، مع ذلك ، لظهور ما يسميه دكمب تواصلاً خطابياً ، في الحقيقة ، ليس من المؤكّد أنّ خطاب مُفتٍ كبير وخطاب بدوي لا يزال مكابراً في بداوته ، هما ، من اول وهلة ، يمكن فهمهما المتبادل ، وليس من المؤكد أن بين هذين النقيضين لا يوجد مكان محتمل لكل ألوان الخطابات الوسيطة ، مكان محتمل لتواصل يمكن لكل لبناني ، مصري أو تونسي ... ان يراقب مداه بقدْر اتساع اتصالاته الاجتماعيّة وتنوّعها . واذا كان يوجد دائماً في عيّنة إضافية مستوىً ثالثٌ وسيطٌ بين عيّنتين من الخطابات المغربية والجزائرية والسورية ... المختلفة جوهرياً والمفترض أنّها متآلفة ، فلا شك أنّه قد يتعين ان نرى ذلك البرهان على وجود تواصل خطابي .

٣١/IV- التواصل الخطابي : الأوضاع الفرنسيّة

في الأوضاع المتوافقة في فرنسا مع اللهجات المحليّة ، ماذا يمكنُ أن تكون العلاقاتُ بين الثنائية اللغوية والازدواج اللغوي ؟ وهل وجود تواصل خطابي ممكنٌ في هذا الوضع أو ذاك ؟ واذا كانت الأوضاع المتوافقة مع اللهجات المحلية تقيم علاقة ازدواجية بين الألوان القائمة وكانت اللهجة المحليّة تؤدي فيها وظائف اللغة (L) ، فأي لون من الفرنسية يمكنه تأمين وظائف اللغة (H) ؟ وهل سنكتفي لذلك اللهجة الإقليمية أو أيضاً اللون المتداول ؟ ماذا يمكن أنْ تكون وظائف اللون المُطبَّع ؟ في الوضع الالزاسي مثلاً ، رأى اللون

الجرماني نفسه مناطاً ، بلا أي شك ، بمركـز (L) ووظائفهـا ، لكنّ الوظائف (H) قد تكون موزَّعة ليس فقط بين الألوان الفرنسية الماثلة في هذا الوضع (لهجة إقليمية ، لون متداول ، لون مطبَّع ؟) بل قد تعود أيضاً ، جزئياً ، الى الألوان الألمانيّة التي تشترك الفـرنسيةُ معها في بعض الميادين : الإدارة ، الإذاعة المسموعـة والمرئيـة (الراديو والتلفزيون) ، السينما ، الخ . فهل تجتمع الشـروط عند أولئك المتكلمين من الألزاسيين الذين يمارسون الألمانية المطبَّعة ممارسة شفهية ، لكي يظهر تواصل خطـابي بين اللهجة المحليـة الألزاسيّة واللون المطبَّع من الألمانية ؟ بكيفيّةٍ عامّة ، هناك حيث لا تكون اللهجات المحليّة واللغة المطبَّعة منظوماتٍ متقاربة ، لن يمكن (في رأي دكمب) ظهور تواصل خطابي ، ولن تتمكن هذ الأوضاع انْ تتطور إلاّ في اتجاه تبدّل اللغات لصالح اللغة المطبَّعة ، عندما يكون التطبيع والضغوط الفوقيّـة والحراك الإجتمـاعي كافيـاً . في الوقت الحاضر يتعين التسليم بأنها غير كافية ، وذلك على قدر ما تكون الأوضاع التي تتصادف فيها الفرنسيّةُ والفلامانديةُ والألزاسيةُ والباسكيّةُ أو البرتونيّة ، هي بالذات الأوضاع التي تظلّ فيها الثنائية اللغوية هي الأكثف والأعمّ.

أما في الأوضاع حيث تكون (H) و (L) منظومـات متقاربـة ، هناك حيث المطبَّع يصادفُ لهجةً محليّة غاليّة / رومانية أو رومانيّة ، فإن التطبيع اللغويّ والضغوط الفـوقيّة والحـراك الإجتماعي التي يشهدها المجتمع الفرنسي ، قد يتعيّن عليها أن تكون كافيةً لظهور تواصل خطابي.

وحين نعاود قراءة السطور التي كان مارتينه قـد خصّصـها للوضـع البيكاردي كما كـان لا يزال قـائماً في السنـوات ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ ، فإننا قد نكون ميّالين إلى التسليم ، في هذه الحالة ، بوجود تواصل خطابي . في حضور الباريسيين ذوي اللغة الواحدة ، كان

البيكارديّون ذوو اللغة المزدوجة يستعملون لهجتهم الإقليمية الفرنسية ، ان لم نقل اللون المتداول . ثم كانوا يواصلون استعمال هذا اللون ، حتى في ما بينهم ، ثم تجدّد في خطاباتهم ظهورُ السّماتِ الخاصة باللهجة المحلية (مثلاً ، القفل المحلي بـ /ə-/ في الماضي القريب كان يحل محل الشكل الفرنسي للختم بـ /ε -/) ، واخيراً ، مع تناسي حضور الباريسيين ، كانت هذه اللهجة الإقليمية تستعيد موقعها تماماً . فعلى الصعيد الصّوتي ، كانت تفرض نفسها أولاً صوراته محلية : فكلمةChaussette في شكلها الفرنسي اولاً ، صارت [Šoseat] التي جرى لاحقاً إبدالها من الكلمة المحلية [Kəšeat] . وكانت النتيجة النهائية شكلاً خطابياً غير قابلٍ بوجه عام للاختراق إلاّ من قبل المطلّعين أي مزدوجي اللغة أنفسهم .(Martinet, Langue et fonction, p.139- 140)

من المؤكد ان بكمب يرفض عندئذ الكلام على الوان لغويّة متباينة او عاميّات اجتماعيّة متفاصلة تتدرّج بين لون مطبّع من الفرنسية ولهجةٍ محليّة بيكارديّة (لون متداول ، لهجة إقليمية فرنسية . لهجة إقليمية مُبَكْرَدة ، لهجة محلية مُفرنسة ، ثم لهجة محلية بيكارديّة) . ومما لاشك فيه أنّه يستطيع في هذه الحالة ، تشخيص تواصلٍ خطابيّ . وكان يكتفي مارتينه بأن يشدّد ، من جانبه، على أن الانتقال في بعض الأوضاع اللسانية الاجتماعية من شكل كلامي إلى آخر ، لا يتمّ إلاّ بالتدرّج . وعندما يعني تبديل السجل (بمقتضى تبدّل في التخاطب أو أي تبدل آخر في معطيات الوضع المباشر) تغيير منظومة لغويّة ، فإنّ الانتقال من لغةٍ إلى اخرى لا يكون مفاجئاً دائماً ويمكنه الاّ يتمّ إلاّ بالتدرُّج .

ومن المحتمل أنّ يعتبر مفهوم التواصل الخطابي إجرائياً ، بهذا القدر أو ذاك ، وفقاً للأوضاع المطلوب وصفها ، وحسب المنظار الذي يختاره الباحث . ولا يقلّ صحةً عن ذلك ، القولُ إن

التقنيّة التي استعملها دكمب في تحليل العيّنات المأخوذة من التواصل الخطابي ، وفي تصنيفها فقط على قاعدة الظهور المشترك للسمات اللغوية ، يفترض أن تظهر مفيدة ليس فقط لتحليل ظواهر الانتقال من لغة إلى أخرى في أوضاع لغوية ثنائية أو تعدديّة ، بل يمكنها ان تكون مفيدة ايضاً في وضع لغوي أحدي . وعندئذ يمكن لهذه التقنيّة الإسهام في الإحاطة بظواهر الانتقال من لون إلى آخر ، وبالتبدلات التدرجية من سجل إلى آخر ، أو يمكنها ايضاً الإسهام في تحليل سجلات مركبة يبنيها المتكلّم حين يستفيد صراحة من سماتٍ لغوية مختارة من شتى ألوان اللغة نفسها .

التداخلُ اللغويّ

٣٢/IV ـ إتصالُ اللغات وتداخلها

ثنائية لغوية عامّة وازدواج لغوي مستقر ، ثنائية لغوية بلا ازدواج ، وازدواج لغوي بلا ثنائية عامّة ... في الظاهر كبيرٌ هو التنوّع في التفاعلات الممكنة بين لغتين أو أكثر ، لكن ، مهما تكن كيفيّات الاتصال بين اللغات ، ومن زاوية « هذه التجريدات المفيدة ألا وهي المنظومات اللغوية » وحدها (Decamp, Continuum, p. 350) تكون النتيجة هي نفسها دائماً ، إنها التداخل (Interférence) . ثمّة أسبابٌ قويّة للقول إن معرفة متكلّمٍ بعينه للفرنسية والفياتناميّة ، أو معرفته للفرنسيّة والبروفنصاليّة ، للفرنسية المحكيّة في باريس أو الفرنسية المحكيّة في مرسيليا ... هي من متغيّرات الظاهرة الأساسية نفسها ، كما كتب فاينريخ . إن المشكلة بالنسبة إلى المتكلّمين هي في التوافق مع معايير مختلفة في سياقات متباينة ، وهذا يفضي باستمرار إلى تداخل معايير منظومةٍ مع معايير

المنظومة الأخرى . وليس تجنُّبُ التداخل بين منظومات باللغة التباين ، أسهل من تجنّبه بين منظومات متقاربة أو بين ألوان من منظومة واحدة (Weinreich, Unilinguisme, p. 648- 649) . ولن يكون تجنُّب التداخل بين الاسبانيّة والباسكيّة أسهل من تجنبه بين الاسبانيّة والغاليكية أو الاندلسيّة ، وليس تجنبه بين الفرنسيّة والعربيّة أو الفيتناميّة ، أسهل من تجنبّه بين الفرنسيّة والاوكسيتانيّة أو البكارديّة ...

عندما تكون المنظومات اللغوية على احتكاك واتصال ، يمكن أن يطرأ التداخلُ في كل المستويات : في المستوى الإنبنائي الأضعف الذي هو المستوى المعجمي ، وفي المستوى القواعديّ حيث سيكون النّحوُ معنياً تماماً مثل كشوفات الأشكال والمباني ، وحيث لن يحمي بناؤه الضيّق ، بدوره ، المستوى الصوّاتي .

٣٣/IV ـ التداخل المعجمي :

تتوصّلُ مخزوناتُ اللغاتِ المعجميّة إلى الاستمرار في تمايزها ، حين تظلّ كلّ منها مجموعةً من الدلالات مستقلة ، وعندما تُحافظ كلّ من الدلالات على علاقة الدّال / المدلول التي تختصّ بها . ومثاله أنّ المخزونات المعجمية في الفرنسية والروسيّة ستظلّ متمايزة ، إذا ظلّ لدى المزدوج اللغوي الفرنسي ـ الروسي ، دالاّ / Sykr/ و / Nos / محتفظين بعلاقتهما مع مدلولي «Sucre» و «Noce» ولم يظهرا إلاّ في الأوضاع الموجبة استعمال الفرنسية ، بينما دالاّ / Saxar/ و / Nos / مثلاً ، اذ يحتفظان بعلاقتهما مع مدلولي «Sucre» و «Nez» ، فإنهما لا يظهران إلاّ في الأوضاع المستوجبة استعمال الروسيّة . لايزال الأمر ابعد من أن يكون على هذا المنوال ، وغالباً ما يفضي اتصال اللغات الى الملغمة (Amalgame) . فعند المزدوج اللغوي الفرنسي ـ الروسيّ ، يمكنُ لدّالٍ مثل /Nos/

ان يعمل في الواقع من خلال المنظومتين ، والمزدوج اللغة لن يزيل التباس /nos/ إلاّ بتفضيله المدلول /noz/ في الأوضاع التي تفرض استعمال الروسيّة ، والمدلول /Noce/ في الأوضاع التي تفرض استعمال الفرنسية . وبالنسبة إلى هذا المزدوج اللغة ذاته ، سيكون في المقابل للمدلول «Sucre» دالاّن ، بمقتضى الأوضاع (Weinreich, unilinguisme, p. 651) Saxar / Sykr/.

دونَ وقوع تبدّل جذري في الدالاّت ، يمكن للتداخل المعجمي ان يبدّل علاقة الدّال / المدلول ، مثلاً بتوسيع أو بتضييق المدلولات . وعندما يحتفظ المزدوجُ اللغة (الفرنسية ـ العربية) بالمنظومتين وبمخزوناتهما المعجمية منفصلةً ، يكون الدّال / عَرَفَ /Çarafa متعلّقاً بالمدلول «Reconnaître, Connaitre, Savoir» /و/ Konstr Conaitre متعلّقة بمدلولٍ معادلٍ ، لكنّه يملك ، فضلاً عن ذلك ، مدلول « عاش ، خبر » / «Expérimenter Vivre» / . وعندما يتداخل المخزونان المعجميّان ، يمكن لـ /عَرَفَ / أن يكتسب معنى / Expérimenter, Vivre/ غير المتعلّق به ، في المنطلق ، في منظومته ولا في استعمال الناطقين بالعربية وحدها . وبالعكس ، في الخطاب الفرنسي لذوي اللغتين ، سيكمن للدّال / Konstr/ أن يفقد مدلول / Vivre, Expérimenter/ الذي يعود إليه ، مع ذلك ، حتماً في المنظومة الفرنسيّة .

IV/٣٤ ـ الإقتراض المعجمي

يمكنُ للتداخل بين المخزونات المعجمية أن يصل الى حد الاقتراض . وحين اتى بوتييه على ذكر الأوضاع المتوافقة في فرنسا مع وجود اللهجات المحلية ، اشار إلى أنّ مزدوج اللغة غالباً ما يحصل لديه تواطؤ لغويّ (تسوية) بحيث تقترض اللهجة المحليّة وحداتٍ معجميّةً لأجل التقنيّات / الأغراض الجديدة ،

السياسة أو الرياضيـة : في حين أن اللهجة الاقليميـة الفرنسيـة تكون موسومة بترسيمات (Calques) مجتلبة من اللهجة المحليـة . وبعامّة ، يخصّصُ مصطلح ترسيم (نسخ) لاقتراض وحدة معجمية في اللغة A من اللغة B ، في شكل مترجم . لقد انضافت الترسيمة التقريبية : (Salle de séjour) الى ما اقترضته المعجميّة الفرنسية من الانكليزية : (Living- room) المقتصرة أحياناً على : Living . مباشرة أعطت الانكليزية (Sky-Scraper) وبشكـل ترسيمي (gratte-ciel) في الفرنسية ، ولاتزال الفرنسيّة اليوم متردّدة بشأن اقتراض Marketing وإبدالها من ترسيم : زدْ على ذلك أنّ هذه الفكلزيّة (Anglicisme) غير الضـروريّة ، سيئـة التكيّف في الفرنسيـة مـع كلمـات (Études) ، (Technique) أو (Science des Marchés) ... هذا ما يمكن ان نقرأه في قـاموس بـول روبير (Robert Supplément, 1972, p. 306) . إن النّسـخ المعجمي يوفّر أولاً فائـدة تجنُّب المصاعب التي يمثّلهـا استدماج الدّالات ، صواتياً ونَحَوياً ، للمعجمات الغربية ، وادخالها في منظومتها الاستقباليّة ؛ ويحاول من جهة ثانية احترام التعادل في راتوب المدلولات . ولا يكون هذا التعادل ، احياناً ، إلاّ تقريبياً جداً ؛ وأحياناً النَّقلُ الآلي لبعض الأشكال المركّبة من اللغة A إلى اللغة B ، يؤدي الى بناءاتٍ لا يمكن تحليلها ، من وجهة نظر B ، إلاّ بوصفها لا معنىً أو معنىً مضاداً ، كما أشار إلى ذلك فاينريـخ ، حين أورد الأمثلـة الفـرنسيّـة : Station-service, science-fiction ، إن هـذا التعادل المنشود في مستوى المدلولات يمكنه الاّ يكون إلا تقريبياً . عندما تدخل أو تكون قد دخلت معيجماتُ اللهجات المحليّـة بشكل مترجم ، بشكل ترسيمات ، في اللهجات الإقليمية الفرنسيّة ، هـذه الترسيمات التقريبية ، الكثيرة ، ليست دائماً وقائع خطـابيّة لـدى مزدوجي اللغة ، فهي قائمة أحياناً في اللهجات الإقليمية منـذ أمدٍ بعيد جداً إنّ المخبر البيتروي (Biterrois) الذي قدّم القول :

C'est moi qui a coupé la conque إنمـا أنتج ، مـع Couper و Conque ، دالّات تنتمي إلى المنظومة الفرنسيّة . ولكنّ ، بما أنّ التداخل قـد فرض على Couper مـدلول «Casser» ، وفـرض على Conque مدلول «Cuvette» ، فإن النسخ لم يكن يفضي إلّا لتعادلٍ نسبي في راتوب المدلـولات وكان في مستطـاع هذا التقـريب أنّ يفاجيء مستمعاً لا يمارس إلّا اللون المتداول أو أية لهجة إقليميّة أخرى .

IV/٣٥ ـ تدامج دالّ المقترضات

كثيرةٌ هي صيغ التداخل المعجمي ، ونتائجها بالغة التنوّع ؛ بَيْدَ أنّ اللاكثر إدهاشاً ـ رغم أنّه مألوف ـ يظلّ الاقتراض الشامل لوحداتٍ معجميّة ، ذلك الذي لا يفصل ، في المنطلق ، بين الدّال ـ والمدلول . فعندما يـربط وضعٌ لسـاني اجتماعي معيّن ، اللغـة A بمجموع X من الوقائع غير اللغويّة ، ويربط المنظومـة B بمجمـوع آخر ، Y ، (الأوضاع الفرنسيّةُ ـ لهجات إقليمية / لهجات محلية ـ قريبةٌ من هذا المخطّط) ، يستطيع المتكلّم الثنائي اللغة أن يتقيّد ، بكل وضوح ، بعادات الجماعة أن يحكي عن X في اللغة A ، وعن Y في اللغة B . غير أنّ بإمكان الوضع المباشر أن يجعل الثنائي اللغة يتوصّل إلى الكلام عن Y في اللغة A مثلاً ، وسيكون هناك سببٌ كافٍ حتى تفرض نفسها معيجمات B على المنظومـة A . عندئـذٍ يمكن للاقتراض المعجمي أنّ يظلّ مجرّد ظاهرة خطابية ، إما لإننا نجدُ له معادلاً دقيقاً أو تقريبيّاً ، سابق الوجود في A ، وإما لأي سبب آخر ، مثلاً إرادة المتكلّم الثنائي اللغة في الحفاظ على الفصل التام بين اللغتين ...

عندما يتثبّتُ الإقتراضُ في منظومة A يحدث أنّه قد لا يعاني أو أنه لم يُعانِ إلّا قليلاً جداً من التغيّرات ، سواء في مستوى الدّال أم

في مستوى المدلول ، خصوصاً إذا كانت A و B تملكان صواتات وقواعد متقاربة ، وإذا كانت A لا تملك من قبل معيجمة أو معيجمات لمدلولٍ واحدٍ أو دالّ قريب . لكنَّ الوحدة المعجمية المقترضة يمكنها أيضاً أنْ تعاني جميع أنواع التبدّلات . هنا يمكن للثنائية اللغوية الفرنسية ـ العربية في تونس ان تقدّم مثالاً عمّا يحدث في أثناء استدماج دالٍّ على مقترض معجمي ، عندما تكون صواتات وقواعد المنظومات القائمة بالغة التباين . فبعد قيام الانتداب الفرنسي على هذا البلد بقليل ، بدأ الناطقون بالعربيّة يسمعون المستوطنين يتكلّمون على المركز الاجتماعي الجديد لبعض التونسيّين ، مركز العمّال ، وبالأخص العمّال الزراعيين ، في أول وقت . إن التركيب الفرنسي : Les (ou des) ouvriers [Le (de) ZUVRIJE] كان إذن في أساس مقترض مُعجمي مثبوت اليوم في منظومة العربية التونسيّة على شاكلة /Zūfri/ المفردة . إن واحداً من معطيات المنظومة العربيّة تعيّن عليه أن يشجّع إلى حد كبير الاقتراضَ في صورته ذات الحرف البدئي الصّامت /Z/. والواقع انَّ هناك شكلاً عربيّاً مقعداً يدعى الجذر الثلاثي (Racine Trilitère)، مثل ك ـ ت ـ ب ـ ، الذي نحصل منه على أشكال مشتقّة بتباينات الصوائت وبإضافة سوابق ودواخل ... : وعليه فإن ك ـ ت ـ ب ـ يعطي ← كَتَبَ ، كُتِبَ ، كاتِب ، مكتوب ، الخ ، إن المُقترض /Zūfri/ ذا البادىء الصّامت يمكن اعتباره ، على هذا النحو ، مشتقّاً من جذر ثلاثي ز ف ر (Z* - f - r) ويندمج في سلسلة طويلة (/Tunsi/ «tunisien»/ Turki/ «turc»./ mâsri/ «égyptien»...). إن استدماج هذا المقترض في منظومات أشكال لغة الاستقبال هو اليوم على غرار المُفْرد /Zūfti/ مزوّد بجمعٍ تسميه القواعد السلفيّة جمعاً داخلياً أو جمعاً مكسّراً : /zuafria/ .

بينما الفرنسيّة تعارض /f/ خرساء بـ /v/ مرّنة ، بالنسبة إلى الصّوامت الشفهية التي تخرج من بين الأسنان (الشفسنية

Labiodentale) ، فإن المنظومة العربية لا تملك إلا حرفاً صامتاً /ف/ ، الأمر الذي جعل مزدوجي اللغة يوحدون بشكل طبيعي بين /V/ في كلمة /ouvrier/ و /ف/ العربيّة . زدْ على ذلك أن التفخيم[١٢] ، وهو سمة مميزة لمنظومة الصوامت في العربيّة ، قد فُرض هنا على صوامت دالِّ المُقْتَرض ، وذلك في شكل مفخَّم إجمالاً لدرجة أنَّ المقترض يُستدمج اليوم على هذا النحو : [Zu/ofri/e] . إن ما قيل أعلاه ، رغم أنه ناقص ، يفسح في المجال لاستشراق كثافة المعطيات التي تدخل اللعبة في أثناء الاستدماج الصّواتي والبنيوي لدالِّ مقترضٍ معجمي عندما قيم هذا الاقتراض بين لغات غير متقاربة.

IV/٣٦ ـ تدامج مدلول المُقترضات

يقع بعض التغيّرات التي تعانيها الوحدة المعجمية المُقترضة ، في مستوى المدلول ذاته ، ولا يزال المُقترض /Zūfri/ خير مثالٍ هنا . ويمكن التسليمُ بأن هذا المُقترض قد استطاع في وقت أول أن يحتفظ في المنظومة العربية بمدلول قريب نسبياً من المدلول الذي كانت تملكه المعيجمة الفرنسية . إلَّا أنَّ المنظومة العربية كانت تلمك معيجماتٍ للمدلول ذاته أو على الأقل لمدلول قريب ، وهي مستعملة اليوم ، فعلياً ، كمعادلات لـ (ouvrier)، ومثال ذلك : كلمة خادم «domestique» Xaddem ، سابقاً ، يجري استعمالها عموماً في الحوار اليوميّ ، في حين أن عامل Gāmil (ذلك الذي يعمل) تظهر في الصحافة غالباً . ومن جهتها صارت كلمة /Zūfri/ تحظى بمعنى /زقاقي Voyou/ ، وذلك من باب انزلاق المعنى .

---

(١٢) يشار هنا إلى التفخيم ، في التدوين ، بالنّقط الموضوعة تحت الصّوامت .

وليست بغريبة عن هذا الانزلاق في المعنى ، بعضُ المقوّمات اللسانيّة / الاجتماعية . أولاً في المنظومة الفرنسية ذاتها ، لاشك في أن المعيجمة (ouvrier) لم يكن لها سوى مفاهيم تقريظية ، في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين ، وهو عصر كان مصدراً للاقتراض . زدْ على ذلك في الوضع العام الذي اصطنعه الاستعمار ، انَّ الأوضاع المباشرة لم تفتقر إلى خطاب المستعمرين الفرنسيين الذي كان يعطي لكلمة /عامل : ouvrier/ سياقات لغويّة تتضمن في أحسن الأحوال معاني/ ,Chenapan, voleur, menteur fainéant,etc./ ./وغد ، لص ، كذّاب ، تنبل ، الخ ./، خالقاً بذلك الشروط الكافية لكي يستضيف المقترض Zūfri بعض المفاهيم التحقيرية ، ومهيئاً الأجواء للوصول إلى المدلول الرّاهن . وطالما أن العربية التونسية لا تعرف سوى استعمال شفهي ، فليس بالإمكان استثارة شهادة وثائق مكتوبة أو مطبوعة ، وبالتالي قابلة للتأريخ ؛ كما أننا سنبقى في مجال الفرضية ، حين نقول إن انزلاق معنى Zūfri نحو «voyou» أمكنه أنْ يبدأ عندما انتشرت صناعاتٌ محليّة صغيرة في المدن التونسية أو بالقرب منها ، فبات المركز الاجتماعي للعمّال حضريّاً ، وصار لهذا السبب يستبعد ، إلى حدٍ كبير ، سرقات الدجاج المحتملة أو القطاف السّري لبعض الزيتون . عندئذٍ كان بمستطاع المعيجمة (Zūfri) أن تستدمج في مدلولها ما لم يكن أولاً سوى مفاهيم تحقيرية ، وافسحت في المجال أمام معيجمات عربية موجودة قبل الاقتراض ، للدلالة على مراكز اجتماعية لم تكن تبدو في حينها غير مشرّفة تماماً.

بما أنَّ معجم أية لغة يتكيّف مع المتغيّرات الاجتماعية / الاقتصادية والاجتماعية / الثقافية ، فإنه يكون في حال من التجدّد المتواصل ، حتى في وضع لغويّ أحديّ . وفي الأوضاع اللغوية الثنائية والتعدّدية ، يصبح التداخل المعجميُّ والإقتراضُ من

المصادر الممكنة لهذا التجدُّد . ويمكن أن تتكاثر التداخلات والاقتراضات بكل سهولة ، وذلك على قدر ما يكون المعجميُّ هو المستوى الانبنائي الأضعف في المنظومات اللغويّة . إذن ، تتمتّع الوحدات المعجميّة بانتشار سهل ، ويمكن للتداخل أن يبلغ مقادير كبيرة. وعليه قد يصل الأمر بذوي اللغة الثنائية ، في بعض المواقف والأوضاع اللسانية الاجتماعية ، إلى الاكتفاء بصهر مصطلحيهما في مخزون مشترك من الإبداعات والتجديدات المعجمية (Weinreich, Unilinguisme, p. 664 - 665)..

٣٧/IV ـ التداخل الصّواتي

بكيفيّة عامة ، تقاومُ صواتةُ لغةٍ مقاومةً أفضل وأطول من معجميتها ، في حال تعرضها لتأثير التداخل ، وذلك لأنها هي المستوى الذي تكون فيه المنظومة مُنبنية انبناءً مرصوصاً . مع ذلك ، لا مناص من التسليم بأن التبدلات الصوتية والصواتية ، بوصفها نتاجات منتظمة للمقوّمات البنائيّة ، إنما تتراجع أحياناً أمام نتاجات الاقتراض . وعندئذٍ يكون الاقتراض المعجمي واحداً من المواربات ، من الوصلات ، التي يمكن من خلالها أن يتمّ الاقتراض الصّواتي ، وغالباً ما يلعب استدماج دالّ المقترضات المعجميّة دوراً مهماً في تطور صواتات الاستقبال ، وهو دور أعطته الدراسات النقابية مكانةً واسعة . إن الاستيراد الكبير والواسع للمواد المعجمية الأجنبية ، المستدمجة استدماجاً ناقصاً ، يؤدي إلى توزيعات صوتية جديدة وحتى أمام إدخال صوتيات جديدة في لغةٍ ما: هذا هو أصل التمييز الصّواتي بين /f/ و /v/ أو بين /s/ و /z/ في الانكليزية، بين /k/ و /g/ في التشيكيّة، الخ. (Weinreich Uniling-uisme, p. 670).

ولكن ، حتى قبل أنْ يتوصل التداخل الصّواتي إلى الاندراج

في مستوى المنظومات ، لا يكون من النادر في تساوق الأوضـاع الاتصالية بالذات ، في خطـاب ذوي اللغتين ، أن يتعلّق التداخـل بالمنظومات الصواتية بكاملها ، وأن يطول مجمل العادات النطقيّـة المتعلقة بكل من هذه المنظومات . ومثال ذلك ، في تساوق وضـع كـالوضـع الذي يحـافظ على الاتصال والاحتكـاك بين المنظومـة الفرنسية والمنظومة العربية التـونسيّة ، تفسـح مشاهـدةُ الشروط اللسانية الاجتماعية للاتصال ودراسة الصواتـات القائمـة دراسةً تباينيةً ، المجال امام التوقّع بأنّ التداخل في خطاب التونسيين ذوي اللغتين يتعيّن عليه ان يطاول تقريباً كل المنظومة الصّواتية الفرنسية (سواء على مستوى الصوائت أم على مستوى الصّـوامت) وكل العادات النطقية التي تتضمنها هذه المنظومة. إن مشاهدة الوقائع تبيّن ان في إمكـان كـل التـداخـلات الممكن تـوقّعهـا أن تتحيّن وتتفعل[13] ، ولكن من الواضح تماماً أنّ كمّ التداخـلات المتحينة ونوعها ، يتوقفان على التاريخ اللغوي الخاص بكـل متكلّم (العمر، الكيفية ، المكان ، أو زمن اكتساب اللغات الاتصالية ـ) على الأقل ، مثلما يتوقفان على مقومات الوضـع المباشـر لخطابـه (المتخـاطب (ون) ، الموضوع المعالج، انتباه المتكلم لخطابه ، ظرف التعب...).

مهما يكن الأمر ، عندما نشاهد مثلاً التلفّظات التي اكتسبتها الصوائت الشفهيّة الفـرنسيّة في خطـاب التونسيين ذوي اللغتين حيث تُفرض عاداتٌ نطقية مرتبطة تماماً بالصّواتة العربيّة ، يكون ثمة مثـلٌ مفيد عمّـا يمكن أن يؤولَ إليه التـداخل الصّـواتي . ومعيار الفرنسيّة يجعل متكلّمي هذه المنظـومة متسـامحين نسبياً في مـا يختص بتلفظات الصوائت الشفهية ذات الفتحة الصوتية المتوسطة

---

(13) Juliette Garmadi - Le Cloirec, Le français parlé en Tunisie, description phonologique et syntaxique; Thèse de doctorat d'Etat, non publiée.

/ɔ, o, œ, Ø, ε, e/ . وبـالعكس ، فإن تغيّـرات طارئـة على تلفظات الصوائت الاكثر استقراراً في المنظومـة /i, y, u, a/ ستثير لـديهم الدهشة أو الاستنكار. والحال ، فإن فرص الاندهاش لن تنعدم ، لأن التمييز لدى الناطقين بالعربية من ذوي اللغتين هـو بكيفيّة عـامة صعب الصّمود ولا يستمر هذا التمييز بين سلسلتين من الصوائت المنطوقة من الامام: /i, e, ε/ و /y, Ø, œ/ إلاّ بصعوبـة، ويمكن أن تصبح /i/,/y/ /e/ تصبح [Ø]، /e/ [œ]، وبالعكس: /y/ تصبح [i]، الخ.

هناك لدى الناطقين بلغتين نزعةٌ عامّة أخرى هي تلـك التي تمركز ، في بعض السّيـاقات ، الصـوائت الاكثر انغـلاقاً /i,y,u/ ، والصوائت الأماميّة في أغلبها ، مما يعطي لـ /i/ و /y/ مثلاً تلفظات مفتوحة وبدون نطق شفهي دقيق جداً، ينزع نحو [ə]. ينبغي البحث خارج المنظومات الصّوتية القائمة ، عن أصل هذا التداخـل . إن الفـرنسيـة المعـاصـرة تخضـع لفظ هـذه الصّـوامت لضغط لفظ صوائتها. بينما العربيـة يحدث فيهـا العكس إذْ أن صوامتيّـةً ملفوظٍ ما هي التي تضغط على لفظ الصّوائت . وهذا يحدث في المنظومـات الصّواتية حيث ترغم الصوامتُ المطبـوعةُ بطـابع صـوتي ملائم ، الصوائتَ على حريّات تأليفية كبيرة . ان التفخيم يتصرّف بطابـع صوتي ملائم في إطار المنظومة الصّوامتيّة العربية ، والتداخل الذي يحدث حينئذ في مستوى المنظومات الصوامتيّة ، يفرض أولاً التفخيم العربي على تلفظّات الصوامت الفرنسية /t/ يمكن أن تلفظ /ط/ ، /s/ [S]، /r/ [r] ، الخ . ثم تكتسب الصوائتُ الفرنسيّة حريّات تأليفية وتركيبية لا تملكها في منظومتها ، وتتكيّف مع التفخيم المفروض على الصّوامت.

في الوضع اللسـاني الاجتماعي القـائم في تونس ، تعتبـر الفـرنسية اللغـة الثانيـة لذوي اللغتين . وهـذا واحد من شـروط الاحتكاك التي تجعل هذه اللغة اكثر تعرّضاً لمعاناة التداخل مما هو حال المنظومة العربيّة . مع ذلك ، ليس مؤكّداً انّ العربية ذاتها في

منأىً كلّي عن التداخل . فالمقترضات المعجميّة القديمة ، تلك التي استطاعت العربية التونسية أخذها عن الفرنسية في العصر الذي كان فيه اتصال اللغات أقل وثوقاً ، بلا شك ، تبيّن أنّ المنظومة العربية كانت تقاوم التداخل الصّواتي مقاومةً حصينة . فهناك حيث ترابط الإرنان الفرنسي يعارض /p~b/ و /f~v/ ، لا تملك المنظومة العربية إلّا صويتين /ب/ و/ف/ ؛ كما أن المعيمات المجتلبة منذ تاريخ قديم ، /(z) ouvrier (s)/ و /Vapeur/ ، جرى تثبيتها في العربية بصورة /Zūfri/ و /babur/ . ولكن يمكن اليوم أن نسمع بخصوص Pétrole في الخطاب العربي ، الى جانب [bitrul] التي لا تقدّم تنازلاً كبيراً للصواتيّة الفرنسية ، تردّداتٍ تتراوح بين [pitrul] و[betrol] . فأية كميّة من المواد المعجمية الفرنسية غير المستدمجة تماماً ، كانت ستلزم حتى تظهر في العربية توزيعاتٌ جديدة للصّويتات ؟ وكم من الوقت سيلزم لاتصالٍ لغوي وثيق حتى تطور المنظومة العربية تعارضاً بين /p~b/ أو /f~v ؟

٣٨/IV ـ التداخل النّحوي

في الغالب تكون مهمّةً المقاوماتُ البنيويّةُ للتداخل النّحوي وللاقتراض الذي يمكنه أنْ يترتّب عليه . إن المقاومات غير اللغوية يمكنها ، هي أيضاً أنْ تكون شديدةً في هذا الحال ، ويمكن القولُ إن الردود المعيارية للمتكلّمين المعنيّين مصدرها الدفاع الذاتي عن الجماعة كجماعة . مع ذلك يظل صحيحاً القول إن التداخل والاقتراض النّحويّين هما اليوم من البيّنات المستخلصة مراراً وتكراراً .

إن الأمثلة التي أخذها غومبرز وويلسون من الماراثيّة ، الأوردية والكانّادية المحكيّة في كوبوار بما يكفي المرء مؤونة البحث عن أمثلة أخرى حتى يدلّل على وجود وكيفيّات التداخل والاقتراض

بين منظومات كليمـات صرفيـة (morphèmes) في وضـع اتصـالي (راجع سابقاً ، 12/IV و 13/IV).

إنّ الترسيمات النحويّة (أكانت مجرّد وقائع خطابية لـذوي اللغتين أم كـانت مقترضـات سابقـة ، مثبوتـة في المنظـومـات) والتداخل النّحوي الذي تنجم عنه ، إذا استطاعت أحياناً أن تمرّ دون أن يلحظها مستعملو اللغات المعنيّة ، فهي ، مع ذلك ، واقع لغويّ بيّن . ويمكن للاتصال بين المنظومة العربية والمنظومة الفرنسيّة في الوضع اللساني/ الاجتماعي التونسي الرّاهن أنّ يقدّم عدّة أمثلة تدلّ بكل وضوح على أُوالات التداخل النّحوي . على الرّغم من عدم وجود دراسات إحصائيّة موضوعة بجديّة لأغراض المقارنة ، على حدّ علمنا ، فقد جرت العادةُ على التكرار بأنّ طريقة التوسع المميّزة في النّحو الفرنسي قد تكون التـوسـع بـالإلحاق[14] ، في حين أن النحو العربي قد يفضّل طرق التوسيع بالتراكيب والتناسق . إنطلاقاً من هذا ، تُعزى بوجه عام للتداخل النّحوي الذي تفرضه الفرنسية ، الالحاقاتُ التي يبدو أنّها تتكاثر في الخطاب العربي للتونسيين من ذوي اللغتين ، على حساب التراكيب والتناسقات . وعليه ، سوف تُعزى الى ضغط النّحو الفرنسي ملفوظـات مثل : **ورغم أنّـه كان مريضاً فقد حضَرَ الاحتفـال** «bien qu'il fût malade, il assista à la cérémonie» بدلاً من : **كان مريضاً ومع ذلك فقد حضر الاحتفال** ؛ «Il était malade et malgré ça il assista à la cérémonie» أو أيضاً :

يستقبل سفير العراق الذي أبلغه رسالةً ،

«Il a reçu l'ambassadeur d'Irak qui lui a remis une lettre».

---

(١٤) يمكن أن تكون الألوانُ الفرنسية ذاتها مختلفة حول هذه النقطة ، وليس من المؤكد أنّ الألوان المطبّعة ، المتداولة ، الشعبيّة أو اللهجات الاقليمية تستعمل الإلحاق والتناسق والتراكيب بطريقة واحدة .

بدلاً من :

يستقبل سفير العراق وأبلغه السّفيرُ رسالةً «Il a reçu l'ambassadeur d'Irak, et l'ambassadeur lui a remis une lettre»[15].

كما يُعزى إلى التداخل الذي تفرضه الفرنسيّة :

النّقل المألوف أكثر فأكثر للفاعل الذي يظهر قبل وليس بعد المسند الفعلي.

حريات الوضع المكتسبة حديثاً من جراء هذه التوسعات بالإلحاق ، ألا وهي المفعولات فيها التقليديّة.

التوسعات التي يمكنها هي أيضاً أن تسبق من الآن فصاعداً مجموعة المسند/الفاعل ، وهذا بخلاف ما كانت تستلزمه القواعد النحوية العربية الأقدَم.

التعديل الذي طرأ على مفهوم الصورة (Notion d'aspect) ، الذي يبقى مع ذلك نمطاً وظيفياً للمنظومة الشفهية العربية ، لصالح مفهوم الزمن (Notion de temps).

ظهور كُليماتٍ وظيفيّة هناك حيث لم تكن مطلوبة من قبل : الخ.

غير أن الفرنسيّة تبدو مؤهّلةً ، أكثر من العربية أيضاً ، لمعاناة التداخل النّحوي في السياق اللساني ـ الاجتماعي الرّاهن لتونس ، ذلك لأنّها اللغة الثانية التي يكتسبها ذوو اللغتين فيها . تُظهِر الدراسة التضادية للقواعد القائمة أن المنظومة الشفهية الفرنسية ، مثلاً ، يفترض فيها أن تكون مجالاً لتداخلاتٍ مهمّة ، وإننا نجد كثيراً من التداخلات الممكن توقعها متحقّقة في الخطاب الفرنسي للناطقين بالعربية[16] . إن المنظومة الشفهيّة للعربيّة التونسية تُبنى أساساً ، إنطلاقاً من متضادين ، أحدهما تضاد الصيغ : أمريّة ~ غير

---

(15) Salah GARMADI, « Quelques faits de contact franco-arabe en Tunisie », CERES, Université de Tunis, 1966, 56 p.

(16) Juliette GARMADI- Le CLOIREC, le français parlé en Tunisie.

أمريّة ، وثانيهما تضاد الصّور : كاملة ~ غير كاملة (ناقصة) . في كل تركيب تعبيري شفهي غير أمريّ ، يتوجّب على المتكلّم أنْ يشير إلى أنّه يعتبر الإجراء أو الحالة المدلول عليها بالمعيجمة الشفهيّة (صورة كاملة) إجراءً كاملاً ، أو بخلاف ذلك ، الى أنه لا يأخذ في الاعتبار اكتمال أو عدم اكتمال الحالة أو الاجراء المدلوليّ (الناقص) . وعندما تعطي إشارة الزّمان ، تظلّ خارجيّة بالنسبة الى التركيب التعبيري الشفهي ، وهي غير مقعّدة ، ويتعيّن عليها أن تستعين في اغلب الأحيان ، بالمصادر المعجمية .

إذن ، لا مناصَ من أنْ نرتقب من المتكلّم الناطق بالعربية ، أن يواجه في خطابه الفرنسي ، وبالدرجة الأولى ، صعوبات التلفّظ بالمتضادات القائمة بين الصيغ اللفظية (الشفهية) غير الأمريّة : الصيغة الدلاليّة ،صيغة نصب الفعل (Subjonctif) أو الصيغة الشرطيّة . كذلك لا بد لتضادات الأزمنة أن تطرح عدداً معيناً من المشاكل ، ففي ملفوظات مثل :

Au moment où on m'a enseigné le français, ça existera;

أو أيضاً :

On travaillait le matin au collège, et le soir, on le passe à l'atelier,

يفرض ذو اللغتين محتوى صورياً كاملاً على صيغ الماضي ، وعندئذٍ يكون الناقص مدلولاً عليه بصيغ المستقبل والحاضر . وبالتالي ، فإن الاتجاه إلى استعمال المصادر الخارجة عن التراكيب التعبيريّة الشفهيّة للدلالة على الزّمن ، يكون واقعياً :

à mon époque (passé) on nous enseigne (inaccompli) le français; y avait (passé) la garde nationale elle empêche (inaccompli) les curieux, etc.

في المنظومة العربية يكفي التضاد بين صور الناقص والتّام ، في الظاهر ، لإقامة رباط إلحاقي، بواسطة بناء حذفيّ بسيط ،

وعندئذٍ بـالذّات يظهـرُ نسغٌ نحـويٌ فارضـاً نفسه على ملفـوظات فرنسية ، مثل :

Je sais pas (si?) ils l'ont entré chez lui; j'ai vu (que) ça parle toujours des inondations...

وعندها لا بد من الاستنتاج ، في ملفوظات مماثلة ، إن التوسع بالإلحاق يتراجع في الواقع أمام التوسع بتراكب بسيط ، وهذا الأمر يظهر أيضاً في ملفوظات مثل :

ils veulent ils arrachent
(Ils veulent arracher)
on va on devient
(on va devenir)
Je l'ai mangé je me suis pas aperçu
(Je l'ai mangé sans m'en apercevoir), etc.

عندما يتوحّد التداخل المعجمي والتداخل القواعدي والتداخل الصواتي في الخطاب الفرنسي لمتكلّم عربي ذي لغتين ، يشخّص الفرنسي ذو اللغة الواحدة ، وغيـر المتخصّص ، ما يسمّيـه لهجة شمـالية افـريقية قـويّة ، هنـاك حيث يمكنُ للسانيين واللسـانيين الاجتماعيين أن يشخّصوا لوناً من فـرنسيّة لا تختلف في الـواقع مزاياها وأصلها ، من حيث الطبيعـة ، عن مزايا وأصل اللهجـات الإقليمية الفرنسية ، خصوصاً تلك اللهجات ذوات المواقع اللغوية المتصلة مع لهجة محلّية ، مثلاً.

وحتى إذا استطاع التداخـل اللغوي أن يكـون ، في بعض الحالات ، خاضعاً ، طوعياً وبفعالية نسبية ، لرقابة المتكلّمين ، فإنه يظهر كأنه محتوم تقريباً في مواقع إتصال اللغات . وعندما يتهيّـأ الوضعُ اللسانيّ الاجتماعي لانتقالات رفيعة الـوتيرة من لغـةٍ إلى أخرى ، أو أيضاً عندما يفرضُ ذلك ، فإن هذا الوضـع يمكنه التوصل في مدىً طويل نسبياً ، الى إحلال الاستعمال المألوف للغةٍ ما ، محل الاستعمال المألوف للغةٍ أخرى ، دون المرور بمرحلة انتقالية.

ولكنّ ، بنتيجة الاتصال الوثيق والانتقالات المتتالية من لغةٍ الى أخرى ، يمكن للتداخل انّ يتّخذ نسباً كافيـةً لكي لا يبقى في خطاب ذوي اللغتين جملة واحدة تامّـة ، ولا حتى مقطع من قـول ملفوظ ، مهما يكن قصيـراً ، وقابـلاً للعزو إلى واحـدةٍ من اللغتين القائمتين . إنّ التفريق بين اللغاتِ ينهارُ ، ويغدو عندئذ من الممكن تصور نتيجة التـداخل في صـورة الإبدال المتـدرّج لمنظومـةٍ من أخرى .

اللغـات المزيــج (Sabirs)
واللغات المـولّدة (Créols)

٣٩/IV ـ مثال لغة مزيج : الطاي بوا

يمكنُ لمقوّماتِ وضعٍ لغوي ثنائيٍّ ، لسانيّة / اجتماعية ، انْ تحضُر لانهيار التفـريق بينَ اللغات المتّصلـة، وللإبـدال التدّرجي لمنظومةٍ من أخرى ، دون انْ تجتمع مع ذلك الشّروطُ الخاصة بظهور لغة مزيج ونموّها . في المقابل ، يُقدِّر بوجه عام ان وضعاً مماثلاً يفضي ، بعد حقبة طـويلة نسبيـاً من التداخـل اللغوي المُـرتَجل (المصطلح لبكمب، Introduction, p.22) ، إلى استتباب الاحـديّة اللغوية لصالح اللغة التي تتكلّمها الجماعاتُ الاجتماعيّة المهيمنة ، تلك اللغة التي تملكُ لوناً مطبّعاً ومقعّداً .

في الواقع ، جرى وضـعُ نظريّات شتّى عندما وُصفت الوقائع اللسانيّة وشروط ظهور اللغات المزيج ونموّها (وكذلكَ وقائع اللغات المولّدة التي تحوّلت اليها بعض اللغات المزيج) . وسيكونُ عرضُ شتى المقاربات والنظريّات هذه ، ميسوراً اكثر ، إذا حوت الإحاطةُ

أولاً بوصف لغة مزيج . هنا ستكون الطاي بوا (Tây bôi) هي المثال المختار .

منذ ١٨٨٨ كان هيهو شوشلر (Hugo Schuchart) يشير الى وجود الطاي بوا ، مدللاً عليه باسم الرّطانة الفرنسية ـ الأنّاميّة (Jar-gon franco - annamite) . ومنذ ١٨٦٠ كانت هذه اللغة المزيج تُستعمل بين مستعمرين فرنسيين وبحّارة ، وخدم أو تجّار في ما كان يسمّى انذاك بالكوشينشين (Cochinchine)(*) . تبدو الطاي بوا كأنّها خارجة من العاميات الفرنسيّة ذاتها حيث كانت تستعمل بين الرتباء او الجنود الفرنسيّين والمساعدين المطوّعين محلياً . وكانت ، الطاي بوا ذات استعمال رائج حتى العام ١٩٥٤ في مصالح الجيش الفرنسي، وحتى العام ١٩٦٠ ، في كل مكان يوجد فيه تمركز كافٍ من المتكلّمين الفرنسيين ، بالأخص في Hué وسايغون . لكن رحيل الفرنسيين الذين سرعان ما استبدلوا بالعديد العسكري الأميركي ، أدّى تقريباً إلى انطفاءٍ كلّي للطاي بوا . في مقال منشور سنة ١٩٧١ ، يلاحظ جون إ . رايتك (John E. Reinecke, Pidgin French, p.47-56) أنّه لم يجد في ذلك الحين مخبرين لا زالوا يتكلّمون اللغة المزيج ، مما اضطره الى الاستعانة فقط بذاكرة مخبرين مسنّين لكي يضع مدوّنته . مهما يكن الأمر ، كانت الطاي بوا قد تأصّلت بقوة ، وذاعت بشكل كافٍ واستقرت في فترة من تاريخها ـ مع الكتابة الفيتنامية الإملائية ـ حتى استعملت في الرسوم المتحركة لبعض الصحف المحليّة .

(*) Coe chin + chine القسم الجنوبي من الفيتنام ، مستعمرة فرنسية قديمة . استقلت سنة ١٩٤٦ والحقت بالفيتنام سنة ١٩٤٨ (المترجم) .

IV/٤٠ ـ صواتة الطاي بوا وعلم أصواتها

يوضح راينك (Pidgin French, p.48) ان اللغة المزيج التي يتكلمها المستعمرون كانت تبتعد قليلاً عن عادات الفرنسيّة النطقيّة . وفي المقابل ، كان يُكتشف فيها معظمُ العادات التي تتضمنها المنظومة الفيتنامية عندما كان يستعملها سكان البلاد . وهكذا كان يمكن ان يلاحظ فيها ، مثلاً ، ظهور خمس طبقات صوتية (لهجات) من السايغونية ، حتى وإن كانت هذه الطبقات قد فقدت كل قيمة صواتيّة . والمجموعات الصوامتيّة في كل الأوضاع ، كانت مخفوضةً فيها إلى صامت واحد [piastre → [bi.ăt] أو موزّعة على مختلف المقاطع [apte → [ap.tyw]; [frapper → fyw.rap.bet] الخ . فإلى أي حدٍ يمكن عندئذ الكلامُ على صواتية وعمل أصوات خاصّين باللغة المزيج ؟

IV/٤١ ـ معجم الطاي بوا ونحوها

يمتازُ معجمُ هذه اللغة المزيج ، جوهرياً ، بأمرين : فهو مؤلف بنسبة اكثر ٩٠٪ من وحداتٍ مُقترضة من الفرنسيّة ؛ وهو ، فوق ذلك ، محدودٌ جداً ، إن دالاً مقترضاً يشمل غالباً مدلولاتٍ فرنسيّة شتى

[bov] تعني جلد peau كما تعني قشرة écorce ؛

[mɛn.žet] تعني أكل manger كما تعني عضّ mordre؛

[pas bon] تعني سيء mauvais كما تعني مثلوم émoussé (للآلة) .

الخ .

وكثيرة هي التوريات = [Kym.ba.LʌWnm] =comme ballon enfler] (Reinecke, Pidgin French, p. 50).

اما فيما يختص بالنحو ، فهناك ملاحظة تبدو ذات دلالة بوجه

خاص (المرجع السابق ، ص٤٨) : إن المعلّمين الفرنسيين يبسّطون عمداً الأشكال والنّحو ويستعملون مقاطع من الفيتناميّة حين يتكلمون مع خدمهم . ومما لا شك فيه ان المنظّرين الذين يتحدّثون عن لا قواعدية اللغات المزيج ، سيرون في ملاحظة راينك فاتحة وصف نحويّ للطاي بوا . وبالإجمال ، يبدو ان كل بقية مقال راينك تسير في هذا الاتجاه ، وتبرهن ، على الأقل ، على أن نحو الطاي بوا يفتقر الى عدد كبير من السّمات أو التعارضات التي تكوّن القواعد الفرنسيّة : أسماء بلا تعريف ، انواع غير مميّزة ، عدد يدلّ عليه السّياق ، صفات غير قابلة للتبدل، افعال ايضاً غير قابلة للتبدل ، كل الأشكال الفعلية مخفوضة إلى ما يمكن أن يكون عليه مصدر التصريف الأول .

(مثال ذلك boir = [bvu.wei] *bouver :
cuire = [kwt.set] *cuiser ،
vouloir = [wvu.kœr] *vouler ، الخ).

أما الأزمنة والصور فيقدّمها السياقُ الذي تكوّنه بعض الظروف النّادرة أو التوسعات الظرفيّة ، مثلاً : hier = jour avant ، الخ . (Reinecke, Pidgin French, p.51-52) ، اليكم بعض العبارات التي أوردها المؤلّف :

- Moi bouver thé jour avant (j'ai pris le thé hier);

- Moyen manger (Vous pouvez / tu peux manger);

(ou le dîner est servi)

- Moi pas beaucoup vieux avec toi (je suis plus jeune que toi/ vous);

- Moi question lui venir café (je vais lui demander s'il vient au café)

التي تعطي صوتياً (كما يلاحظ راينك : Pidgin French, p.52) :

[mc kε (t) sʌ vwm lĩ wyw ni a kafei]

IV/٤٢ ـ العدوى

إن المنظومات التي تسمّى اليوم لغات مزيج[١٧] (وأحياناً تسمى pidgins لغة مشوّهة) جرى غالباً التدليل عليها كلغات مصابة بالعدوى ، كلغات مختلفة ، كلغات متمازجة ، وهذا ما تبدو الطاي بوا مسوّغةً له .

بهذه التسميات كان يُشدَّد على ما كان يُقدَّرُ أنَّه أصل اللغات المزيج وسمتُها المحدَّدة أيضاً . وبالتالي فإنَّ البيِّنة الاولى هي أنَّ اللغات المزيج لم توجد ولم تتطوَّر إلاَّ في أوضاع لغات متّصلة ، وان من المحتَّم حينئذٍ ان تكون او انها كانت خاضعة (مثل كل اللغات الاتصالية الأخرى) للتداخل اللغويّ . إن الضغط الثابت للتداخل يفرض على اللغة المزيج تبدلاّتٍ سريعةً جداً في بعض الأحيان . ومن البيّن انَّ بُناها غير متآلفة ولا مستقرّة . وكونُ صواتتها وعلم اصواتها وقواعدها ومعجميتها آتية من مصادر مختلفة ، لا يمكنه أنْ يكون السّمة المحدَّدة للغة المزيج . ففي الواقع ، كل لغة كانت أو هي في وضع اتصاليّ ، مهما تكن شروط هذا الاتصال ، هي لغة مصابة بالعدوى ، تمازجية ومختلطة . لا يُحكى عن لغة مزيج بصدد الانكليزيّة المُطبَّعة اليوم ، حتى وإن لم تكن سوى نتيجة إصابة منظومة جرمانية بعدوى منظورة رومانيّة . والفرنسية الرّاهنة يمكنها ، إلى حدٍ معيّن ، انْ تُعتبرُ لغةً مصابةً بالعدوى ، ويمكن اعتبار الفرنسية / الانكليزية (Le franglais) واقعاً وحقيقة .

---

(١٧) في باديء الأمر ، كانت مفردة Sabir ، مثل مفردة Lingua franca ، تدلّ على واقع لساني ملحوظ حول البحر المتوسط ، منذ نهاية القرن الثالث عشر .

٤٣/IV ـ الخفض ، التبسيط ، الإفقار

عندما تُوصف اللغةُ المزيج بأنها محكيٌ أدنى أو لغة حيلة ، إنما ننحاز إلى جانب النظريّات التي تحدّد اللغة المزيج بوصفها خفضاً ، تبسيطاً أو أيضاً إفقاراً للغة أو لعدّة لغات أخرى . ومرّة أخرى ، وللوهلة الأولى ، فإنّ ما نعلمه عن الطاي بوا يبدو مبرّراً للتسميات التي لا يمكن استعمالها هكذا بلا حصر أو تقييد .

وحين قارن ويليام ج . ساماران (Lingua franca, p.668) اللغة المزيج (Sango) باللغة (Ngbandi) التي زوّدتها ببعض هذه المكوّنات ، برهن على أنّ من غير المسوّغ تصوّر منظومة الأولى كأنها الخفض التبسيطي الوحيد لمنظومة الثانية . مثلاً ، تملك صواتةُ اللغة Ngbandi منظومة صوتيّة ذات ثلاثة وحدات ملائمة ، منظومة صوتيّة تستفيد منها كثيراً منظومة الأشكال النحويّة للغة (ضمائر ، أشكال وأزمنة الأفعال ، تسمية لافعلية ، الخ .) ، والسانغو ، من جهتها ، لا تستعمل دائماً الأصوات الخاصة بها كوحدات ملائمة ، فيترتب على ذلك تنظيم لأشكالها القواعديّة بحيث يمكنها في الواقع ، وبالمقارنة ، أنْ تظهر ذات بساطة كبيرة بالنسبة إلى منظومة نغباندية . ولكن ، في عمل السانغو ، تتلقى صورة أو زمن (صيغ فعلية مقعّدة في النغباندية) دالاً تلميحيّاً ، وهكذا يتمّ استعمال الموارد المعجميّة والنحويّة التي يمكن اعتبارها معوّضةً عن بساطة منظومة كليمات السانغو . وإذا جرى الكلام على خفض أو إفقار الأشكال القواعدية ، فسوف يتعيّن عندئذ الكلامُ على توسع في مستويات أخرى من اللغة .

هل من المناسب الكلام ، فقط ، على خفض وتبسيط وإفقار عندما تكون اللغة المزيج (أو لغة مزيج قديمة استحالت لغةً مولّدةً) المستندة إلى أساس فرنسي أو برتغالي ، مؤسسةً لمنظومتها

اللفظية والفعلية على تعارضات صورية/ مفهوميّة ، في حين أنّ الفرنسيّة والبرتغالية أعطتا ، كلتاهما ، الأوليّة لتعارضات الأزمنة ؟ وأين يمكن حينئذٍ أن يكون التبسيطُ والإفقارُ؟ والحال، فإنّ كثيراً من اللغات المزيج والمولّدة تملك ، على هذا النحو ، تعارضات فعلية/ صوريّة ، خصوصاً بين لغات الأطلسي . يبدو أنّه من اللازم أن نرى في ذلك أكثرَ من خفض أو تبسيط ، ويتعين أن نرى فيه واحداً من الإسهامات المهمّة للغات الإفريقية في صوغ اللغات المزيج والمولّدة ، وسبباً من الأسباب التوحيدية المنسوبة غالباً إلى المساهمة الافريقيّة في تكوين اللغات المزيج والمولّدة .

IV/ ٤٤ـ حقائقُ اللغاتِ المزيجِ والأحكامُ القيميّة

جرى التدليل ، غالباً ، على اللغات المزيج (وعلى اللغات المولّدة ، أحياناً) كانها عاميّات ، لهجات خاصّة ، رطانات ، زنجيّات صغيرات ، الخ . وفي الحقيقة ، إن المصطلح الخافض للقيمة أحياناً لا يترجم أي شيء آخر سوى التردد في الاعتراف بهذه الحقائق اللغوية كما هي . وإن السؤال الذي تمّ تجاوزه اليوم جزئياً ، قد طرح مراراً وتكراراً : هل كانت اللغات المزيج لغاتٍ أم لا ؟ في عداد الباحثين أنفسهم ، كانوا نادرين أولئك الذين لفتوا الانتباه إلى كون اللغات المزيج ذوات استعمال شائع جداً ، وإلى أنّها كانت تستعمل في الإبلاغ بنجاح تامّ ، والحال ، إذا كان ثمة لغة منذ أن يتمّ الإبلاغ فيّ إطار نطق مزدوج من الطراز الصّوتي ، (Martinet, langue et fonction, p.147) فعندئذٍ يبدو من الصعوبة بمكانٍ حرمانُ اللغات المزيج من مركز المنظومات اللغوية ، وذلك على الرغم من عدم استقرار بناها وعدم تآلفها.

وحتّى اليوم لاتزال مفردة pidgin ، مرادفةً لمفردة Sabir ، فهي مشتقة من الانكليزية Business ، وعندما يدلّل على اللغات المزيج

بوصفها لغاتٍ تجارية ولغات علاقات شعبية ، إنما تُبْرِز وتُميِّز أولى تصنّعاتها الوظيفية ، نعني التصنع الذي يجعلها لغة تداوليّة شعبية بين مجموعات اجتماعية لا تجمعها من جهة ثانية أية وسيلة إبلاغ لغوي أخرى . وهذا لا يمكنه أن يفيد في تعريف اللغات المزيج إلاّ إذا أضفنا القول إنها ليست اللغة الأولى المكتسبة من طرف أيٍ من متكلميها ، وانها لا تفيد احداً بوصفها لغة الحياة العائلية الحميمة . فما من احد ينصِّب نفسه مدافعاً عن لغة مزيج ، حتى وان كانت مستعملة بشكل مألوف ؛ وما من احد يكنُّ لها شعورَ الولاء الذي يكنّه غالباً تجاه لغة تسمى اللغة الأم . وما من احدٍ يحاول تدوينها وقوننتها ، ولا حتى تطبيعها ؛ ولا يهتّم احدٌ بإمكاناتها المستقبليّة .

إن اللغات المزيج ، لغاتٌ مكمِّلة ، ذات استعمال شفهي محض بالنسبة الى جماعات اجتماعية محرومة واميّة في معظم الاحيان ، لم توجد ابداً إلاّ في الأوضاع الاتصاليّة حيث يفرض عليها ضغطُ التداخل المتواصل تغيّراتٍ لغوية سريعة في كل لحظة . وكل هذا يجعل أن افضل مميّزٍ للغةٍ مزيج هو عدم الاستقرار الدائم في بُناها ، وافتقارها الى الاستقلال عن اللغات الاتصاليّة الاخرى ؛ عدم الاستقرار والافتقار الى الاستقلال اللذان تمكّنت من إخفائهما التوصيفات التصاوقيّة للغات المزيج .

IV/ ٥-٤-تعدّد انساب اللغات المزيج والمولّدة

إن لعبة المواقف اللغوية المتباينة التي تستثيرها اللغاتُ المزيج ليست بوجه الاحتمال غريبةً عن عدم اكتراث الباحثين انفسهم، المعلن منذ امد طويل تجاه هذه المنظومات. وبالتالي منذ نصف قرن فقط ، بدأ الانكبابُ على النّظر في وقائعها اللغوية الرّاهنة ، وعلى وصفها ، وفهم الشروط التاريخية والاجتماعية لتطوّرها ونموّها أيضاً.

بالنسبة الى نظريّة تعدّد الأنساب ، استطاعت اللغاتُ المزيج أن تظهر وأن تنمو مستقلّة عن بعضها ، بوصفها أجوبةً عن أوضاع لغويّة اتصالية مختلفة . كانت نظرية Baby talk واحدةً من أولى نظريات تعدّد الأنساب : فكان المعلّمون والزرّاعون أو التّجار يستعملون في التخاطب مع خدمهم وعبيدهم أو زبائنهم ، نوعاً من الخطاب الطفلي قوامه بترُ لغتهم وتبسيطُها المقصود ، رغم انها لغة مُطبّعة(*) . لقد طوّر بلومفيلد هذه النظريّة حين جعل من المسار سلسلةَ محاكاة ارتجاعية (Série récurrente d'imitations) : إن متكلّم اللغة المطبَّعة يقلّد ، بسخرية أو بهاجس الفعالية ، نتيجة الجهود الضائعة التي يبذلها مخاطبه لاستعمال هذه اللغة المقولبة ؛ ثم ان هذه المحاكاة ذاتها ستكون النموذج المستعمل مجدّداً من قبل المُحاور، الخ. بالنسبة إلى .Robert A. Hall Jr، هناك توليد فطري للغات المزيج ، في بضع ساعات أحياناً ، كلما وأينما دعت الحاجة : بين بائع وزبونه ، بين سائح ومرشده ، بين رئيس ومرؤوسه ، بين رب عمل ومخدومه ، الخ . وتتحدّد اللغة المزيج الى حدٍ معين عندما يجري استعمالها ، تالياً ، من قبل متكلّمين آخرين . وسوف تغدو لغة مولّدة (Créole) حين تصبح اللغة الأولى المكتسبة من قبل جماعة متكلّمين ، ويمكنها أن تظل في ما بعد لغتهم الوحيدة (Hall Jr. Pid-gins, p.151- 156) ، هكذا ، يقدّم هال أوضح تعريف للغة المولّدة ذاتها ، ويضيف ان اللغة المزيج السابقة ، حين تغدو لغة مولّدة ، سيكون في إمكانها أن تتطور تماماً الى « لغة سويّة » في ما بعد . وكان مارتينيه قد أوضح (Eléments, p.156) : إن اللغات المولّدة هي ، تساوقيّاً ، كل شيء آخر (غير اللغات المزيج) ، لأنها تُحكى على

(*) ان هذا البتر وهذا التبسيط الارتجاليين هما اللذان كان المتكلمون يحاولون في ما بعد معاودة انتاجهما في استعمالهم الخاص .

لسان جماعات متماسكة من المتكلمين ، مع استبعاد كل لسان قومي اخر ، في كل ظروف الحياة.

إن نظريّة تعدُّد الانساب تحيط تماماً ، عند هذا المستوى من صياغتها ، بالتكوّن والنمو السريعين للغات المزيج (ومن ضمنها اللغات المتنوّعة المواقع كثيراً من الوجهة الجغرافية) . وبالتالي ، تكوّنَ بعضٌ منها في غضون الخمسة والعشرين عاماً التي يمثّلها جيل : الفاناغالو (Fanagalo) حول جوهانسبرغ ، اعتباراً من ١٨٦٠ تقريباً ؛ البيدغن (Pidgin) في هاواي ، انطلاقاً من ١٨٧٦ : الشينوك (Chinook) الممارسة اعتباراً من ١٨٠٠ بين مختلف الأمم الهندية على الساحل الشمالي للمحيط الهادىء ، وبين الهنود في علاقاتهم مع الصائدين ذوي اللغة الانكليزية والفرنسيّة ؛ والروسنورسكية (Russenorsk) الممارسة في مطلع القرن العشرين بين الصائدين الروس والنرويجيين على سواحل المحيط الاركتيكي (Arctique)، (والتي وصفها اولاف بروك (Broch, Russenorsk, Archiv für Slavische Philologie, 41, 1927, p.209- 262)

كما تكوّنت لغات مزيج تكوّناً اسرع ، وتلاشت بسرعة كبيرة ايضاً ، كما حدث للغة المزيج الممارسة في المعسكرات الألمانية طيلة حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، والمتلاشية مع نهاية النّزاع .

وتحيط نظريّة تعدّد الأنساب ، في سهولةٍ ايضاً ، بالتماثلات الملحوظة بين تلك اللغات المزيج والمولّدة التي تشترك في اشتقاقها من الإنكليزيّة ، وهي تحيط بالتشابهات القائمة بين لغات مزيج ومولّدة تجمعها الفرنسية كمكوّنٍ مشترك ، او بين لغاتٍ مشتقة من الاسبانية أو تلك المشتقة من الهولنديّة ، الخ .

IV/ ٤٦ـ وحدة النَّسَب

وبعد ذلك تكاثرت الدراسات التي تصف اللغات المزيج

والمولّدة ونقارن بينها . وأول ما لوحظ فيها ان كثيراً من اللغات المزيج والمولدة المصنّفة اليوم في عداد اللغات ذات الأساس الانكليزي ، الاسباني ، الهولندي او الفرنسي ، كانت قد آحتفظت في معجميّتها بعدد كبير من وحدات مصدرها البرتغاليّة . كما لوحظ أيضاً التفاهم المتبادل الممكن بين متكلّمي اللغات الفرنسية المولّدة في الباسيفيكي ومتكلمي اللغات الفرنسية المولّدة في الأطلسي مثلاً . وكانت التماثلات البنيوية واضحةً بين هذه اللغات المولّدة . ولم يلحظ فقط التشابه النمطي بين لغات فرنسية مزيج ومولّدة ، بل لوحظ أيضاً التشابه بينها وبين اللغات المزيج والمولّدة المشتقة من الانكليزية والاسبانيّة الخ . تبدو هذه التشابهات بالغة الاهمية في نظر بعض الباحثين(١٨) لدرجة أنّها لا تكون إلّا نتيجةً للارتجال اللغوي التداخلي الأوليّ وحده ، الارتجال الذي تتضمّنه النظرية القائلة بتعدّد الأنساب أو الأصول ، وعندئذٍ وضعت نظرية النّسب الواحد للغات المزيج والمولّدة.

في نظر القائلين بهذه النظرية ، صحيح انّ اللغات المزيج كانت حلولاً لأوضاع اتصاليّة بالغة التنوّع ، لكنّ هذه الحلول لها أصل مشترك ، على الأقل كلما تكون او كلما كانت إحدى اللغات الاتصاليّة لغةً مسلطة اوروبية امبرياليّة (Grimshaw, Social forces, p.430). غير أنّ ملاحظة غريمشاو لا تنتزع شيئاً من شجاعة الفرضية القائلة بوحدة النّسب أو الأصل . إنما توضح فقط حدود نظريّة قائمة على ظاهرة تاريخيّة (ظاهرة الامبريالية البرتغاليّة

---

(18) « These similarities are too great for coincidence: elimination of inflections for number in nouns and for gender and case in pronouns, identity of adverb and adjective, use of iteration for intensification of adverb-adjectives, development of compound preposition using the Portuguese na and de, use of verbal aspects marked by syntactic particles rather than true tenses, etc. » (Decamp, Introduction, p.21).

وخلفاتها ، وصادرة عن رؤية سوسيولوجية بنوع خاص ، للوقائـع التي هي اللغات المزيج والمولّدة .

إن تشتت اللغات المزيج والمولّدة عبر العالم بأسره استطاع وحده أن ينسينا أحياناً واقعَ أنَّ معظمَ هذه المنظومات تملك تركيباً هندياً/ أوروبياً : برتغالياً ، انكليزياً ، هولندياً ، فرنسياً ، إسبانيّاً ... وحتى أنَّ تموضع اللغـات المزيـج والمولّـدة هو معطى ذو دلالـة لأنها تقع جميعها بالقرب من طرق الملاحة البحريّة الكبرى . ولأنّه يتعين تماماً ، عندئذٍ ، أنْ تُقام علاقةٌ بين وجود هـذه المنظومـات وتاريخها وبين وجود الرحلات المحيطية وتاريخها (Samarin, Lingua francas, p.667) . وحسب نظريّة وحدة النّسب يمكنُ لمختلف اللغات المزيج والمولّدة المعروفة اليوم أنْ تكونَ ممثّلة للغة مزيج أولى (Pro- to- Sabir) ذات أساس برتغالي ، تطوّرت اعتباراً من القرن الخامس عشر ، منذ الاتصالات الأولى مع إفريقيا ، ثم ربما تكون قد انتشرت حتى مرافىء الشرق الأقصى . ففي كانتون ، في مطلع القرن الثامن عشر ، كانت التجارة الانكليزية لا تزال تجري بواسطـة مترجمين أوروبيين – آسيويين برتغاليين ، كانوا يترجمـون الصينية إلى لغة برتغاليّة مزيج كان يفهمها التّجارة الإنكليز.

وتذهب نظرية وحدة أصل منظومات اللغات المزيج والمولّدة الى أبعد من ذلك أيضاً . فتجعل البرتغالية الأولى ذاتها مشتقّة من لغة وسيطيّة مزيج ، هي اللغة الفرنكيّـة المتوسطيّـة . فهذه اللغـة المزيج المستعملة من القرن الثالث عشر كـانت أولاً لغة عـلاقات شعبية تستفيد منها أرهاط الصليبيّين ، ولكنها استعملت أيضاً كلغة ديبلوماسية شفهية في ما بعد ، وعاشت حتى نهاية القرن التـاسـع عشـر ، في أشكال كـانت تتراوح فيهـا المساهمـات الـرومـانيـة (البـروفنسـاليـة ، الايطاليّـة ، الكاتـالانيّة ...) وغيـر الرومـانيّـة (المالطية ، العربيّة ...) ، (Pérégo, Sabirs, p.597- 667).

وإذا كان البرتغاليّون هم المعلمين الأبطال لعصر الاكتشافات العظمى ، فقد كانوا أيضاً في عداد الأوائل الذين حاولوا إقامة مكاتب صرافة (Comptoirs) وامبراطوريات استعمارية وتمكّنوا من إظهار أنفسهم نخّاسين منظّمين وفعّالين نسبياً . إذن دخلت لغتهم واللغة المزيج الأولى التي كانوا يتداولونها ، مجال الاتصال والاحتكاك باللغات الأكثر تنوّعاً والأكثر توزّعاً في الأماكن ، وذلك في نطاق علاقات اجتماعية دقيقة تماماً . فمن القارة الأميركية إلى جزر الباسيفيكي ، مروراً بأفريقيا والهند والصين ، كانت اللغات المزيج والمولّدة حيث يسود العنصر البرتغالي قد شهدت أو لا زالت تشهد وجود هذه الاتصالات بين اللغات.

إن نظرية النّسب الواحد ، القائمة على وجود وتاريخ عدّة لغات برتغالية مزيج ومولّدة ، قد انكبّت بعد ذلك على تبيان كيف أمكن الانتقال من هذه المنظومات إلى اللغات المزيج والمولّدة التي لم تعد لعلاقاتها بالبرتغالية واللغة المزيج البرتغالية الأولى أي شيء واضح من حيث التساوق والتزامن.

IV/٤٧ـ تجديد البناء المعجمي

إن فرضية تجديد البناء المعجمي للغات المزيج والمولّدة ، المطروحة في مطلع الستينات (١٩٦٠) ، إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية وحدة أصل هذه المنظومات . إن إبدالَ جزءٍ من معجمِ لغةِ مزيج ممكنٌ دائماً ، بواسطة اتصال مع لغة جديدة ، وإن تجديداً جزئياً للبناء المعجمي يمكنه دائماً أن يسبق التوليد اللغوي (Créolisation).

مع ذلك ، يُفترض أنّ في اللحظة التي تتولّد فيها اللغة المزيج وتصبح اللغة المكتسبة الأولى لجماعةٍ من المتكلّمين كبيرة نسبياً ،

تفيد الى بعد حدٍ من مساهمة معجم اللغات المختلفة التي تكون عندئذٍ على اتصال بها . وبالتالي ، فإن اللغة المزيج ، إذْ تغدو لغة الجماعة الأولى ، يتوّجب عليها أنْ تلبي عندئذٍ جميع حاجات الحياة اليومية الإبـلاغيّة ، ويتعيّن عليهـا بالنتيجـة أن ترفـع الاحتياطي المعجمي الذي تستلزمه هذه العملية التوليديّة. وغالباً ما تكون لغة الجماعة الاجتماعيّة المهيمنة في الوضع الاتصاليّ هي اللغة التي تقترض منها اللغة المزيج كثيراً من قروضها المعجميّـة . إن هذا الوضع المعجمي(١٩) للغة المزيج السائرة على طريق التوليد اللغوي يمكنه انْ يصل إلى حد التجديد الكامل لبنائه المعجمي ، اي الى حد إبدال كل مخزونه المعجمي أو معظمه ، بما فيه النّواة التي جرت العادة على تسميتها بالمصطلح الأسـاسـي ، وعندئـذٍ لن يبقى من المرحل التي سبقت تجديد البناء المعجمي ، سوى البنية القواعدية للغة المزيج ، وربما عدد من الوحدات المعجمية محدود نسبياً.

ساد الاعتقاد أولاً أنْ تجديد البناء المعجمي للغات المـزيج ـ المشتقة من لغة مزيج برتغالية أولى ، حسب نظرية وحدة النّسَب ـ كان معقولاً وميسوراً بقدر ما كانت اللغة الرومـانيّة هي المصـدُرة للمعجميّة الجديدة . وبكل طيبة خاطر ، كانت تذكر حالة مجمـوعة اللغات الفيليبينية المولّدة، فهذه اللغاتُ المولّدة تصنّفُ اليـومَ في عداد اللغات الاسبانية المولّدة نظراً لقاعدتها المعجمية (حيث يوجد الى جانب ذلك وحدات آتية من التاغالوغ Tagalog ومن لغات محليّة أخرى) . وقد تكون هذه المنظومات قد وضعت في المولِيك ، خارج الأرخبيل الفيليبيني ، طيلة النصف الأول من القرن السابع عشر ،

---

(١٩) يستعمل احياناً مصطلح Supralexilication عندما لا يتعلّق الأمـر إلاّ بوضـع معجمي ، ويُحتفظ بمصطلح Relexification لإبدال المعجم القديم ذاته إبدالاً كلياً او شبه كليّ .

عندما دخل جنود مكسيكيّون ، إذن ذوو لغة إسبانية ، في اتصال مع متحدٍ موليكي (Moluques) كان يمارس لغة برتغالية . وكانت تذكر أيضاً أمثلةٌ لغات مولّدة مثل لغات غويانا والـرينيون التي لم يكن العنصر البرتغالي قد زال عنهـا وامحّى تماماً بفعل تجـديد بنـاءٍ معجمي كان قد استفاد من المنظومة الفرنسيّة.

ولكن الـواضـح تمـاماً هـو انّ تجديـد البناء المعجمي للغـة البرتغالية المولّدة الأولى ، لم يتمّ دائماً إنطلاقاً من لغاتٍ رومانيّة . فقد قدّمت الصينية ، الانكليزية ، الهولنديّة ، الزولو او البـانتو ... مـصطلحاتها للغات مزيج ومولّـدة ، لم يعد العنصـر المعجمي من أصل برتغالي إلاّ عنصراً زهيـداً فيها اليوم . إنّ تعدّد المصـادر المعجمية للغة مزيج أو مولّدة يمكنه أن يكون كبيراً جداً . ومثال ذلك بعض الألوان من اللغة المولّدة في السـورينام[٢٠] التي تلقت من الانكليزية كمية معجمية كبيرة، مع حفاظها على ما يقارب الثلث من المصطلح البرتغالي ، الذي تنضافُ إليه وحداتٌ معجمية من أصل هولندي وإفريقي. وفي لغة البابيامنتو (Papiamentou) في كوراسوا، تنضافُ وحداتٌ معجميّة من أصل هولندي إلى مجمـوعة وحـدات معجميّة اتية من الاسبانيّة ، الخ .

٤٨/IV ـ تجديدُ البناءِ النّحوي

إذن في نظر نظرية النّسب الواحد وكذلك في رأي نظرية تعدّد

(٢٠) من بين هذه اللغات المولّدة ، فلنشر إلى الفائدة التي تمثلها ، بشكل خاص من الوجهة الصّواتية ، الساراماكان (Saramaccan) حيث تركت بصماتها المنظـومة الصـوتية للغـات إفريقيـة ـ مثل الـ Kikóongo وربمـا الـ Bantou . ومن وجهـة مختلفة . تنبغي الإشارة ايضاً إلى انّ أحد هذه الألوان المولّدة في السورينام . Le Djukd . فريد من حيث تطويره منظومة كتابة مقـاطعيّة ، على غـرار بعض لغات افريقيا الغربيّة .

الأنساب ، اللغة المولّدة هي لغة مزيج سابقة ، استحالت لغة أولى اكتسبتها جماعة من متكلمين ، وتمكّنت لاحقاً من أنْ تظل لغتهم الوحيدة . مع ذلك طرح السؤال عمّا إذا كانت جميع اللغات المولّدة قد عرفت ، حتماً ، المرحلة الأولى من اللغات المزيج (Pidgins) ، وعما إذا كانت هذه هي نقطة الانطلاق الوحيدة الممكنة لتطورها.

على هذا السؤال تحاول أنْ تردّ الدراسة التي أجراها غومبرز و ويلسون[٢١] حول وضع كوبوار اللغوي التعدّدي (Convergences, p.151- 157) فعندما انتهيا من وصف المتغيّرات اللغوية الظاهرة في الألوان المحكيّة من الأوردو ، الكانّادا والماراثي المتصلة منذ قرون في متحدّ كوبوار القرويّ ، برهن المؤلّفان على عدم وجود أي من هذه التغيّرات التي تتضمن فقط إثنين من الألوان الثلاثة القائمة ، مع استثناء اللون الثالث . فكل هذه التغيرات هي ملتقيات تتضمن الألوان الثلاثة بوصفها مجمّعاً ، سواءٌ اجتذبت لوناً إلى اللونين الآخرين ، أم اجتذبت لونين الى الثالث ؛ ويمكن تفسير جميع هذه التغيّرات بوصفها تخفيضات أو تعميمات تبسيطية تتوافق مع حاجةٍ إلى التكيّف المتبادل بين المستعملين داخل القريّة . وعندئذٍ تكون النتيجة الأوضح هي ان هذه التغيّرات تفضي إلى ظهور ثلاثة ألوان محليّة متوازية تتشابه مع اللغات المولّدة (Creole- like varieties) في أنّها ، بعد عدّة قرون من الاتّصال ولكن دون المرور بمرحلة اللغات المزيج ، تظهر وتعلن مسارات خفض وتلاقٍ خاصة باللغات المزيج والمولّدة . ونجد فيها ، كما نجد في اللغات المزيج والمولّدة ، بنية قواعدية ومعجماً قادمين من مصادر مختلفة ، بحيث ان الكلمات القادمة من لغة تستعمل فيها مع قواعد لغةٍ أخرى ، الخ .

إن ما يميّز جوهرياً الألوان المحكيّة في كوبوار من اللغات

---

(٢١) راجع هنا IV/١٢ وما بعده .

المولّدة ، هو كونها لم تنطلق من لغة مزيج ، وانها لم تمرّ في مرحلة عدم الاستقلالية وعدم الاستقرار الأوليّ والتغيّرات المتصاعدة التي عرفتها اللغاتُ المزيج . إن المسارات المؤدية إلى اللغات المـزيج والمولّدة لا تختلف بطبيعتها عن المسارات المـوجودة عمـوماً في اتصال اللغات ؛ فالفرق بين هذه وتلك لا يمكنه ان يكون إلّا اختلافاً في الدرجة ، كما يستنتج غوميرز وويلسون (Convergence, p. 162-165) . أخيـراً يلفتان الانتبـاه إلى أن الالوان المحكيـة اليوم في كوبوار ، إذا كانت تحتمل المقارنة فليس ذلك لأنها تعرضّت لعملية تجديد في بنـائها المعجمي ، بـل لانها بخـلاف ذلك بـدّلت بناهـا القواعديّة . وهذا يوحي بكل وضوح ان تجديد البناء المعجمي لم يستطع انْ يكون إلاّ واحداً من بين التغيّرات الطـارئة على تطـور اللغات المزيج والمولّـدة ، وان تجديـداً جزئيـاً على الاقل للبنـاء المعجمي[22] يمكنه هو ايضاً ان يكون جزءاً من هذه التغيّرات .

إن دراسة اللغات المزيج واللغات المولّـدة ، وان فرضيّـات تجديد البناء المعجمي والنّحوي التي تتطور من خلالها ، تبدو مؤكّدةً لما كانت تفترضه صيغُ التداخل المعجمي : التكافل بين المعجميّة والقواعد يبدو أحياناً نسبياً في لغة واحدة .

وحسب النظرية القائلة بوحدة النسب ، سيمكن اذن ، عقلياً ، التسليم بفرضية تجديد البنـاء المعجمي والنّحوي على التـوالي ، إنطلاقاً من اللغة المزيج البرتغالية الأولى الـواصلة إلى مـرافىء الشّرق الاقصى ، وصولاً إلى اللغة البرتغاليـة المزيـج التي كانت لاتزال تمثلها في كانتون في القرن الثامن عشر ، ثم وصولاً إلى اللغة

(22) « The local Kupwar varieties might be said to have undergone resyntactification, if the term may be excused for the sake of the contrast ». (Guperez et Wilson, convergence, p.166).

المزيج الصّينية ـ الانكليزيّة مثلاً ، الملحوظة في ما بعد في المناطق نفسها ، والمنتشرة من ثمّ على امتداد خطوط الملاحة الكبرى نحو غينيا الجديدة ، للوصول إلى اللغة المزيج الانكليزية ـ الميلانيزيّة الملحوظة في هذه الجزيرة وحولها ، والتي صارت ، من جرّاء التوليد اللغوي ، الملانيزيّة الجديدة .

٤٩/IV ـ اللغات المزيج والمولّدة اليوم

إذا كان من الصعب نسبياً الحكم المسبق على الصيغ الدقيقة التي كانت في الماضي صيغ تطور المنظومات من طراز اللغات المزيج والمولّدة، فذلك جزئياً لأن الدراسات التعاقبية لا تملك عدداً كبيراً من الوثائق المتعلّقة بها ، ولا مدوّنات وافرة عن الأحوال القديمة لتلك اللغات . وحدها بعض النصوص الكبرى ، الدينية بخاصةٍ ، كانت قد ترجمت في وقت مبكر جداً لأجل متكلّمي بعض اللغات المولّدة ، عندما كان عدد هؤلاء المتكلّمين يسوّغ مشروعاً كهذا . وبعد ذلك ، سمح هذا الامر للغات المولّدة بأن لا تظلّ دائماً وكليّاً بمنأى عن كل تراث مكتوب . وظل هذا النوع من التوثيق والتدوين نادراً جداً بالنسبة إلى اللغات المزيج ذات الاستعمال الشفهي جوهرياً . كذلك تتوجب الإفادة عموماً من مشاهدة الظروف الحاضرة لوجود هذه المنظومات وتطوّرها ، لاسيما مشاهدة ديناميتها الراهنة وتوصيفها التساوقي ، لكي يُقوِّم ماضيها أفضل تقويم . والخلاصة ان الدراسات المتعلّقة باللغات المزيج والمولّدة الملحوظة حالياً ، قد تكاثرت : وانها قد يتوجّب عليها أيضاً ان تقدم الكثير ، حقاً ، لأعمال اللسانيّين وعلماء الاجتماع او الإناسة النظريّة ، ولكنها باتت مبرّرة إلى حد كبير نظراً لأن اللغات المولّدة هي اللغة الاولى لنحو ستة ملايين متكلّم ، ولأن استعمال اللغات

المزيج هو واقعة حياتية يومية لمليونين إلى ثلاثة ملايين شخص في العالم(٢٢) .

IV/ ٥٠ ـ الملانيزيّة الجديدة

من بين المنظومات ذات النمط اللغوي المزيج والمولّد ، افادت الملانيزية الجديـدة إفادة كبيـرة من اهتمام البـاحثين ، ربما لأن ماضيها الحـديث كان معـروفاً جيـداً ، ولكن أيضاً بسبب القيمـة المثالية التي اكتسبها التطور الراهن لوقائعها اللغوية والاجتماعيّة .

إن الملانيزيّة الجديدة الراهنة المعروفة سابقاً بعدّة أسمـاء (Bicho de mar, beach la mar, bêche de mer, sandalwood English, tokboi, sabir anglais mélanesien) وألـوانها (المـزيـج الانكليـزي Papou والمزيج الانكليزي الاوسترالي) تحتل مداراً جغرافياً مركزه أراضـي المستعمـرة الانكليزيـة القديمـة في غينيا الجـديدة ، في الشمال الشرقي من الجزيرة المعروفة بهذا الاسم . لكن هذا المدار يمتّد أيضاً الى بابوازي ، في الجنوب الشرقي من الجزيرة ، ويشمل بعد ذلك أرخبيـل بسمارك ، جـزر سلومـون وجزءاً من Nouvelles-Hébrides شرقيّ غينيا الجديدة ، وأخيراً يشمل جزءاً من أراضـي أوستراليا .

تتقاسم الملانيزية الجديدة مدارها الجغرافيّ مع عـددٍ كبير من اللغات : فبالإضافة إلى لغات البابو في غينيا الجديدة ، وبعض من الـ ٢٢٨ لغة في القارة الأوستراليّة، تنتسبُ اللغات المحليّة في المنطقـة إلى هـذا الفـرع أو ذاك من الأسـرة الأوستـرونيـزيـة (Austronésien) . ان الانكليزيـة هي اليوم اللغـة الغربيـة الأحسن

(٢٢) هذا حسب التقدير الرقمي الذي يعطيه دكمب (Decamp, Introduction, p.17).

تمثيلاً في المدار الجغرافيّ للملانيزية الجديدة ، لكن التاريخ الاستعماري كان قد حمل اليها في عصور شتى ، البرتغالية ، الهولندية والالمانيّة . إن الملانيزية الجديدة ، بوصفها لغةً مزيجاً ، تشهد خصماً في الجنوب الشرقي من جزيرة غينيا الجديدة ، هو الـ (Police- motu) ، كلغة علاقات بين القبائل وكلغة مستعملة رسمياً حتى الحرب العالمية الثانية من قبل الإدارة الاوستراليّة مع سكان غينيا الجديدة لاسيما في بور موريسبي عاصمة بابوازي وحلها .

تعتبر الملانيزية الجديدة مشتقةً من اللغة المزيج الصينية ـ الانكليزية الممارسة اعتباراً من القرن الثامن عشر في سواحل الصين ، وبالتالي ، بين الصين وجزر المحيط الهادىء . ان النظرية القائلة بوحدة النسب تجعل من هذا المزيج الصيني ـ الانكليزي نتيجةً لتجديد البناء المعجمي والنحوي إنطلاقاً من مزيج برتغالي أقدم . واليوم ، يملكُ نحوُ الملانيزية الجديدة سماتٍ يمكن عزوها إلى التأثير الملانيزي ، ولم يعد له سوى قليل من التماثلات مع هذا أو ذاك من تلك المكوّنات الغربية القديمة التي جرت المحاولة لنسبته إليها . إن الكليمات ذات الأصل الانكليزي أو الألماني لاتزال كثيرة في مصطلحاتها حيث تعيش جنباً إلى جنب مع وحدات آتية من الكوانا (Kuana) لغة التوليين (Tolais) في ارخبيل بسمارك .

٥١/IV ـ نمو الملانيزيّة الجديدة : ترسيمة قديمة

يتكلّم الملانيزية الجديدة ٥٢٠,٠٠٠ متكلّم في غينيا الجديدة . وهي بالنسبة إلى عشرة آلاف منهم اللغة المكتسبة الأولى والوحيدة التي يمتلكونها في المُنطلق[٢٤] وهي بالتالي لغة مزيج في

---

(٢٤) هؤلاء العشرة الاف من ذوي اللغة الواحدة هم متكلمون في غينيا الجديدة لم يكتسبوا اللغة المحلية لجماعتهم الاصلية لانهم كانوا يقطنون في اماكن اخرى ، ولكنهم لا يعيشون مع ذلك في الاوساط التي يسودها استعمال الانكليزية .

طريق التوالد اللغوي . ولكن مجموع الذين يستعملونها يومياً يزيد عن المليون نسمة .

إن التوسع الكبير الذي استطاعت أنْ تبلغه الملانيزية الجديدة ، بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، انطلاقاً من مناجم المنطقة ومزارعها حيث كانت الممارسة اللاشرعية لـ (Black birding) تقود الناس الى العمل بالقوّة في مناطق متنوّعة جداً وغالباً ما تكون متباعدة من بعضها . هؤلاء الناس كانوا يشكلون جماعات صغيرة من متكلّمين لا تجمعهم أية لغة مشتركة ، مما كان يحتم حينئذٍ استعمال لغة علاقة .

إن الظروف اللسانية الاجتماعيّة للتوسع الأول للملانيزيّة الجديدة تتوافق تماماً مع ترسيمة مأثورة ، قديمة من الآن فصاعداً . فقد استمرت متحّدات محرومة من وسيلة اتصال لغوي بين الجماعات ، في مركز استتباعي ، بفعل ميزان القوى الاجتماعيّة (لاشيء ، أحياناً ، سوى العمل بالقوّة !) إن الفئة الاجتماعية المهيمنة ، تلك التي تخلق في الواقع ميزان القوى الاجتماعيّة ، تمارس عموماً منظومةً لغوية يكون لونٌ من ألوانها مُطبّعاً . عندئذ تنمو اللغةُ المزيجُ لا لتستعمل كجسر فوق الهوّة الفاصلة بين الطبقات والفئات الاجتماعية المتنازعة، بقدر ما تستعمل كوسيلة اتصال لغوي مستقرّة بين الجماعات المهيمنة . وحتى اذا كانت اللغة المطبّعة تقدّم جزءاً كبيراً من معجميّتها الى اللغة المزيج ، فإنّ متكلّمي هذه اللغة المُطبّعة (افراد فئة اجتماعية سائدة : مالك المزارع في غينيا الجديدة أو الأنتيل ، أصحاب المناجم وكوادرها ، الانكليز في الصين الأميركيون في تايوان ، الخ) نادراً ما يأخذون وقتهم ويبذلون المجهود اللازم لتعلم اللغة المزيج التي قد يتوجّب عليهم أن يكتسبوها كما تُكتسب لغة أجنبية . هناك عدة لغات يكون متكلّموها في وضع استتباعي ، وهناك لغة مطبّعة متعلّقة بالفئة الاجتماعية

السائدة : إذن يتعلق نمو لغة مزيج في أغلب الأحيان بوضع تعددية لغوية حقيقية ـ وليس فقط بثنائية لغوية.

زدْ على ذلك أن الاستنتاج بـأن الاتصال بين عـاميتين من منظومةٍ واحدةٍ لا يؤدي دائماً إلى ظهـور لغةٍ مـزيج كلغـةٍ مزيـج (Hoenigswald creole studies, p. 474) وان هذا الأمر قد يعود إلى بديهيته تقول ليست هذه في الـواقع سـوى طريقـة للتشديـد في المواضع التي تتطوّر فيها اللغات المزيج ، على الأهمية المتعاظمة ، غالباً ، للاختلافات بين المنظومات المتّصلة ؛ انها طريقة تسهم في الواقع ، بكيفيةٍ حاسمة ، في نمو لغة العلاقة واستعمالها ، وتكونُ بعيدة من تشكيل حاجز بنيوي . وقد لا تكون اختلافات البنى عقبة إلاّ بقدر ما تشكّل الفئاتُ الاجتماعيّة القائمة مجتمعاً بشرياً في حالة صدمة ثقافية حقيقيّة (Ibid., p. 475) .

٥٢/IV ـ المـلانيزيّـة الجـديـدة في تصنُّعـاتهـا الوظيفيّة

في غينيا الجديدة استخدمت الملانيزية الجديدة ، أساسـاً وبكيفية ثابتة ، كلغة علاقة بين المتحدات التي تمارس لغات البابو على اختلافها ، وأيضاً بين هذه المتحـدات والمجتمع المتـأورب . وطالما استطاعت الثقافة والنمط المجتمعي البابو أن يحافظا على تماميّةٍ نسبيّة في مواجهة الغزوات الاستعمارية الانكليزية ، الالمانية او الأوسترالية ، فإن الوضع كان يظلُّ مستقرّاً.

بعد الحرب العالمية الثانية ، طرح وجود الملانيزية الجديدة وتوسعها مسائل سياسية اهمّ من ذلك أيضاً . إذ كان مجلس وصاية الأمم المتحدة يعارض تدوين هذه اللغة وتطبيعها واستعمـالها في المنظومة التربويّة . وكان يقال إن وسمها بتصنّعات وظيفية جديدة

من شأنه أن يؤخّر نمو الانكليزية التي صارت لغةً رسميّـة . وإن تشجيع الملانيزيّة الجديدة من شأنه تعقيد مستقبل وضع لغوي بالغ التعقّد بالأساس.

ومع ذلك فإن اكتسابَ الملانيزية الجديدة هو اليوم ، من عدة جوانب ، العنصر الأهم في التنشئة الاجتماعية لكثيرين من سكان غينيا الجديدة بوصفهم سكّاناً ، فهذا الاكتساب هو المنعطف الأهمّ في وجود أولئك الغينيين الجدد الذين يبحثـون عن عمل ، خـارج جمـاعتهم الأصليـة (Walfers, Neo. Melanesian P.413-419). ومن المحتمل أن يطلب منهم أن يعرفوا هذه اللغة معرفةً كافيـة . ففي الغالب لا يزال تكلّم الملانيزيّة الجديدة وسيلة مضمونة لاكتسـاب الشهرة والوجاهة من جانب أولئك الـذين يستطيعون التعـاطي مع الأوروبيين أو مع الحضريين عامةً[٢٥] . إن استعمـال الملانيـزيّة الجديدة يبسّط حقاً ويسهّل الأعمالَ في جمعيّة إقليمية حيث يمكن لكل مسألة أن تتعقّد من جرّاء المسائل اللغويـة ذاتها . وبدون أنْ يكون للملانيزية الجديدة حق المواطنيّة في هذه الجمعية ، فإن هذه الأخيرة تنشر نصوصاً في هذه اللغة ، ورغم ذلـك ، لا تزال هـذه المنظومة دون راموز رسمي مكتوب . كثيرون هم الغينيون الجـدد الذين يربطون الملانيزيّة الجديدة بمشاعرهم القومية ، وقد تكوّن تيار رأي ربما لا يرفض مركز اللغة القومية لما كان بالأمس مجرد لغة مزيج.

إن انتشار الملانيزيّة الجديدة في المجتمع الغيني الجديـد وتولّدها اللغوي الجزئي لا يعودان فقط إلى المسار الثاقفي المحض الذي يتراجع فيه المجتمع الباهو وثقافته تراجعاً ظاهرياً أمام النماذج الغربيّة . في الوقت نفسه ، يعود هذا الانتشار وهذا التوالد اللغوي

---

(٢٥) اكثر من ٨٠٪ من السكان مزارعون .

للعلانيزية الجديدة ، وبكل وضوح ، الى الاستيعاء السياسي والوطني الذي يتمّ في الفئات الاجتماعيّة التي قد تقول عنها اللسانةُ الاجتماعيةُ الاميركيّة إنها جماعات لا تزال في موقع استتباعي.

٥٣/IV ـ أهمية الأبحاث حول اللغات المزيج والمولّدة

إذا كانت اللغات المزيج والمولّدة تلفت اليوم الاهتمام الأكبر لدى اللسانيّين واللسانيين الاجتماعيّين معاً، فليس في ذلك أيُّ شيء مدهش . فبالنسبة إلى اللسانيّ ، لا تكمن أهمية اللغات المزيج والمولّدة ، فقط ، في الحالة اللغويّة التي هي حالتها في التساوق بالذات : بل تكمن أيضاً ، وفي وقت واحد ، في وضوح ديناميتها الرّاهنة وفي التغيّرات الجارية الملحوظة في مستوى بناها . وإنّ هذه الديناميّة وهذه التغيّرات هي من الأهميّة بحيث أنها تقبل القراءة بكل وضوح ، فلم تنكبح ، وبكيفيةٍ ما ، لم تمحُ من جرّاء مسار القوننة والتطبيع الذي عاني منه كثير من اللغات الأخرى في غير مكان ، زد على ذلك أن اللغات المزيج والمولّدة تقدّم للباحث المهتمّ بمسائل التداخل اللغوي موضوعاً دراسياً من المرتبة الأولى ، حتى على الصعيد النّظري.

أما بالنسبة إلى الباحثين الاقل موضوعيّة ، فليست اللغات المزيج والمولّدة سوى اللغات المفتقرة والمصابة بعدوى الهامشية ، الجهالة ، البلادة ، الفقر ، التخلّف ... وحتى من جانب العلميين ذاتهم ، كانت موضوع لا مبالاة مديدة . ولدى متكلميها بالذات ، تستطيع أن تكون مثار سخرية بقدر ما تستطيع أن تغدو من رموز الهوية ، وأن تولّد مشاعر ولاءٍ عميقة .

إنّ تعدّد المواقف اللغوية المرتبطة بمنظومات اللغات المزيج والمولّدة ، يقدّم إذن للسانيّ الاجتماعي حقل مشاهدة لا يقل تعقيداً

عن الحقل الذي يقدمه الاشتراط الاجتماعي/ الاقتصادي والاجتماعي/ الثقافي ، الماضي والحاضر ، لهذه اللغات . أما بالنسبة الى المستقبل فيتعين تجديد القول إن بعض اللغات المزيج والمولّدة (مثلاً الـ Crioulo في جزر الراس الأخضر وغينيا بيسلو) هي من الآن فصاعداً في صميم اهتمامات التخطيط اللساني لما بات البعض يسمّيه اللسانة الاجتماعية المطبّقة .

الفصل الخامس

السّياسات والتخطيطاتُ اللسانية

١/٧ ـ في تعدّد التعريفات :

بعض تعريفات التخطيط اللسانيّ متحفِّظةٌ الى حدّ الغموض فلا نكاد نلمح الواقع فيها إلّا بعناء . وثمّة تعريفاتٌ أخرى أكثر وضوحاً ؛ لكنّها لا تحيطُ إلّا بمركز الاهتمام او بالتجربة الشخصيّة لأولئك الذين وضعوها ، واليكم بعضاً منها . إن التخطيط اللسانيّ مجموعة محاولات ومجهودات واعية ومنتظمة ترمي إلى حل المسائل اللغويّة ، إنها قراراتٌ متّخذة للتأثير على الممارسات والاستعمالات اللغوية ، ولتشجيعها أو لإحباطها . وإن التخطيط اللساني هو مجموعة جهود مبذولة لتغيير شكل لغةٍ ما واستعمالها ، لتغيير الخطاب عَمْداً . وهو إكمالُ لغةٍ تعبّر عن قرادة وطنية . وهو إصلاح لغةٍ وقولبتها بكيفية معياريّة . وهو إعطاء راموز مكتوب (Code écrit) للغةٍ تفتقرُ إليه . إنه تحديد الوسائل العلمية للتوصل إلى الثنائية اللغوية في الحقبة الاستعمارية أو ما بعد الاستعمارية . وهو تكييف التجربة المكتسبة في تاريخ اللغات الاوروبيّة مع الوقائع اللغوية في البلدان المُستَعْمَرة . وهو جعل معجميّة لغةٍ ما متوافقةً مع النمو الاقتصادي ، الاجتماعي ، التقني أو الثّقافي لبلدٍ ما ... ومن الممكن أن تطول اللائحة . حتى أنّ هذه التعريفات حين تظل صامتة عن

المسؤولين ، فإنها تعزو إلى التخطيط مشاريع وبرامج ومنجزات لا يمكن أن نتصوّرها او ان نقرر تحمّل مسؤوليتها إلاّ سلطة الدولة وحدَها . وبالتالي تبدو حقاً أنَّها الوحيدة القادرة على السعي لنُظم الوقائع اللسانيّة واللسانيّة / الاجتماعيّة وتطورها ، الوحيدة القادرة على التدخل بفعاليّة معيّنة لتبدّل عثداً الاستعمالات القائمة.

وبخلاف التخطيط ، لم تحظ السياسة اللسانيّة إلا بتعريفات نادرة . ذلك أنها من دون شك ، غالباً ما ارتدت في الماضي رداء عدم التدخل - في الموضوع بشكل فعّال مثل نقيضها، أي التخطيط اللساني ، أو أنها ارتدت شكل تدخلات تجريبيّة ، معزولة في المكان والزمان ، وعاجزة عن خلق تراث طرائقي (ميتودولوجي) ، إن التكاثر المعاصر لمسائل لغوية طارئة وملحُة استطاع وحده أن يجبر السياسة اللغوية على التجسد غالباً في تخطيطاتٍ حقيقيّة ، وأن يدفع الباحثين في وقتٍ واحدٍ الى أن يستخلصوا من التجريبيّة نظريّةً خاصّةً ، لا تزال حتى اليوم في طور الصياغة والإرصان .

٢/٧ - الممارسة القديمة ، المثال الفرنسي

لم تعرف القرونُ الوسطى سوى لغة واحدة ، اللاتينية ، ولم تكن اللغات الأخرى ، حينذاك ، سوى (لغات محكية) عاميّة Vulgaires . ونكرّر أنَّ الفرنسيّة تدينُ لوضوحها بكونها لغة الدبلوماسيّة . وكان Le Conventionnel Barère قد كتب : ليست الانكليزيّة سوى اللسان الكريه الخاص بالمصرف والكمبيالات ، والعربيّة المأثورة هي لغة حقيقية ، وليست عاميّاتها سوى تهجين مؤسف ، من دون كتابة ، لا يكون للغة قواعد ، وهي بالتالي ليست لغة حقيقية. إن القشتاليّة لغة قاسية، والنابولية لغة طرب وغناء... وإن الخلط المتواصل للوقائع اللغوية حقاً والواقعات غير اللسانيّة التي ترتبط بها ، أدّى في كل زمان إلى صدور أحكام قيميّة على

اللغات ، وهي أحكام مرتبطةٌ بالفكرويّات ، وفيها تنعكس العلاقات والنزاعات الاجتماعيّة ، المصالح أو الصراعاتُ الاقتصادية ، السياسيّة ، العسكريّة أو الدينية ، ومع ذلك غالباً ما كانت السلطات تحاول ، بإسم أحكامٍ من هذا النّوع ، القيام بتدخلات مقصودة ولكنّها منتظمة ، شكّلت جزءاً من تاريخ اللغات ، بدءاً من تاريخ الفرنسيّة . وعندما استلزمت ذلك الفعاليّةُ العمليةُ ، لم تتردد الملكيّة الفرنسيّة في فرض المحكيّات الرومانيّة بمواجهة اللاتينية في إدارتها ، ثم الفرنسية وحدها في الإجراءات الجنائيّة والأحوال الشخصيّة . وما بين ١٦٨٤ و ١٧٦٨ ، ضمّت السلطة الملكية ، بالغزو أو بالشراء ، مناطق (الفلاندر البحري ، الألزاس ، الروسيّون ، كورسيكا) وفرضت عليها الفرنسيّة بقوة الأوامر والقرارات : فكان يعتبر أنّ على الرعايا الجدد أن يفهموا على الأقل ما كان يُنتظر منهم ، كان ذلك عصر إزدهار معالجة القواعد الفرنسية كنوع . قبل ذلك بقليل ، كانت الدولة قد قرّرت أن تراقب وضع المعجم وأنشأت أكاديمية مولجة صراحة بتحرير القاموس.

واليوم ، يتصوّر المخطّطون أنْ يقوّموا بأنفسهم نتائج قراراتهم ومجهوداتهم . في الماضي ، كان يلزم على الأقل حركةُ مثل حركة ١٧٨٩ لتوفير الفرصة لتقويم السياسة اللسانيّة النافذة . إن الجمهورية ، إذ رأت في اللغة الفرنسية احدى الأدوات الفعّالة في سياستها المركزية العامّة ، أجرت تقويماً نقدياً للسياسة اللغوية التي مارستها الملكيّة . لذا ، كلّفت القسّ غريغوار بمهمة إجراء واحدٍ من أولى الاستطلاعات اللسانية/الاجتماعيّة في كل البلاد ، وسبراً حقيقياً للرأي ، قبل ظهور هذه التسمية ، غير أنّ سؤالين من الأسئلة الـ ٤٣ التي طرحها غريغوار على مراسليه ، يبيّنان أنّ القرار كان بلا شك قد سبق الشورى ذاتها : ماذا يمكن أنْ تكون الأهمية الدينية والسياسية لتقويض العاميّات تقويضاً كاملاً ؟ وماذا يمكن أن تكون

وسائل التقويض هذا ؟

(Creteau, Une politique de la langue, P. 13 et 175 et S.)

بعد ذلك قرّرت الجمعية التأسيسية (La Convention) أنّ كل كـومونـة (Commune) كان يحكي فيهـا عاميّـة رومانيّـة ، لون من الباسكيّة ، من البريتونيّة أو الجرمانيّة ، ستُزوَّد بمعلّم لغة فرنسية ، كما أنّها كلّفت لجنتها التعليمية العـامّة بتحضيـر قواعـد جديـدة ومعجميّة جديدة : تقويم السياسة السابقة ، مشروع قوننة قواعدية ومعجميّة ، اتخاذ قرارات ، وسائل واقعية لتطبيق القرارات (كانت الجمعية التأسيسية قد أخذت على عاتقها دفع مرتّبات المعلّمين من خزينة الدولة) ، هكذا لم تكن ممارسة أعضاء الجمعية التأسيسية تفتقر تقريباً الى اي شيء تحسد عليه التخطيطات اللسـانية التي كانت ستليها في القرنين التاسع عشر والعشرين .

التخطيطات اللسانيّة الأولى

V/٣ ـ مسائل اوروبية

نحو العام ١٨٠٠ ، كان يوجد في أوروبا ١٥ لغة تتمتّع بمركز لغات رسمية أو قوميّة أو بمركز مماثل . ومنذ العام ١٩٠٠ تضاعف عددها ، وبلغ الخمسين لغة سنة ١٩٢٧ ، فمنذ صعود البونابرتيّة إلى صعود النازية تعيّن على المسائل اللغويـة ، إذا صدّقنـا هذه الارقام ، ان تمثّل جزءاً لا يُستهان به من المصاعب الاوروبية .

جـرى وضـع التخطيطـات اللسـانيـة الاولى رداً على هـذه المسائل .

وتتدرجُ التخطيطات كلها تقريباً في إشكاليّة حركات العصر

القوميّة ، وجرى إعداد بعضها ، على الأقل ، بفضل العمل الدؤوب لعددٍ من الأفراد الذين كانوا يضحّون ، إلى قوّة اقتناعاتهم القومية ، قدراتٍ حقيقية لباحثين خبراء في المسائل اللغويّة.

٧/ ٤ ـ في النرويج

كانت النرويج مقاطعة دانيماركية حتى العام ١٨١٤ ، ولم يكن لها حتى ذلك التاريخ أية لغة رسمية أخرى سوى الدانيماركيّة . ونجد في أصل اللونين المدوَّنين من النرويجية الحاليّة ، أعمال كنودسن وإيفار أسن (Kundsen et Ivar Aasen) القواعديّة والقاموسيّة المنشورة اعتباراً من ١٨٥٦ . كان الأول يقترح كلغة قوميّة شكلاً مدوّناً ومقوننا من اللون الذي تتكلّمه البرجوازية الحضريّة . وكان الثاني يريد تأسيس اللغة المشتركة بكيفية رئيسية على العاميّات الريفيّة في شرق البلاد . وفي العام ١٨٨٥، قرّر اليسار القومي شرعيّة اللاندسمال (Landsmal) التي نادى بها أسن ، والدانيماركية ـ النروجيّة . واعتباراً من ١٨٨٧ صار لزاماً على المعلمين في المدرسة الأخذ بلفظ النرويجية النموذجية كما وضعها كنودسن .

ومنذ ذلك الحين عُمل بالتخطيط اللساني النرويجي على المستوى القومي ، وكان خاضعاً لرقابة الرأي العام ، في مجتمع لم يبقَ فيه تطور المنظومة المدرسية أسطورةً . ولا يزال الهدف المنشودُ جريئاً ، اليوم ، لأن الأمر يتعلّق بصهر الكتابة الصحيحة (الإملاء) والأشكال والمعجمية للونين مقوننين متمايزين ، لكنّهما يملكان رغم ذلك أساساً مشتركاً عريضاً جداً (Haugen, Modern Norway, p. 673 - 687) .

٧/٥ ـ في إستونيا

اعتباراً من ١٩١٨ ، شرعت إستونيا المستقلة بتدوين لغتها وتقعيدها ، وكان تطور العلوم والتقنيات يفرض مصطلحات جديدة كانت تُبتكر في الغالب انطلاقاً من اقتراضـات . وكانت إجـراءات التخطيط اللسـاني الأولى تحـاول ، حينئذٍ ، أن تنظم دمـجَ هـذه الاقتراضات الصعب غـالباً في الصّـواتة الإستـونيّة ، لقـد أسهم جـوهانس آئڤيـك (Johannes Aavik) بنشر نظـريّاتـه سنة ١٩٢٤، إسهاماً كبيراً في هذا التخطيط ، فإذا كانت اللغات الطبيعية لن تخدم الإبلاغ إلاّ بشكل ناقص ، فإن تحسينها منهجياً وفي العمق يغـدو واجباً . ولوضع المعيجمات الجديدة واللواحق الاشتقاقية الجديدة أو حتى الكليمات الوظيفية الجديدة التي يمكن الاحتياج إليها ، يكون من حق المرء أن يدمج ارتجالياً جميع الأصوات التي تملكها اللغة . ونقل هذا التقعيد الأول للأجيال التالية بعضاً من الابتكارات التي اقترحها آئڤيك : كليمات بسيطة تحل محل كليمات قديمة مـركّبة ، إدغامات تبسيطية ، الخ.

٧/٦ ـ فنلندا والسويد

يوجد بين لغات البلدان السكنديناڤية إمكانُ تفاهـم متبادل ، تحميه منذ زمن معين بدايةُ تخطيط لغوي دولي ، يضافُ إلى ذلك أن السويديّة تخدم عادةً كلغة علاقة في هذه المنطقة من أوروبا . إنها وقائع ـ يوجد إلى جانبها وقـائع أخـرى ـ قد أحـاط بها التخطيط اللغوي الفنلندي ، بلا أدنى شك ، عندما ترك للسويدية مركز اللغة الرسمية الثانية في فنلندا ، بعد الفنلندية. مـع ذلك لم يعـد يتكلم السويدية ، اليوم ، سوى ٩٪ من سكان فنلندا ومن سوء حظها أنها

كانت حتى ١٨٣٠ اللغة المكتوبة الرسمية الوحيدة ، التي فرضتها الهيمنةُ السويدية على الفنلنديّين .

٧/٧ ـ العبريّة الإسرائيلية .

إن التخطيط اللسانيّ الذي كان يتعين عليه أن يؤدي إلى ولادة العبريّة الإسرائيلية ، بدا مثل التخطيط النرويجي منذ نهاية القرن التاسع عشر . وكان قد شرع به رائدٌ ذو قناعات قوميّة تضارع في صلابتها قناعات كنودسن وآسن ، وكانت نظرياته ومشاريع عمله اللغوي تماثل في شجاعتها نظريات ومشاريع آتفيك الإستونيّ . غير أن هذا التخطيط يتميّز من سواه ببعض شروطه وظروفه . والواقع أنّ اليعازر بن يهودا (Fellman, Revival, p. 427 - 456) قد انكبَّ على العمل منذ نهاية السنوات ١٨٨٠ ، لترقية لسان مكتوب منذ أمد بعيد ، هو العبريّة التوراتية ، إلى مقام لغةٍ محكيـة نموذجيـة لكيانٍ وطني لم يكتسب مقام دولة وقاعدة إقليمية إلاّ اعتباراً من ١٩٤٨ . وحسب أقوال معاصريه ، لم يتكلّم بن يهودا البتّة إلاّ على عبريّة «فقيرة ، متردّدة ، وبلا لون وميزة » . وعندما أقام في القدس ، لم يلقَ فيها إلاّ العداء من جانب جالية يهودية متزمّتة ومنغلقة جداً أمام التجديدات ، وحتى أنّه ألقي في السجن لأمدٍ معيّن : أصَّـر على تأسيس عـدّة جمعيّات مخصّصة لمسائل اللغة والثقافة ؛ نشر عـدّة كتب لتعليم « العبرية بالعبرية » ودراسات نادرة مكرَّسة للمعلمين ، أسس مجلة أسبوعية (Ha Zevi) كتب فيها بشكل منتظم بغية تطبيق نتائج أبحاثه كعالم معجمي . وفي عام ١٩١٤ ، عرض بن يهودا مشاريع منهجه المعجمي أمام مجلس اللغة .

وكان يوصي ، لتطوير العبرية الحديثة ، أولاً بأن يُنهل من مناهل النصوص القديمة ، وأن يُحيَّن مصطلحها (للدّال القديم : مدلول جديد) . وهناك حيث لا تكون المصادر السلفيّة كافية ، من

الممكن الاقتراض من كل اللغات السامية الأخرى (وفي مقدمتها العربيّة) ذات الجذور الثلاثية الصّوامتية التي يمكن أن تؤخذ منها بكل سهولة معيجمات وكليمات عبريّة جديدة . وأخيراً كان يمكن استخدام كل التركيبات والتبدلات الممكنة لـ ٢٢ حرفاً صامتاً في الأبجدية العبرية لابتكار جذور جديدة . حكم مجلس اللغة أن هذه المقترحات غير عملية ، ضد الطبيعة ، غير واقعية ، غير قومية وغير وطنية ، فرفضها وهو يرى فيها إهانةً حقيقية للعبرية .

مات بن يهودا سنة ١٩٢٢ ، وواصلت العبريّة الإسرائيلية نموّها الموازي لنمو مدن عماليّة ، مثل يافا ، ومراكز استيطان في الريف الفلسطيني . وفي الحقيقة ، كان يتجمع في هذه المدن والمراكز شغيلةٌ ذوو لغاتٍ مختلفة ، كانت العبرية تلعب دور العلاقة[1] في ما بينهم . سنة ١٩٤٨ حظيت العبريّة الحديثة بمركز اللغة القومية لدولة اسرائيل . وتدلّ دراسات ميدانية اجريت ما بين ١٩٥٠ و١٩٥٤ على أن ٦٠٪ من الإسرائيليين كانوا يواصلون في الحياة اليومية ممارسة لغة أخرى إلى جانب العبرية ،. وأنّ العبرية الحديثة لم تكن لغة الحياة الحميمة إلّا لـ ٣,٧٪ من الأزواج ، وصل التخطيط اللساني في إسرائيل اليوم إلى مرحلة تقويم نتائجه الخاصة ، خصوصاً في المجال المعجمي ، وفي مجال المنظومات الإملائية التي تُقوَّمُ بمقارنتها مثلاً مع طاقة القراءة وسرعتها .

٧ / ٨ ـ اللغة والقوميّة التركيّتان

عندما شرعت الحركة القوميّة التركيّة في إدخال بلادها في

---

(١) كانت العبرية الاسرائيلية تؤدي هنا التصنّعات الوظيفية التي استطاعت اللغات المزيج أن تقوم بها في أماكن اخرى .

وقائع بداية القرن العشرين ، باشرت أيضاً بتخطيط لساني لم يُتناول منه في الغالب سوى الجانب الأكثر إدهاشاً ، نعني التغيير الأبجدي الذي فرضه ، تقليدياً ، كانت التركية تُكتب بواسطة الأبجدّية العربيّة . وللحكم على العقبات التي كان هذا الأمر يمثلها ، يكفي النظر مثلاً في الـ ٨ صوتيات في المنظومة الصوتيّة التركية ، وأن نواجه هذه المنظومة مع المصادر التصويرية للحروف الثلاثة المخصصة في الأصل لـ ٣ صوائت طويلة في الصّواتة العربيّة القديمة ، وبعض العلامات التشكيلية لضبط الصوائت القصيرة . ومهما تكن مدهشةً عملية إبدال الأبجدية والوسائل المستعملة لفرضها . فلا يجوز لهذه أن تنسينا بقية الإجراءات المتخذة في التخطيط اللساني التركي . كان الاقتراض المعجمي من الفارسية وبالأخص من العربية هو القناة التي فُرضت من خلالها أضداد صوتية لا تستوجبها المنظومة التركية في منطلقها (هذا مثلاً هو حال تضاد الطول الصّوتي). زدْ على ذلك أنَّ الاقتراض المعجمي الواسع كان قد أسهم في إبراز الفوارق بين الألوان المحلية والإجتماعية للمنظومة التركيّة . كما أن الصياغة المعجمية ، إلى جانب صياغة مصطلحات علمية وتكنولوجية جديدة ، سرعان ما ارتدت في التخطيط اللساني التركي رداء « تتريك » ، تطهير ، مماثل الى حدٍ ما للتطهير الذي شهدته الألمانية في بعض الحقبات .

التخطيط اللساني ، الاستعمار وتصفية الاستعمار

V / ٩ـ مسائل أميركيّة / لاتينية

مع أقدم تصفية للاستعمار في أميركا اللاتينية لم يتوافق لأمد

طويل سوى سياسة لغوية ذات تدخلات تجريبيّة ، واليوم لا تـزال التخطيطات اللسانية الحقيقيّة نادرة في القارة الأميركيّة الجنوبيّة .
إن الطبقات المميّزة من المولّدين والخـلاسيّين المتأسبتين ، التي كانت قد خاضت معارك الاستقلال ، اعلنت تمسكُها باللغة الاسبانيّة حين اقترحت (كولومبيا، المكسيك) منذ ١٨٢٥ إنشاء أكاديميـة اسبانية ـ اميركية يمكنها القيام بالدور الذي كانت حتى ذلك الحين تقوم به الاكاديمية الملكيّة الإسبانيّـة . إن اللغة الإسبـانية ، لغـة اتصال واحتكاك منذ بداية الغزو ، كـانت قد عـانت من تداخـلات صواتية ونحويّة ومعجمية على حدٍ سواء ، وهي تداخلات فرضتها اولاً اللغاتُ الاميركيـة ـ الهنديـة ثم لغات المهـاجرين الأوروبيين الجدد بعد الاستقلال ، كان ذلك عصر ارتفاع صوتُ الطُّهرانيّين في مواجهة السوقيّات والايطاليّات والغاليّات والانكليزيّات في الإسبانيّة الاميركيّة ، ولكنّه في الوقت ذاته كان العصر الذي كانت فيه قومية لغوية معينة تحدب على لغة الأقاليم والولايات والأرياف ، وحيث كان الارجنتيني سارمينتو (Sarmiento) يطـالب بإصـلاح للامـلاء التي يمكنهـا جعله متكيّفـاً مـع واقـع خطـاب المتكلّمين الاسبـانيين ـ الاميركيين (Guitarte, Correctness, p.348- 349).

في مواجهة مقتـرحات الطهـرانية الـلاواقعية ، وكـذلك في مواجهة واقـع الاختلافـات المحليّة والاجتمـاعية التي تشتّـد في الاسبانية ـ الاميركيّة ، يقترح داماسو ألونسو (Dámaso Alonso) ، أحد منظّري السياسة اللغـوية الحـاليين ، أن تُلعب ورقة الـوحدة المتسّقة . واذا كان الافتراضُ محتوماً ، فلا مناص من قبوله ، ويغدو ممكناً قبوله عندما يعمّه الجميع ويفهمونه ويستعملونـه ، ويجري دمجه بالنّسخ أو بالتكيّف مع الصّواتة الاسبانية ـ الاميركيّة . واذا كانت « السّوقيّات » الصوتية ، البنائيّة او النحويّة قد أصبحت واقع الطبقات المعتبرة كطبقـات متعلّمة ، فـلا يعود هنـاك أي نفعٍ من

السعي لزعزعتها . والمعيار الذي يمكن أن يوصى به ، لم يعد معيار القشتاليّة ، بل الاستعمال الرائج في الطبقة المثقفة لكل جمهوريّة .

١٠/٧ ـ في الباراغواي

إنّ تتمكّن سياسة عدم تدخل لغوي ، مثل التدخل أو التخطيط ، من بلوغ الهدف الذي تنشده سلطة دولة ، هو أمر واضح في الباراغواي . ففي هذه الجمهورية حيث ظلّت الاسبانيّة لأمدٍ طويل ، اللغة الرسمية الوحيدة ، هناك ٣٤٪ من السكان الريفيين يمارسون لغةً واحدة ، (Guarani) هي الغوارانيّة ، وبقيّة الريفيّين يعانون من ثنائية لغوية متأخرة ولامتوازية ، تميل الى الغوارانيّة . والثنائية اللغوية عامّة في المدن ، لكنها أكثر توازناً فيها ، اذ من أصل الـ ٥٪ من الحضريين ذوي اللغة الواحدة الذين نكتشفهم في المدن ، لا يتكلم الاسبانيّة سوى النّصف . لقد أرادت وزارةُ التربية أن تتجاهل المشكلات على الدّوام . فالغوارانية لا تُعلّم في أي مكان ، إلاّ في مدرسة العاصمة . ويتعيّن على المعلّمين الريفيّين أن يعلموا بالاسبانية القراءة والكتابة والحساية لتلاميذهم ذوي اللغة الغوارانية دون أن يكونوا قد أعطوهم من قبل ، أي درس عن الاسبانيّة ، وهؤلاء المعلمّون لا يتلّقون أي تكوين خاص من شأنه إعدادهم لمجابهة المشكلات التي يعتقدون بعامة أنّها جزء لا يتجزأ من مهنة المعلّم .

١١/٧ ـ في البيرو

إن الغوارانيّة في الباراغواي واحدة من تلك اللغات الاميركية ـ الهنديّة التي تجتمع في ٦٠ عائلة ، والتي لم تلق أيٌّ منها مركزاً رسمياً حتى الآن . كذلك هو حال الكيشوا (Quechua) مثلاً . فهذه اللغة الآنديّة التي يتكلّمها عشرة ملايين متكلّم ، لم تُكتب

منذ أمد بعيد إلّا بكيفية بدائيّة جداً ، حسب المعايير الإملائيّة للاسبانيّة ، ولم يكنْ ذلك يتمُّ دون عقبات . فالوان الكيشوا مثلاً ، لم تعرف عموماً المميّز الصّوتي الترابطي في منظـومتها الصـواتيّة ؛ فالصّامت المرِّن يجب اعتباره إذن كلون مركّب متناقض . والحال ، تحت تأثير ذوي اللغتين الذين يمارسون الإملائيّة الاسبانيّة ، كانت الحروف المرّنـة لا تُقيَّد في الافتـراضات الحـديدة المـأخوذة عن الاسبانيّة فحسب ، بل ان تقييدها كان ينزع إلى الشّمول والتمنهج . من الواضح في هذه الشروط ان ممارسة الاستعمال المكتوب يمكنه أن يصبح عاملاً فعّالاً حقاً من عوامل التغيُّر اللغويّ . سنة ١٩٥٤ ، حـاول المؤتمر الاميـركي الأهلي المنعقد في لابـاز تبسيط كتابـة الكيشوا وقولبتها ، بحيث تتمكّن من أن تُستخدم أيضاً في الآيمارا (Aymara) في بوليفيا ، وفي ٢٢ مجموعة لغوية أخرى ، تحكى في شمال البيرو . عندئذ أمكن تنظيم حملات محو أميّة لدى متكلمي هذه اللغـات السلفية (Selva) البيـرونيّة ، وكـانت التخطيطات اللسـانية الإسبانيّة ـ الاميركية قد بدأت تظهر متّخذةً إتجاهاً اقرّته الحكومة البيرونية مؤخراً : فقد أقرّت سنة ١٩٧٤ كون الكيشوا هي لغة البيرو الرسمية من الآن فصاعداً ، إسوةً بالإسبانيّة .

V / ١٢ـ اللغاتُ والاستيطاناتُ

في حالة اميركا اللاتينية ، جرى مبكراً جداً إبدال الإدارات الاسبانية والبرتغالية من سلطات اقتصادية وتأثيرات سياسية لأمم أخرى ، دون أن يكون ثمّة غزو استعماري مُعلن . إن هذه الحـالة فريدة من نوعها تقريباً في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين اللذين هما في الواقع مرحلة استعمار اكثر مما هما مرحلة تصفية استعمار.

ففي المرحلة الأولى من الاستطيان الاستعماري ، وحتى قبل

أنْ تعزّز الأجهزة العسكريّة والإداريّة المتروبوليتية مواقعها ، كانت البعثات الدينية هي التي تمارس غالباً السياسة اللغوية في المناطق الاستعمارية المقبلة . كان أفرادها يتعلّمون لغة أو لغات البلد الذي يعيشون فيه ، وكانوا يترجمون النصوص الدينية الأساسية ويطوّرون غالباً تعليماً ابتدائياً عاماً ، في موازاة تعليمهم الديني . ولأجل ذلك ، وضعوا قواعد مكتوبة ، إنطلاقاً من الأبجدية اللاتينية عموماً ، وكانوا ينشرون كتب قواعد وقواميس اللغات المحليّة.

وعندما تعزّزت السلطاتُ المتروبوليتية ، لم تواصل دائماً السياسة اللغوية للبعثات الدينية . فالاستعماران الاسباني والفرنسي ، الممركزان ، أحبطا دراسة اللغات المحلية وتعليمها ، كلما استطاعا إلى ذلك سبيلا ، دون أن يتوصلا مع ذلك إلى فرض اللغات المتروبوليتية. ومثال ذلك أنه في العام ١٩٥٠ لم يكن يوجد من أصل ٥٠٠٠٠٠ غينيّ سوى ١٤٧٨ مستوعباً (Assimilados) يعرفون البرتغالية قراءةً وكتابةً، وفي العام ١٩٦٢ قام معهد(Insee) بإحصاء العاملين في المؤسسات الفرنسية في اوقيانيا (Océanie) واستنتج ان ٦٠٪ من البولينيزيين المشمولين بالاحصاء ما زالوا عاجزين عن قراءة الفرنسية وكتابتها.

اما الاستعمار البلجيكي ، الانكليزي والالماني ، الأقل مركزةً ، فلم يفرض بوجه عام اللغة المتروبوليتية في التعليم الابتدائي إلاّ في أوضاع لغوية ثنائية أو تعددّية حيث لا تفرض نفسها أية لغةٍ محليّة ، على الأقل بوصفها لغة علاقة وارتباط . إن هذه الاستعمارات والاستيطانات جسّدت سياستها اللغوية في تخطيطات حين شرعت في قولبة تلك اللغات المحلية العلائقية ، وهي السواحلية ، الايوي (Ewé) في غانا والتوغو والداهومي ، أو الشونا (Chona) في روديسيا . وغالباً ما ظلّ المستعمرون حذرين تجاه هذه

اللغات المحلية المقولبة وتجاه سياسة « التنمية المنفصلة » التي كانت تخدمها . فبالنسبة إليها لا تعني التنمية المنفصلة لمختلف الأعراف الماثلة سوى غياب للتنمية . كما انهم كانوا يفضّلون ، عندما كانوا يستطيعون ، انّ يعلّموا اولادهم في المدارس التي كانت تعلمهم اللغة المتروبوليتية منذ الصفوف الابتدائية ، إذ ان معرفة هذه اللغة ظلّت في الغالب الضمانة الوحيدة لأية ترقية اجتماعية محتملة ، ومثالها الوصول إلى مراكز ثانوية في الادارة الاستعمارية .

١٣/٧ ـ اللغاتُ ، تصفيةُ الاستعمارِ واللسانةُ

بعد الحرب العالمية الثانية بوجهٍ خاص ، بدأت النضالات ، القائمةُ منذ أمدٍ بعيد في كثير من البلدان المستعمرة ، تعطي ثمارها وتفرض مسار تصفية الاستعمار . ولقد استطاعت السلطات المتولّدة من معارك الاستقلال ان تختار سياسة لغوية لا تدخليّة وان تترك الوضع السابق على ما كان عليه . فظلت اللغةُ الرسميّة لغة المستعمِر القديم ، فلم تحظ أية لغة محلية بمركز خاص . كان في عداد الحكومات الجديدة ، حكوماتٌ تكتفي باتخاذ بعض القرارات الرسميّة ، في اثناء وضع الدساتير الجديدة . وعندما كانت تقوم باختيار لغة وطنية محلية ، كان ذلك يقودها أحياناً إلى اعادة تعريف مركز لغة المستعمِر القديم ، فهي لغة لا يمكن الاستغناء عنها كلياً ومباشرةً إلاّ في النّادر . وغالباً ما كان يترك لها ، على الأقل ، مركز لغة دبلوماسية ، لغة علاقات دولية . مع ذلك ، كان ثمة ضرورة ، بشكل مألوف ، لكي تُناط ايضاً بدور مهّم في التعليم ، على الاقل لأجلٍ معيّن ، ولم يكن من النّادر أن يُترك لها أيضاً جهاز الحكومة والعدل أو الادارة ، والجيش والشرطة ... ومهما أمكن ان تكون القراراتُ الرسميّة ، لم يكن في مستطاعها أن تؤدي ، بكل وضوح ،

إلى تخطيط لسانيّ ، إلاّ إذا كانت الحكوماتُ التي اتخذتها قد تزوّدت أيضاً بوسائل وضعها موضع التطبيق الفعلي .

إن المسائل التي تطرحها السياسة والتخطيطات ، شيمةُ كل المسائل اللسانية ـ الاجتماعية ، لا يمكن فهمُها وايجاد حلٍ محتملٍ لها ، إلاّ إذا أُخذ في الاعتبار تفاعلُ عوامـل البنى والوقـائع غيـر اللغويّة . غير أنَّ من المناسب التشديد على أنَّ المستمعين نادراً ما يعون المقوّمـات البنيويـة غير اللسـانية للغـة التي يستعملونهـا . فالرجال الذين في أيديهم سلطة الشروع والقيام بسياسة او بتخطيط لغويّين يتصرّفون في هذا المجال عامّة المتكلّمين . كذلك ، حتى وإن كـان اللجوء إلى المعـرفة اللسـانية لا يكفـل وحـده نجـاح هـذه المشاريع ، فإن الاستغناء عنهـا عمداً يمكنـه أنّ يساوي اخطـاءً باهظة ، وحتى يمكنه ان يعني الفشل .

وهكـذا إذن ، وحيث أنَّ المتكلمين والمخططين غيـر واعين لوجود ، وبالتالي ، لنوعيّة المنظـومة اللسـانية ، فـإن الميزة التي يمكنهم ان يمنحوها لها أو يحرموها منها ، لن تتوقّف اساساً على نوعيّة المنظومة . ولن يكون حاسماً أن تكون المنظومة مؤتلفة أو غير مؤتلفة توالدياً ، وان تكون محلية / مولَّدة (Pidginisé) او غير مولَّدة ، وان تكون لوناً وحيداً او ممثّلة فقط شبكة الوان إقليمية ، الخ .

كذلك ليست الميزة الممنوحة الى لغة ، أو المواقف اللسانية المختلفة التي يمكنها ان تستثيرها في الفئات الاجتماعية المعنية ، هي التي تصنع وحدها نجاح أو فشل تخطيطٍ لسانيّ .

١٤/٧ـ التجربة العربية

هكذا ، لم يكن المركز المرموق الممنوح للمنظومة المؤتلفـة توالدياً ، اي للعربيّة المقعَّدة ، المسماة مأثورة (كلاسيكية) ، كافياً

لنجاح السياسات اللغوية التي كانت العربيّة موضوعها . ففي الواقع ، تُعتبر العربيّةُ المأثورة مؤتلفة توالدياً ، وخير ممثل للمجموعة السّاميّة . أضفْ الى ذلك أنَّ كونها مرتبطة بنص قدسيّ ، القرآن الكريم ، وبتاريخ وثقافة وآداب مرموقة جميعها ، قد منحها امتيازاً كبيراً جداً . فقبل أنْ يختار كثيرٌ من البلدان العربية المأثور كلغةٍ قوميّة أو رسميّة ، كانت أكاديميّاتٌ شتى قد اشتغلت ـ وبعضها منذ ١٩١٨ ـ على الصياغة المعجميّة لهذه اللغة . وبوجهٍ عام ، لم تتوصّل إلى التوافق على جزء من الاصطلاحات العلمية أو الفنيّة ، إلاّ مع كثير من المتاعب والمصاعب ، لكنّها كانت مُجمعةً على استنكار « الإقليميّات » المطبوعة جداً بطابعها الذّوقي أو الاقتراضات المباشرة من لغاتٍ أخرى . إن المعجميّة الموحّدة على هذا النحو كان يتعيَّنُ عليها أنْ تكون معجميّة عربيةٍ مأثورة محدثنة (تسمّى أيضاً العربية الحديثة) يمكنها الاحتفاظُ بالأشكال وبالنّحو الملحوظ في النصوص الأدبية الراقية ، ما خلا عدد صغير من «الاستثناءات» أو «اللطائف» التي لم يتوصل أحدٌ إلى التواضع عليها رسمياً . ليس هناك تصوّر للذهاب إلى أبعد من هذا التحديث بكثير (Altoma, Arab Countries, p. 302- 305) . فمن المحرّمات المسُّ بألفٍ واحد من القرآن ، كما يقال (وبكل ما كُتب بهذه الأبجدية التي أنزلَ بها القرآن ، كما يُعتقد بلا ريب) . وبالقدر الذي لا يكون فيه هذا النّوع من الأقوال حرفاً ميتاً دائماً ، لا يمكن في الحقيقة الخوض مثلاً في قضية إصلاح عميق للمنظومة الإملائيّة أو حتى في قضية إجراء تغييرات مبتكرة في الأبجديّة . ومع ذلك فإنَّ الهدفَ الذي ينشدُه مسؤولو الأقطار العربيّة عندما يباشرون تخطيطاً لسانياً ، هو أن يجعلوا أولاً من حالة لغوية قديمة لغةً متكيّفة مع كل الحاجات الرّاهنة ، بما فيها حاجات العلوم والتقنيّات . وفوق ذلك ، يُرادُ أن يجعل منها اللغة المشتركة ذات الاستعمال اليومي بالنسبة

إلى جميع الناطقين باللسان العربي . يقدّرُ بعضُ المخططين والمثقّفين أن في إمكانهم التوصّل إلى ذلك في عشر سنوات أو في خلال خمسين سنة كأقصى حد . وهم يعتمدون لتحقيق ذلك على تعميم التعليم ، وعلى حراك للسكان متزايد صعوداً وهبوطاً بين مختلف الأقطار العربيّة ، وعلى دور أعظم لوسائط الإعلام الجماهيري .

لكنّ النّاطقين بالعربيّة الذين يرون ان استعمالهم الشفهي للعربية المأثورة (المحدثنة) يجب ان يغدو استعمالاً يومياً في غضون عشر سنوات أو خمسين سنة ، لا يمكنهم ، في أغلبيتهم ، أن يتحدّدوا تحديداً دقيقاً كناطقين بالعربيّة إلاّ لأنّهم يمارسون ، وهم ينتظرون ، هذه العاميّة أو تلك من عاميّات العربيّة . والحال ، فإنّ المخططين الذين يعملون على إنماء العربية المأثورة وتصنّعاتها الوظيفيّة لم يقوّموا دوماً العواقبَ الكثيرة لوجود هذه العاميّات تقويماً صحيحاً . ولم يستخلصوا النتائج الأخيرة التي كان الوضع يفرضُها . وهم إذا كانوا لم يقوموا بذلك ، فمردُّ الامر ، وإلى حد كبير ، إلى الموقف اللغوي الذي تثيره العربيّةُ المأثورة في المقام الاول لدى المتعلّمين ، وهم المخطّطون أنفسهم . ولكنْ لدى متكلّمي العاميّات العربية أيضاً ، حتى وإن كانوا أُميّين .

في حين أنَّ تخطيطاً لسانياً يعتبر مكلفاً على الدوام ، لاسيما في بداياته ، فإن من الواضح ان التخطيطات التي بوشر بها في كثير من الأقطار العربيّة كانت قد جرت في ظروف إقتصادية غير مؤاتية في معظم الأحيان . وكانت المصاعب تتجلى في الأرقام التي قدّمتها الاونيسكو (UNESCO) منذ ١٩٦٥ . ففي ذلك العام ، كان في بعض الاقطار العربيّة اكثر من ٦٥٪ من الأميّين وشبه الأميّين . ولم تنخفض هذه النسبة في السنوات التالية إلاّ ببطءٍ . زدْ على ذلك أنّ كثيراً من الناطقين بالعربية كانوا من ذوي اللغتين ، وأنّ الراموز

المكتوب الذي كانوا يمارسونه إنما كان الراموز المرتبط بلغة القوّة الاستعمارية القديمة . والحالة هذه ، تُقوّم على نحو أفضل النتائج الأولى للتخطيطات الجارية ، وكذلك الوقت اللازم والوسائل الواجب تثميرها لكي تغدو العربيةُ المأثورةُ المحدثةُ اللغةَ المشتركةَ ذات الاستعمال الشفهي اليوميّ للناطقين بالعربيّة كافةً .

إذا كان الاستعمال الكتابي والشفهي للعربية المأثورة قد تأخّر تعميمه وشموله ، فمن المتعيّن ردّ ذلك إلى عجز المعلّمين الذين يستعملون هذه اللغة استعمالاً غير صحيح ، كما كان يقرّر ذلك سنة ١٩٥٤ الكاتبُ المصريّ طه حسين ومعه عددٌ آخر من ذوي العقول النيّرة . وهناك عقول أخرى لا تقل عنهم تنويراً ، كانت مشغولة ، سنة ١٩٥٧ ، بالاستطلاع والتنقيب في أوساط المدرّسين العراقيّين : كان ٧٠٪ من هؤلاء المدرّسين يعتبرون أن العربية المأثورة كما هي ، خصوصاً مع منظومة حركاتها الإعرابية الطارئة (Désinences Casuelles) ليست الوسيلة التعليمية الفضلى بالنسبة اليهم ولا بالنسبة إلى تلاميذهم . وهم حتى عندما تكون معرفتهم بالعربية المأثورة مقبولة ، إنما يختارون طوعياً لوناً لغوياً آخر : ويؤكد ٢٠٪ من هؤلاء المدرّسين أنّهم لم يستعملوا العربية المأثورة خارج قاعات التدريس أبداً ، ويصرّح ٩٠٪ منهم أنهم يستعملون عربيتّهم العاميّة في خلال حصصهم ، على الرغم من كل التوجيهات والتعليمات الوزاريّة . وطالما أنّ وجود العاميّات العربية سيظلُّ ملموساً ، فإن كل إشكاليّة التعليم والتخطيطات اللسانيّة العربية ستبقى مغلوطة ومزيّفة على هذا النّحو . إن المباشرة بتخطيط لسانيّ ، مع رفض بيّنة التبدّل اللغوي ، هي من الأمور العبثية ، المستحيلة ، مؤخراً ، بمعزلٍ عن دوائر السلطة ، وبعيداً عن النُّخب السلفيّة ، اتّخذ باحثون مواقفَ جديدة حين انكبّوا على الوصف العلميّ للعاميّات العربيّة ، وللعربيّة المأثورة كذلك ، ولاستعمالاتها

الواقعيّة أيضاً[٣] . وكان جديداً أيضاً ـ لكنّه هذه المرّة في صميم دوائر السلطة بالذات ـ الموقف العملي الذي اتخذه رؤساء دولة مثل عبد الناصر أو بورقيبه اللذين كانا قد اختـارا القاء خطبهما التي يعوّلون عليها اكثر من سواها ، في لـون لغويّ ، شـديد الاتّسـام بالسّمة العاميّة ، كما يقول البعض ، والذي هو العربية الوسيطة ، كما يسمّيها اللسانيّون[٤] .

١٥/V ـ تخطيطاتُ اللغة الماليزيّة

إنّ اللغات المحليّة التي صارت قومية و/أو رسميّة ، لم تكن جميعها في الماضي لغاتٍ ذات امتياز كبير جداً . وبعضها لم يكن أولاً سوى لغات علاقاتٍ شعبيّة . هذه هي حالة الماليزية (Alisjahba-na, **Indonesia and Malaysia,** P.391-461) التي لا يتكلمها كلغة أولى سوى ١٥ مليوناً ، لكنها اللغة الثانية لـ ١١٠ ملايين نسمة ، وتحظى اليوم بمركز لغة قومية و/أو رسميّة في الاتحاد الماليزي والـدولة الاندونيسيّة ودولة سنغافورة . لقد انتشرت الماليزيّة ، انطلاقاً من موقعها الأول على طرفي المضائق الكبرى ، وعلى امتداد الخطوط البحريّة ، في الهند والصين في بعض الحقبات ، نـاقلةً احيـاناً ، بشكل عابر وبلا قصد ، تعاليم الاسلام أو تعاليم البعثات التبشيرية المسيحيّة . لقد انتشرت وامتدت وهي تؤدي وظيفة لغة علاقة شعبية بين المتحدات الساحليّة التي تعيشُ في جزر آسيا الجنوبية الشرقية

---

(٢) إنّ عمل وحياة مراكز البحوث هذه (كالمركز التابع ، مثلاً ، لجامعة تونس والذي يضم قسماً للسانة) ليسا ، إلاّ نادراً ، بمنأى عن المصاعب من كل الألوان التي يمكن أن تفرضها عليهما معارضـة محافظـة ومعياريـة ، متجلّية حتى في الفئـات الاجتماعية الحاكمة ، وفي قسم من الطبقة القياديّة .

(٣) انظر ايضاً ، سابقاً ، IV/٣٠ .

اللامعدودة ، والتي تتكلّم مئات اللغات والعاميّات المتنوّعة.

مع استقلال البلاد سنة ١٩٥٧ صارت الماليزيّة اللغة الرسميّة للاتحاد الماليزي . وقرّرت الحكومةُ الأولى أن هذه اللغة يمكن كتابتها من الآن فصاعداً بواسطة الأبجديّة اللاتينيّة ، ولكن مع إمكان الإستمرار بتعليم الأبجديّة العربيّة للتلاميذ المسلمين.

كانت الجزر الأندونيسية لا تزال مستعمرة هولندية سنة ١٩٣٨ عندما انعقد مؤتمر اللغة الأول ليقترح ليس فقط إغناء المصطلحات العلمية والتقنيّة في الماليزيّة وإصلاحاً للإملائيّة ، بل أيضاً تحرير قواعد جديدة متوافقة مع التبدلات الملحوظة في اللغة . سنة ١٩٤٢ ، قامت الماليزية بطرد الهولندية من مجالات الإدارة الداخلية والتعليم ، في ظلّ الغزو الياباني ، وكانت الماليزية وهي تؤدي وظيفتها كلغة علاقة بين متحدات لغات شتى (من اهمها الجاوانيّة Jawanais والسوندانية Sondanais) ، قد أصبحت رمزاً للوحدة القوميّة في مواجهة المستعمرين الهولنديين ثم المحتلّين اليابانيّين . وفي سنة ١٩٤٥ منحتها الدولة الاندونيسيّة المستقلة مركز لغة قوميّة.

وفي اندونيسيا كما في ماليزيا ، قامت معاهد ومصالح إداريّة لإنماء الماليزية ، فوضعت لوائح مفردات لمختلف الاصطلاحات (العلوم ، التقنيّات ، الطبابة ... : ٧٠,٠٠٠ مفردة في ماليزيا منذ ١٩٦٧ ، و٢٥٠,٠٠٠ في اندونيسيا) . ونشرت كتباً ومعاجم ، وحاولت منذ ١٩٥٤ وضع تخطيط لساني دولي . وكان أحد المسؤولين الأندونيسيّين عن هذا التخطيط يؤكد أنّ الماليزية لم تكن قد أصبحت لغة مشتركة حديثة إلاّ بفضل انتفاضة حقيقية على اللغة الماليزية القديمة . وكان المخططون قد أجادوا الإحاطة بالتغيرات الجارية في منظومة اللغة ، وبالتغيرات في موقف المتكلمين تجاه اللغة ، وبالوظائف الجديدة التي كان يتعين على اللغة أن تؤديها في

كل يوم . إن الماليزية وهي لغة علاقة شعبية لم تحتفظ من ماضيها بالمجد الذي احتفظت به العربية ، وكذلك كان الموقف اللغوي لمخططي الماليزية ومتكلّميها ، موقفَ قبول للتغير اللغوي ، بلا عنادٍ ومكابرة . إن هذا الموقف يسّر الاقتراض المعجمي الواسع من لغات الاستيطان الاستعماري ، وبالأخص من الانكليزيّة ، لدرجة أنّه يُحكى اليوم عن مسار اندو ـ اوروبي حقيقي لهذه اللغة الأوسترونيزية . لم يكن هذا المسار محتوماً في الحقبة الاستعمارية أو ما بعد الاستعمارية ، وهو ليس البديل المحتوم لتكيّف لغة غير اندو ـ أوروبية مع الوقائع المعاصرة ، فعندما يتقبّله المبرمجون وبالأخص المتكلّمون ، يمكنه أن يمثّل توفيراً كبيراً في الوقت وفي وسائل التخطيط اللساني ، وفي كل حالٍ لا يمكنُ أن يؤسف عليه إلاّ لأسباب غير لغويّة .

١٦/٧ ـ من التجارب الافريقيّة

شهدت السواحلية ، وهي لغة بانتو من حيث نحوها وأشكالها ، تحوّلاً في منظومتها الصّواتية التي استدمجت عدة وحدات مقترضة من العربيّة ، وفي معجميتها التي صارت ساميّةً بكاملها تقريباً ، إنها إذن منظومةٌ يمكن اعتبارها اليوم كأنها غير متجانسة توالدياً . زدْ على ذلك أنّ ألواناً محلية من هذه المنظومة ، لا سيما في تانجانيكا ، كانت قد صارت لغة مولّدة حقاً. والحالة هذه، من المفيد أن نلاحظ أنّ السواحليّة قد صارت في تانزانيا (تانجانيكا وزنجبار) بوجه خاص ، لغة قوميّة ، فلغة العلاقة الشعبية هذه ، لغة التجارة والاتصال بين القبائل ، كانت قد ارتبطت لأمد من الزمن ، وفي بعض متّحدات الشرق الافريقي ، بمساوىء الرّق الذي كان يمارسه تجار من بلاد اسلامية . يجب أن يضاف الى ما تقدّم ، أنّ المرحلة الأولى من قوننة السواحلية وتقعيدها ، جرت تحت إشراف المستعمرين

الألمان ثم الإنكليز . وأن من الصعب عندئذٍ الافتراض أن السواحليّة أمكن اختيارها كلغة قوميّة لتانزانيا ، نظراً لامتيازها الغابر بشكل أساسي.

وكانت الصوماليّة ، وهي أكثر من لغة مشتركة شبكةً عاميّاتٍ يتكلّمها بشكل رئيسي مزارعون ورعاة رُحّل . كانت لغةً بدون راموز مكتوب ، وكان ٩٠٪ من متكلميها أمّيين . أما الذين كانوا يكتبون ويقرأون ، فكانوا يفعلون ذلك بالعربيّة والإيطالية أو الانكليزيّة . استمر هذا الوضع أجلاً معيناً حتى بعد استقلال البلد ، إلى أنْ شرعت الحكومةُ العسكرية ، التي كانت قد استولت على السلطة سنة ١٩٦٩ ، بتخطيط لسانيّ . القرار الأول : يمكن للغة القوميّة أن تكون مكتوبة بالأبجدية اللاتينية ؛ القرار الثاني : تُكلَّف لجنة لغوية بوضع أو حتى بترجمة كتب لا بد منها في محو الأميّة . واعتباراً من عام ١٩٧٢ ، كان السكان المدينيون والموظفون في طليعة المتعلمين . ثم شنت الحكومة سنة ١٩٧٣ حملة واسعة لإنماء المجتمع الريفي . وبين شهر آب (اغسطس) ١٩٧٤ وشهر شباط (فبراير) ١٩٧٥ ، جرى إرسال ١٥٠٠٠ تلميذ وطالب ، و ١٠,٠٠٠ مدرّس وموظف وممرض وطبيب بيطري ، لمحو الأميّة لدى البدو والمزارعين . وفي نهاية الحملة لم يبقَ سوى ١٠٪ من الأميّين . كلّف ذلك ما يعادل ١٥٥ مليون فرنك فرنسي . وكان ذلك يمثّل مجهوداً كبيراً بالنسبة الى بلد صغير (٣,٥ ملايين نسمة) ، فقير ، ازداد فقراً سنة ١٩٧٤ بسبب الجفاف الذي كان قد دمّر كلياً ٢٥٠,٠٠٠ فلّاح صومالي ، وألحق اضراراً بالبلد بلغت ٧٥٠ مليون فرنك فرنسي . صحيح أن التقعيد النحوي ، والصياغة المعجمية وقولبة الصوماليّة ، لم تكتمل اليوم ، لكنَّ الصوماليّة باتت تؤدي وظائف اللغة المشتركة المحكيّة والمكتوبة من طرف الأغلبية ، وهذه بالذات هي الوظائف الأولى التي ينبغي أن تقوم بها لغةٌ قوميّة .

إن نتيجة السياسات والتخطيطات التي عانتها العربيّة، الماليزيّة، السواحليّة أو الصومـاليّة، تجعلنا ندرك إنّ المواقف اللغوية والتاريخ الحديث أو البعيد الذي ترتبط به هذه المواقف، لا تشكّل وحدها نجاح مشاريع كهذه أو فشلها. فهي، مهما بلغت أهميتها في بعض الحالات، ما هي إلاّ مقوّمات من بين تلك المقومات التي توجّب على المخطّطين أن يحيطوا بها في الأوضاع اللسانية الاجتماعية الموروثة عن الاستعمار.

التخطيط اللسانيّ : تفاعل عدّة عوامل

١٧/٧ ـ التخطيط اللساني والمقوّمات الاقتصادية

في الواقع، أن عدد العوامل التي يُحسب حسابها في تخطيط لساني، كبيرٌ لدرجة انّ المخططين أنفسهم لا يمكنهم أنْ يتوخّوا ضبطها كلّها، ولا حتى معرفتها جميعها، او أيضاً تقويم كلٍ من العوامل التي يعرفونها، بدقة. هذا ما يستخلصه الباحثون أنفسهم حين يحدّدون التخطيط اللساني بوصفه محاولة لـ ...، مجموعة جهود ترمي إلى....

للوهلة الأولى، يمكن للشروط الاقتصادية المقابلة لتخطيط ما، انْ تظهر عاملاً اساسيّاً، لكنّها في الواقع لم تعد تشكّل وحدها نجاح أو فشل التخطيط المباشر به. ففي ايرلندا، ليست الشروط الاقتصادية هي العقبة الكبرى بالنسبة إلى مسؤولي التخطيط اللسانيّ، لأن الحكومة تمنحهم موارد بشرية ومـاليّة لا يمكنُ إنكارها. زِدْ على ذلك انّ قوّة المشاعر القوميّة تشترط موقفاً لغوياً مؤاتياً جداً للايرلنديّة، سواء لدى أولئك الذين يتكلّمونها أم لدى

أولئك الذين ما عادوا يتكلّمونها . لكن كل سكان ايرلندا كانوا يتكلّمون الانكليزية سنة ١٩٦١ ، بينما كان ٢٧٪ من هؤلاء السكان فقط يواصلون إجراء ٥٪ على الأكثر من التخاطب اليومي بالايرلنديّة . إن نصف الفشل الرّاهن الذي مُني به التخطيطُ اللسانيّ الايرلنديّ هو ثمرة عدّة قرون من الاحتلال الانكليزي . وهو بوجه خاص يعود إلى كون إبدال الإيرلندية من الانكليزية كان قد أمسى في طريق الاكتمال عندما بدأ التخطيط اللساني .

في المقابل شنّت كوبا بنجاح سنة ١٩٦١ حملةً وطنيةً لمحو الأميّة ، وبدأت حملتها لتجويد المهارة العماليّة والفلاّحية ، بينما كان البلد يواجه حصاراً اقتصادياً شبه كامل ، كما تكاثرت أعمال التخريب الاقتصادي داخلَ الجزيرة . وكان البنزين والورق مفقودين ، الأمر الذي لا يسهّل ، بكل وضوح ، تنقلات وأعمال القائمين بمحو الأميّة والمعلّمين .

١٨/٧ ـ التخطيط اللسانيّ والمقوّمات الفكرويّة

يمكن اذن التعويضُ عن الشروط الاقتصادية غير المؤاتية بادخال مثيرات ودوافع فكرويّة (ايديولوجية) قوية . ففي كل السياسات اللسانية ، حتى في تلك التي تجعل من عدم التدخل نهجها القيادي ، وفي كل التخطيطات اللسانية ، من النرويج الى تركيا ، أو من أندونيسيا إلى كوبا ، مروراً بالمغرب ، كان العامل الفكروي ثابتاً من الثّوابت البيّنة .

بالطبع ، يمكنُ للعلاقة بين الفكروية والتخطيط اللسانيّ أن تظلّ علاقة ضمنية الى هذا الحد أو ذاك ، لكنها تغدو بوجهٍ خاص مفيدة للنّظر والدّرس عندما تصبح علنية ، صريحة .

١٩/٧ ـ المثال الفيليبينيّ

من هذه الزاوية ، التخطيط اللسانيّ في الفيليبين خيرُ مثالٍ يُضرب. فالفيليبين هي ٧٠٠٠ جزيرة وعدد سكانها ٣٧ مليون نسمة (سنة ١٩٧١) . وهي أيضاً عبارة عن اربعة قرون من الاستيطان الاستعماري الاسباني ، وسنة من الجمهورية المستقلة ، ثم هيمنة الولايات المتحدة اعتباراً من العام ١٩٠٠ . وهي أخيراً ثمانون إلى ١٥٠ لغة مختلفة ، حسب شتى التقديرات ، وتخطيط لساني على شاكلة هذه الوقائع السالفة والحاضرة .

إن القوميّة الفيليبينيّة الأولى هي قوميّة نخبة محلية متأسبنة ، جعلت من الاسبانيّة اللغة القومية لجمهورية ١٨٩٨ العابرة ، وأعلنت حريّة تعليم اللغات المحلية ، ومنذ ١٩٠٠ ، فرضت الولاياتُ المتحدة الانكليزيّة في التعليم الوطني ، بينما اللغات المحلية لم تحظ البتّة بأي مركزٍ رسمي . بعد ١٩٣٤ ، تغيّرت موازين القوى والتيارات الفكريّة داخل الحركة القوميّة الفيليبينيّة ، لدرجة أنّه صار يُقترح فيها عندئذٍ ، بهاجس الاتحاد الوطني ، وضعُ لغةٍ محليّة مشتركة قوامُها عاميّاتُ التاغالوغ (Tagalog) المحكيّة في شمال الأرخبيل . ومنذ ١٩٤٠ ، باتت الفيليبينو (Philipino) كافيةً الإرصانِ للبدءِ بتعليمها ، وأعترف بوجودها الرسمي سنة ١٩٤٦ .

لكنْ في خلال ذلك ، ترافق الغزو والاحتلالُ اليابانيّان ، ثم استرجاع الولايات المتحدة للفيليبين ، وأخيراً ترافق الاستقلال النّظري الممنوح بعد ذلك للبلد ، مع كثير من التحولات الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي حالت دون بقاء الفكرويّة القوميّة موحّدة لدى الفيليبينيّين، ومنذ ذلك الحين وُضع على المشرحة تفوّقُ الاقليميّة التاغالوغيّة وما تمثّل ، بشكل منهجي منتظم . إن اسم هذه اللغة القومية بالذات ، المثقل جداً بمفهومات متعلّقة بهذه الإقليميّة ، قد

جرى تغييره وتحـويله من (filipino) إلى (pilipino) . غيـر أنّ تعليم البيليبينو لم يوضــع بعد على المشـرحة مبـاشرة . يستخلص من احصاء أجري عـام ١٩٧١ ، أنّ اللغة القـومية يتكلّمهـا من الآن فصاعداً أكثر من ٦٠٪ من السكان . وفي سنة ١٩٧٢ ، لم يبقَ في الواقع للقوميّة الفيليبينية أي شيء موحّد . فهناك فريقٌ من الطبقة القائدة يرفض حق فريق آخر : الفريق الذي يدافع عن اللغة القومية البيليبينو ، والذي يمثّل بين امور أخـرى الإقليمية التـاغالـوغية ، يرفض حقّه في فرض نموذجه وعاداته اللغوية على البلاد قاطبةً . إن الميثـاق الدسـتوري الجديـد ، على الرغم من النتـائج الأولى لاربعين سنةً من التخطيط اللسانيّ ، يعترف بالبيليبينو كلغةٍ قوميّة . ولم يعد ثمّة سوى ثلاث لغـاتٍ رسميّة في الفيلـيبين ، الانكليـزيّة والإسبانيّة والعربيّة ، بانتظار قيام لغةٍ قوميّة جديدة لن يتعيّن عليها أن تُؤسس على لغةٍ واحدة أو على طائفةٍ واحدة من الوان المحليّة .

٧/٢٠ ـ الفكرويّة والتخطيط اللسانيّ في الاتحاد السوفياتي

غالباً ما كانت في الاتحاد السوفياتي أيضاً، العلاقاتُ صريحةً بين السياسة والتخطيطات اللغوية والفكرويّة ، فقبل ١٩١٧ بكثير ، كان الماركسيّون يناقشون السياسة اللغوية ، وبالاخص ما من شأنه تحديد إختيار اللغات القومية في إطار الاشتراكيّة ، وبالتـالي بعد استلام الحكم . كان لينين يتفكّر في هذه المسائل منذ ١٩١٣ . وكان من شأن ضرورة العوامل الاقتصادية ذاتها أن تحدّد أية لغة يمكن للاكثريـة في بلدٍ معيّن أنّ تتعلمّها بفائـدة وجدوى ، وفي مصـالح التجارة بالذّات . كانت هذه الطريقـة في الاختيار هي االأضمن ، وكان الاهالي يمكنهم ان يتبنّـوها بطيبـة خاطـر وبسرعـةٍ وبسعةٍ متناسبة مع مقدار الممارسة لديمقراطية أوسع وأفعل (18 septembre

. 1913; Sochineniia, XVI, 596)

وعلى المدى الأطول ، كان من شأن ظهور دولة إشتراكية عالميّة أنّ يزيد من سرعة تبني لغة مشتركة ، هي أيضاً عالميّة . ولكنْ في انتظار ذلك ، سيكون ميراثُ سياسة الروسنة اللغوية ، التي كانت سياسة القياصرة ، عبئاً ثقيلاً على ديمقراطية محتملة تعقبُ الامبراطورية . لقد كان لينين معارضاً لتبني الروسيّة كلغة رسمية للدولة (6 décembre 1913, Sochineniia, XVII, 89) .

بعد ١٩١٧ ، واصلت السياسةُ اللغويّةُ عكْسَ المناقشات النظريّة . فكان كل من يقترح تبني لغة مشتركة في الاتحاد السوفياتي يرى نفسه موسوماً بوصمة التحريفية الشوفينيّة الروسية العظمى . وكان ذلك هو عصر تكوّن البنى الدولانيّة الخاصة بالمتّحدات الثقافيّة ، اللغويّة ، او الإثنيّة التي كانت القيصرية قد حاولت سحقها . كما كان عصر اللغات القومية بلا راموز مكتوب ، المزوّدة بتدوين قوامه الأبجديّة اللاتينيّة . وكان لهذا الاختيار للأبجدية اللاتينية بالذات أساسٌ فكرويّ ، لأن الكثيرين من منظّري الثورة كانوا يعتقدون آنئذٍ أنّ مركز الدولة السوفياتية العالمية المقبلة لا يمكنه أن يكون الاتحاد السوفياتي ، ولكنّه قد ينتقل إلى اوروبا الغربية . وربما يكون للغة المشتركة لهذه الدولة حظٌ ضئيل في أنّ تتأثّر بالروسيّة ، وبالتالي فإن راموزها المكتوب قد لا يكون قائماً على الابجدية الكيريليكيّة (Cyrillique) . وان اختيار الابجديّة اللاتينية منذ ذلك الحين للغات القومية بلا راموز مكتوب ، معناه بكيفيةٍ ما توفيرُ مرحلة . وفوق ذلك، كان لهذا الأمر الفضل في تجنّب كل مخاطر الشوفينيّة الروسية العظمى .

ومع تطبيق نظرية جديدة ، نظرية Lebed ، الموسومة بـ « نظرية الصراع بين ثقافتين » ، اعتباراً من ١٩٢٣ ، تجدّد ظهور تدريس الروسية في كل مدارس أوكرانيا ، بينما كانت

البروليتارية الحضريّة وحدها تتكلّم الروسيّة في هذه الجمهوريّة ، وكان الفلّاحون يتكلمون اللغة الاوكرانيّة . وبعد ذلك ، سيقوم ستالين بتوجيه السياسةِ والتخطيط اللغويين في الاتحاد السوفياتي ، بإسم المناقشات الفكرويّة الجديدة والنظريات الجديدة ، « ثقافة قومية من حيث الشكل ، لكنّها إشتراكية في المضمون » ، إمكان أو عدم إمكان لغة مشتركة في الحقبة التي تلي مباشرة « انتصار الإشتراكيّة في بلد واحد » (mars 1929, Sochineniia, XI, 342-344) . وفي نهاية الثلاثينات (١٩٣٠) زودّت اللغات التي كانت قد تلقت بعد ١٩١٧ أول تدوين مؤسس على الابجدية اللاتينية ، بتدوين جديد قوامُه هذه المرّة الابجدية الكيريليكية ، في ١٣ آذار (مارس) ١٩٣٨ ، قرّرت الحكومة السوفياتية ان تعليم الروسيّة سيشمل وفقاً لنموذج واحد مدارس جميع جمهوريّات الاتحاد . كما أن النقاش الذي حظي سنة ١٩٥٠ بأوفر التطبيقات على المساجلات الفكروية الكبرى ، والذي خاضه ستالين حول موضوع نظريّات نيقولاس آ . مارّ (Nicolas I. Marr) ومدرسته اللغوية ، كان ايضاً قد أثير اخيراً ، والى حد كبير جداً ، من جرّاء المسائل التطبيقيّة للتخطيط اللغوي (Good man, world language, p. 717-736) .

الأبحاثُ والتجاربُ اليوم

٢١/V ـ ثوابتُ التجارب الماضية

لوضع نظرية خاصّة بالسياسة اللغوية وبالأخص بـالتخطيط اللسـاني ، كان من المنـاسب أولاً استخلاص الثـوابت ، وكذلـك استخراج العبر ، من التجارب المتراكمة حتى يومنا هذا.

ففي عـداد المكوّنـات المستقرة ، تُصنَّف حـالياً المـراحـلُ المختلفـة التي تبني مجمـل المســار التخطيطي اللغـويّ . وأولى المراحل هذه هي مرحلةُ اتخاذ السلطات الحكوميّة **القرار السياسي** بتخطيط إنماء لغةٍ ما وكيفيّات استعمالها ، واصطفاء اللغة ذاتها ، اذا دعت الحاجة إلى ذلك . وفي أغلب الأحيان ، تظلُّ هذه المرحلة الأولى بكاملها خارجَ ميدان اللسانيّ ، في حين أنّ المراحل التالية ، تلك التي يجب أنْ تفضي إلى قولبة اللغة المُختارة ، تدخل في هذا المضمار . ومرحلة القوننة أو **التقعيد** هي مـرحلة وضـع النماذج الصّواتية ، القواعديّة والمعجميّة التي ستسمـح باستقـرار اللغة ، والتي ستمنحها على هذا الوجه إمكان القيام ، على أفضل نحو ، بما يسميه البعض **وظيفتها المرجعيّة** (Fonction de référence) ، ويكون للمتكلّمين هواجس تصويبيّة يفترض التمكّن من الرّد عليها ، حتى تقبل اللغة بيُسر وسهولـة من قبل المتخـذ بأسـره . وفوق ذلـك ، تستطيع القوننة وحدَها أنْ تخلق الإطار المستقر الذي ستنطلق منه ، كما يقال ، ممارسة الإبداعية والصياغة الأدبيّـة . واذا كان يتعيّن

على القوننة (من ترميز وتقعيد) أنْ تكفل للغة استقراراً مرناً كافياً للسّماح لها بالتكيّف مع تطورات ثقافيّة مقبلة ، فإن الإرصان (Elaboration) يتعيّن عليه من جهته أنْ يجعل اللغة متلائمةً مع الحاجات الثقافيّة والعلمية والتكنولوجيّة القائمة.

والقوننة والإرصان مرحلةٌ من **تخطيط التدوين** أو المدوّنات (Planification du corpus)، ذلك الذي تقع مسؤوليته على اللسانيّ مباشرةً . ولكن من الممكن أن تظهر دائماً في هذه المرحلة مصاعبُ وعقباتٌ مردّها إلى العادات والمواقف اللغوية للمتكلّمين وللمخططين أنفسهم . وقد ترجع هذه المصاعبُ إلى **تخطيط مراكز** (Planification des statuts) اللغة.

٢٢/٧ ـ التوقّع والمراقبة

إن دراسات مقارنة للكلفة المتوقّعة وللفوائد المرتقبة ، يمكنها أنْ تحضّر بشكل مفيد مرحلة **تطبيق** التخطيط ، تلك التي تتزوّد فيها السلطات الحكوميّة بالوسائل الماديّة لفرض قرارها والمتغيّرات الطارئة على اللغة من جرّاء القوننة والإرصان.

وحتى دون انتظار نهاية مرحلة التطبيق ، يتعين البدء ليس بتقويم النتائج الأولى وحسب ، بل أيضاً الطرق المستعملة بشكل خاص . ولا بد للتقويم من أن يكون فرصة دائمة للتصويب الذّاتي وللتكييف المتواصل للطرائق والمناهج ، على أساس الاختبار الجاري بالذّات .

وإن معرفة اللغة من جانب مستعمليها ، والموقف الذي يتخذونه تجاهها ، والاستعمالات الواقعيّة التي يمارسونها ، هي كلها معايير لنجاح تخطيط ما أو فشله .

٧/ ٢٣ـ المعيار، المعيار الفوقي وصفٌ أم وصفة

بوجه عام ، يُعتبر الإشتراطُ الفكرويّ للتخطيط اللساني كأنّه واحد من مكوّنات المسار الثابتة، لكنّهُ يُقوَّمُ بكيفيةٍ شديدة التنوّع. فبعض اللسانيّين الاجتماعيّين لا يذهبونَ أبعدَ من موقف الاستنتاج المؤلم والمؤسف لهذا الاشتراط ، كما هو حال هذا الباحث الذي كان يرى سنة ١٩٧٢ ، وبعد دفاعه عن الفيليبينو ، كيف أنّ اقتراع المجلس الدستوري الفيليبيني كان يقضي على عمل أربعين سنة من التخطيط اللسانيّ :

« The hand of politics seems to be ever present even in matters of language » (Bonifacio Sibayan, Philippines, pp.221 - 254).

وثمّة آخرون جعلوا من هذا الاشتراط الفكرويّ معياراً تصنيفيّاً لمختلف النماذج التخطيطيّة : فكلما قلّل المخطِّطون واللسانيّون من ادخال العواطف والخصوصيّة والأحكام القيميّة في النموذج ... ازداد النموذج الذي سيضعونه ، دقّةً وعقلانيّةً . إن من المناسب التخلُّص من كل ابتسار صوفيّ ومن كل حكم قيميّ في موضوع اللغة. فاللغاتُ هي أدواتٌ إبلاغية، وهي بهذه الصفة يمكنُ تقويمها علميّاً بمقتضى فعاليتها التي تغدو ، عندئذٍ ، ملائمةً وحدَها . إن اللغة الأفضل هي اللغة التي تسمح لها تراكيبها بأن تبلغ أقصى النتائج بواسطة الحد الأدنى من الوسائل ، كما يقول هؤلاء الذين يسمّون أحياناً بالأدواتيّين المعياريّين الجدد . ويقرّرون أنّ المهمّة الأكثر إلحاحاً هي أولاً إزالة الأضرار التي تمكّنت عدمُ أهليّة نحويّين مسبوقين من إلحاقها مثلاً بفعاليّة لغاتٍ مقولبة من ذي قبل ، وذلك بحفاظهم على أكثر البائدات ضرراً، مدفوعين بدوافع المحافظة المتزمّتة والرومانسيّة القوميّة والطهرانيّة. وإذا كانت التباينات الأسلوبية مرجوةً تماماً ، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى التباينات

التركيبية من صرف ونحو : فلغة مثل الاستونيّة تملك ٧٠ دالاً متبايناً وغير قابل للموقع الاّ نادراً ، مقابل مدلول واحد هو « Génitif » (توليدي) ، ستستلزم لاكتسابها وقتاً أطول ، وستمثّل عبئاً ذاكرياً أثقل . وعندما يواصل التعليم استعمال أضداد صواتيّة صار مردودها الوظيفي معدوماً في اللغة ، فإنه لا يسير في اتجاه الفعاليّة . ولطالما جرى تصوّر المعيار بوصفه قوننة اللغة الأدبيّة وحدها ، وجرى فرض تعقيدات بالغة التشدّد لدرجة أنّها كانت تحرم المتكلّمين والمخططين من كل تدليل على إمكانات تطور اللغات ، كما كان يؤكد فالتر تولي سنة ١٩٧٢ (Valter Tauli, Language planning, p.49- 68).

من المؤكد أنّ البحث عن نظرية للتخطيط اللسانيّ قد جدّدت فتح السجالات التي لم تختتم أبداً بشكل نهائي ، والتي تتعاكس فيها وجهتا نظر الوصف والوصفة ، البحث الأساسي والبحث المطبّق . وعندما يتعلق الأمر بتغيير أو بنمذجة منظومات صواتيّة ، قواعديّة أو معجميّة ، فان المخططين واللسانيين في أمم آسيا أو أفريقيا الجديدة ، هم بحاجة الى لسانة توصيفية أكثر مما هم بحاجة إلى لسانة وصفيّة أو حتى تبشيريّة ، وإذا كانت اللسانة الحديثة لا تسلّم بهذا الامر ، فإنها ستفشل ، كما أُعلن في ماليزيا سنة ١٩٦٤ (Alis- jahbana, Indonesia and Malaysia, p.391-416).

تنفيذ مطبعة دار الكتب - بناية العازارية - شارع سوريا
تلفون : ٣٢٠٠٦٣ - ٨١١٥٧١ - ص.ب : ١١٣٠٠٤ - بيروت - لبنان

٩٠/٣٠٠٠/١١١٣